بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

يوم أذن الله لنهضة العرب بالانبعاث قبل ستين سنة، آمن الطليعة من جنودها أن أولى مقومات الأمة لغتها، فهي السلك الناظم لكل ما به حياتها.

وحمل هذه الرسالة في الشام حفنة من شبابها توزعتهم دور العلم في الأستانة وبعض عواصم الغرب، فرأوا ما للغة القومية – مهما يضؤل شأنها – من تقديس ورعاية لدى الأمم الراقية والشعوب الناهضة، ثم رجعوا النظر إلى لغتهم العربية وما أدت إلى الحضارة من خدمات، وما حفلت به بين اللغات من أمجاد، فرأوا لغة الأوج ورعاية في الحضيض، فأدركوا منذ حينئذ ما عليهم نحوها من واجب جسيم.

أداروا أبصارهم فرأوا بلادهم تغط في نوم عميق أسلمها إليه الحكم التركي، الحكم الذي لم يكن فيه في عهده الأخير خير للأتراك أنفسهم فكيف يرجى منه خير لغيرهم ؟ فلما أعلنت الحرية والدستور عام ١٩٠٨ واستبشر العرب خيراً وتسلمت الأحزاب الحكم، تبين أن الخطة الخفية لهذه الحرية، وهذا الدستور هي تتريك العناصر بالحديد والنار، فهبوا للعمل في أعصب الأوقات وأحلكها، فأسسوا الأحزاب في عاصمة الخلافة العثمانية على حذر من السلطات، وعوز من المال، وافتقار إلى النصير.

لكن الإيمان إذ ملأ القلب فكل عسير يهون، فما كاد هؤلاء الأخيار من الشبان يجتمعون حتى رأيناهم يأخذون أنفسهم بإصرار المؤمن المنافح على ألا يتكلموا في اجتماعاتهم إلا بالعربية الفصحى على قدر وسعهم، وراغ كل إلى بيته يختلس الوقت، ليعكف على دراسة لغة حرمه الظلم من تعلمها في المدارس، ودوت هذه الخلايا في الأستانة تؤدي رسالتها السياسية والعلمية والقومية بلغة عربية، فكانت مناقشات الأحزاب وخطب الحفلات ونشرات الجمعيات في قلب العاصمة الطورانية.. برهاناً ساطعاً على ما للإيمان والحب المخلص من معجزات.

وخطا الزمان خطوة في امتحان هؤلاء الأخيار المؤمنين، فكان عهد الإرهاب والأحكام العرفية في الحرب العالمية الأولى، وامتلأت السجون بهم أيام جمال باشا السفاح، فاهتزت بكثير منهم أعواد المشانق، وغاب في الصحاري من نجا منهم بعنقه... وشبع الدهر من صهر هذه العزائم، فلما وضعت الحرب العالمية أوزارها، ونشأ في الشام أول حكم عربي قبيل (٤٤) سنة، واضطلع به هؤلاء الصابرون من بقايا السيوف، كان ما أدوا إلى العربية في الشام عجباً من العجب.

شبان تعلموا باللغة التركية منذ نعومة أظفارهم حتى توزعتهم المناصب في الجيش التركي والإدارة التركية في غير بلادهم غالباً، فظلوا بحكم بيئاتهم ومناصبهم لا يتكلمون ولا يقرؤون غيرها، ثم يتسلمون الأعباء، فهل سمعتم بدولة ولدت فغيرت اللغة السابقة المفروضة وأوضاعها بجرة قلم ؟!

هذا ما جرى في الشام أيام الحكم الفيصلي : حُرمت التركية بمصطلحاتها ومواضعاتها جميعاً، ثم عبئت الكفايات في لجان التعريب مصطلحات الجيش وإدارات الدولة وكتب المدارس... يتولى ذلك كله بدأب لا يمل علماء بالعربية، حتى الطلاب في المدارس فرضوا

على أنفسهم عقوبات إن هم تكلموا في الفرص بين الدروس بغير الفصحى.. فلم يمض بعض سنة حتى كانت اللغة التركية في الشام تاريخاً من التاريخ القديم.
بدأت العربية تزدهر في الشام، لكن الحلم العربي بعد تتويج الملك فيصل، لم يستكمل عامه حتى امتحنت البلاد – مع الأسف والحسرة – بالاحتلال الفرنسي، وكانت وطأته أول الأمر عسكرية إرهابية قامعة، لغتها المدفع، ونهب الأموال، والعدوان على الحرمات... ثم قامت ثورات.. ومع هذا اطرد ازدهار العربية في نفوس الأجيال وعقولهم لغة وديناً وتاريخاً وثورة، وعكف القوم على لغتهم يدرسونها ويحيونها ويجدون في بقائها وسلامتها الذخيرة التي تطمئنهم على كيانهم، وتعزيهم حين يخفقون في جولة من جولات كفاحهم للعدو المقيم في عقر دارهم. وطالت سنوات الكفاح، وأيقن دهاقنة الاستعمار الفرنسي أخيراً أن لا أمل لهم وهذه العربية عقيدة في قلوب أهل الشام ودين، فحشدوا مستشرقيهم ومبشريهم يدرسون ويبحثون، ويعومون ويغوصون، فأجمعوا بعد الروية على أن العلاج هو القضاء على مقومات الأمم الثلاث : الدين واللغة والتاريخ، التي هي سر القوة في هذا النضال المستمر المصابر العنيد.
ثم انجلت مكيدتهم عن أن انتزاع هذه المقومات وجهاً لوجه محفوف بالمخاطر، موقظ لغفلة الغافلين، مؤلب لهم، فاحتالوا في أن يسلوها سلاً على مراحل، دون أن ينبهوا أحداً إلى ما يفعلون، ورسموا لذلك :

١- أن يدَّعوا هم الغيرة عليها وحمايتها، وبذلك يخدرون النفوس بما تركن إليه.
٢- أن يتولوا هم أنفسهم تنظيم مناهجها وتسمية مدرسيها.
٣- أن يعدّوا هم أنفسهم مدرسيها ودعاتها في مؤسساتهم (الفرنسية ظاهراً أو من وراء حجاب) إعداداً يبقي العنوان ويمحو ما تحته.

ونفذت الخطط بلطف وصبر وحذر، وبدأت تؤتي ثمارها المرة في العَشْر الرابع من هذا القرن العشرين، وحشد الاحتلال في هذه الوظائف من كانوا تربوا في بيئات استخبارية، ثم أرسلهم لجلب الشهادات في مسابقات صورية مزيفة، إلى فرنسة. ولم يمض على عودتهم وتركيزهم حيث أراد الاحتلال طويل أمد حتى بدأ الانحلال في هذه المقومات الثلاث (الدين واللغة والتاريخ)، إلى أن أنقذ الله البلاد بجلاء الفرنسيين قبل سبعة عشر عاماً.
والحق أن الجلاء لم يتم بعد، فقد رحل الفرنسيون بعد أن زرعوا في مناصب التعليم جراثيمهم التي اطّرد عملها فينا من بعدهم، تشكيكاً في الدين واللغة والتاريخ، ثم استهانة بهن جميعاً. وتسلقت هذه الطفيليات تفسد في جسم الأمة وتجهر بالصلاح، لا تألو عملاً بعكس ما تصرح به، فنّ رسمه المستعمر ونشأ عليه من نشأ وغفل عن حقيقته كثيرون إلى الآن، ولما يتح بعد للشام من يحسن عمل التطهير في مدارسه وجامعاته ومجامعه وسائر مصالحه، فيمد الجسم بالمصل الواقي، ويسلط على هذه الجراثيم العلاج الحاسم المبيد.
نحن في الشام اليوم نعيش في نكسة بدأت من نحو عشرين سنة، وكلنا أمل في أن تنتهي قريباً، فنعود إلى ما كنا عليه قبلُ من قوة وسلامة. وهذا أمل لا نبلغه إلا بعمل دائب في الإعداد، وسهر على التنفيذ مع عناية بالغة بأساليب الوقاية، لعلنا ظافرون بتحقيقه إن شاء الله.

* * *

يعتري اللغة ما يعتري الأحياء من صحة واعتلال فتماثل للشفاء فإبلال فقوة، وما اللهجات العامية مثلاً إلا أمراض تقهقرية ألمت باللغة الجامعة، فإن نحن أحسنا (تشخيصها) والطب لها تخلصنا من أكثر أخطارها. إن اللغة إذن كائن يحيا وينمو، يقوى ويضعف، ولحياتها فينا تقدماً وتقهقراً تاريخ مستقل من نحو، وللمتكلمين بها تاريخ معها من نحو، ومحاضراتنا هذه بسط لما نقدم من حياتها فينا في الخمسين عاماً الماضية ومن حياتها فينا أيضاً، نهجنا فيها نهجاً خاصاً لا يصلح لها غيره، وقد فرض هذا النهج أمران :

الأول طبيعة البحث ذاته.

والثاني خاص بالمؤلف نفسه.

إذ عاش في هذا الطور الذي يؤرخه منذ دخل الدراسة الابتدائية في العهد الفيصلي سنة ١٩١٨ ثم الدارسة الثانوية بين سنتي (١٩٢٣ -١٩٢٨) ثم الدراسة الجامعية بين سنتي (١٩٢٩-١٩٣٢) ثم تقلب في التعليم معلماً ابتدائياً في قرية (منين) قرب دمشق سنة ١٩٢٨، فمدرساً إكمالياً (في المتوسطة التجارية) بين سنتي (١٩٢٩ -١٩٤٠) فمدرساً ثانوياً بين سنتي (١٩٤٠-١٩٤٦) ثم مدرساً جامعياً منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن. وعلى ذلك تقرأ في هذه الصفحات تاريخاً عشت فيه ولم يغب عني إلا أوله، فتداركت أمري بالاستفادة من لقاء الذين عاشوا فيه، وكانوا من أبطاله، أمتع الله بالأحياء منهم ورحم الذين اختارهم إلى جواره صادقين ما عاهدوا عليه.

وأحب أن أنبه هنا إلى هذه الملاحظ:

١- كل ما لا دلالة فيه من الوقائع والأرقام لا أعنى به، إذ لا أؤرخ هنا أشخاصاً، بل ظواهر عامة ونشاطاً ذا أثر بعيد.

٢- إن النهضة العربية التي ستقرأ عن نشاطها في الأستانة ودمشق لم يستقل بها الشاميون، بل تعاون عليها معهم عراقيون ومصريون وليبيون وجزائريون ومغاربة، فاسم عزيز علي المصري مثلاً لا يغفله باحث، كما لا يغفل اسم الشيخ طاهر الجزائري، أو معروف الرصافي أو جميل الزهاوي، فقد تمازجت الأقطار العربية وتساندت في النهوض بحق العرب والعربية مطلع هذا القرن، بل أكثر من ذلك : إن العهد الفيصلي الذي قام في الشام سنة ١٩١٩ أسهم فيه عراقيون وفلسطينيون ومغاربة وحجازيون... وبذلك تدرك سخف (الإقليمية) التي رمى بها الأجانب إلى من تلقفها عنهم، فلم تك تخطر ببال أحد من الرعيل الأول قبل الحرب العالمية الأولى، ولم يدر بخلد أحد منهم أن الأمة العربية ستتفرق شعوباً وأقاليم بعد زوال الحكم التركي. وإذا كنت جعلت على هذه المحاضرات عنوان (الشام) فلأن أكثر من نهضوا بها كان منهم من جهة، ولأني قصرت الكلام على حياة النهضة في الشام تسهيلاً للبحث. وسيشعر العراقي مثلاً أو التونسي أن هذه المظاهر التي أصفها في هذه المحاضرات إن لم تشبه ما جرى في بلده فهي لا تنأى عنه.

٣- سترى اسم (الشام) جرى في هذه المحاضرات على المعنى العلمي لهذه الكلمة، وعلى ما عرفه العرب قديماً وحديثاً، ولا على المعنى الذي أراده الجنرال غورو الفرنسي والجنرال اللَّنبي الإنكيزي ومن عشق تجزئتهما للشام، وانتفع بها منذ الاحتلالين. وهذا المعنى الأجنبي الاحتلالي – وإن امتدت سنواته حتى اليوم – لن يطول به العمر لمخالفته طبائع الأشياء وإرادة الأحياء واقع التاريخ والجغرافية واللغة والآلام والآمال.

٤- حيثما جاء اسم (الأتراك) فالمعنيّ به طغمة الحكام من أحزاب (جون ترك.. والاتحاديين) ولا نعني بحال الشعب التركي، ذلك أن الشعب التركي والأمة العربية كانا يعانيان الوطأة نفسها من هؤلاء المتسلطين العنصريين المتعصبين الحزبيين مع شيء من الفارق.

وبعد فيا عزيزي القارئ، نحن اليوم في إذاعاتنا وحفلاتنا ومحاضراتنا ونوادينا، وصحفنا ومجلاتنا وبياناتنا ونشراتنا وحتى في خطب وزرائنا وارتجالهم.. نحن في كل ذلك ننعم بنثر رفيع ولغة مشرقة وبيان سلس وشعر جيد وحياة أدبية، وسبل ممهدة، ومناهج مطروقة، فتغبط بكل ذلك وينسى أكثرنا عرق الكادحين الذين مهدوا السبل وتحملوا المشاق، وأوذوا في أموالهم وأبدانهم وأعراضهم لتكون للعربية حياة في بلادها فتحيا بحياتها أمة العرب، ويقول العارفون الأقلون: ليت الرعيل الأول من شهدائنا عاشوا ولو لحظة في هذه الأيام ليروا راية لغتهم مرفوعة، وسيادة أمتهم حقيقة، فينعموا بثمرات ما تعبوا في غرسه.

أفلا يكون من الحق علينا أن نرجع البصر إلى العصر الذي شق الطريق، فنذكر بالخير والرحمة الماهدين الأولين، وما لقوا من عوائق ومشاق قابلوها بالإيمان والصبر، حتى سلمت البذرة وانطوت عليها التربة ورعاها الله فأنبتت هذا النبات الحسن ؟

فلتكن هذه الصفحات تحية متواضعة لأولئك الرواد المغاوير الصابرين المرابطين، من العلماء والأساتذة ومن المناضلين الذين لاقوا في سبيل الحق ما لاقوا، فاستهانوا بالموت والتعذيب والسجن والتشريد، ليؤدوا الأمانة ويحفظوا العهد. رحم الله شهداءهم الأبرار، وتغمد بالرضوان من سبق إلى رحمته، وأمتع بالسعادة والهناءة من بقي منهم حياً إلى يومنا هذا، والسلام عليهم جميعاً من كل ناطق بالضاد ورحمة الله وبركاته.

دمشق ٢٠ المحرم ١٣٨١

١٩٦١/٨/٢٧ سعيد الأفغاني

الباب الأول

في آخر العهد التركي

وميض خلل الرماد

أطل القرن الثالث عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) والبلاد العربية تغطِ مع سائر الأقطار التي شملها الحكم التركي العثماني في نوم عميق، الأمية منتشرة شاملة، والسلطة استبدادية إقطاعية، وهم الناس الظفر بما يمسك رمقهم وينجيهم من تناول المتسلطين إياهم بضرب أو نهب أو سخرة.

وكان في كل بلد أفراد طلبوا شيئاً من الفقه وعلوم الآلة يقيمون للناس صلواتهم وخطب الجمع والأعياد وبقية الشعائر، ومع قلة هؤلاء فإن ما تعملوه نزر إن وفى بإقامة الصلوات فإنه لا يهدي ضالاً، ولا يبصر غافلاً، لبعد هؤلاء عن روح الشريعة بإهمالهم دراسة القرآن والحديث والسيرة والتاريخ دراسة وعي واقتداء، وعكوفهم على حواش ألفت في عصور الانحطاط لا ترغب في علم ولا تربي ملكة.

توالت على الدولة العثمانية هزات عنيفة من لقاء الجيوش الأجنبية، زلزلت كيانها، ونبهت إلى الخطر المحدق بها لفشو الجهل وفقدان أهل الخبرة بالعلوم الحديثة والصناعات

الحربية، ومن جملة هذه الهزات اكتساح الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا لكثير من البلدان العثمانية، حتى كادت تكتسح الأناضول وتقضي على الرجل المريض، لولا أن الدول هبت لحمايته، خشية أن تؤول تركته إلى يد قوية بصيرة فلا يستطيعون النهش من لحم الفريسة كل حين.
بادر مفكرو الدولة العثمانية إلى الاستعداد لدرء الأخطار المقبلة، فاقتدوا بصنيع محمد علي، فأنشؤوا المدارس العالية، وبدؤوا بالمدرسة الحربية ومدرسة الطب، وتلتهما بقية المدارس كالحقوق والزراعة والهندسة لتخريج ما تحتاج إليه الدولة من موظفين وخبراء ((فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم)). على حد تعبير المرحوم الأستاذ محمد كرد علي (١).
والمعروف أن بلاد الشام تزخر بالمدارس العلمية والدينية منذ عهد منشئيها الأولين نور الدين وصلاح الدين ومن بعدهما من الأيوبيين والمماليك، ولغة هذه المدارس طبعاً العربية، بها كان يدرس الطب والفلك والرياضيات والعلوم والتاريخ والفقه والقرآن والحديث... إلخ. ومعالم هذه المدارس قائم أكثرها حتى الآن، فما الذي عصف بشأن اللغة العربية في ديار الشام إلى الحضيض؟
إن وقوف الحركة العلمية منذ المئة السابعة للهجرة(٢)وركود الأدب لتوالي الدول غير العربية على البلاد، واستبداد المتسلطين بالحكم لا يشركون فيه أحداً من المحكومين، جعل الشعوب بمعزل عن السياسة والإدارة، فقل الإقبال على العلم، فإذا أضفت إلى ذلك استيلاء الحكام على موارد الأوقاف، واختلاس كثير من المتنفذين والجيران لأعيان الوقف نفسه وتحويلها دوراً ومخازن يمتلكونها غصباً عرفت سر ذلك. ولم يبق من هذه العلوم إلا القدر المحتاج إليه في تخريج قضاة وأئمة وخطباء، وهو نزر يسير لا يؤثر في الحكم على المجموع بالأمية أو العامية على الأقل، وظلت الدائرة تضيق سعة على مدى العصور، وزاد في الانحطاط كتب العلم التي ألفها من لا ملكة لهم، وجعلوها في أيدي الناس، فتورات مع الزمن الكتب الجيدة، وجهل الطلاب العلم حتى أسماءها، وأصبحت تستطيع أن تعد في دمشق مثلاً في مطلع المئة الرابعة عشرة للهجرة مئة أو أكثر ممن يحفظون المتون والحواشي في النحو والصرف وعلوم البلاغة والحديث والتفسير والفقه، ثم لا يستطيع أحدهم أن يكتب سطرين مفيدين واضحين سليمين من الأغلاط والركة. هذا شأن العلماء، أما سواهم فيكفي أن تعرف أن رسالة يأتي بها البريد إلى أحد الناس فيدور بها على أهل حيه ثم على الحي المجاور فلا يجد أحداً يفك حروفها لينبئه بمضمونها، والذين كانوا يعرفون الأعمال الأربعة في الحساب، من تجار سوق ((مدحة باشا)) في دمشق – وهو أطول أسواقها – يعدون على الأصابع، بحيث يشار إلى أحدهم بأنه يعرف (الهندي)، أي: الحساب في مصطلح التجار قبل ثمانين سنة. ولعل السلطان سليماً (يازو) هو المسؤول الأول عما آلت إليه البلاد العربية من الجهل والغفلة، إذ هو الذي نقل لغة دواوين الدولة العربية إلى التركية.
ومن الإنصاف الاعتراف بأن الحال في الأناضول ليس خيراً منه في الشام، بل إنه لكذلك في جميع البلاد التي يحكمها العثمانيون يومئذ، عدا مصر التي أيقظها حملة نابليون وعهد

محمد علي من جهة، واستمرار الأزهر في نشر العلوم الدينية والعربية من جهة ثانية، على ما في هذا النشر من ضعف وضآلة نسبة لكثرة سكان القطر المصري.
كان على المسجد في هذه الظلمة أن يرفع للناس شعلة النور بما يبثه الخطباء والمدرسون بين الناس من إرشاد وهداية باللغة الفصحى، لكن ضعف علم هؤلاء وسوء ملكاتهم جعلهم عالة على غيرهم في ذلك، فكانوا كالببغاوات ينقلون ما لا يفهمون، وأصبح همّ الخطباء إعادة خطبة ألفت من مئات السنين لأحوال غير أحوالهم، فيحفظها أحدهم عن ظهر قلب، أو يتلوها من كتاب وهو لا يفهمها حق الفهم، فلا يبدأ القراءة على المنبر حتى يأخذ المستمعون بهز الرؤوس ثم الذهول ثم إغماض الأعين، كأنه صعد المنبر للتنويم لا للتنبيه، والدروس في الحلقات العامة تلقى من كتاب فلا يصل منها إلى قلب المستمع شيء ذو بال.
وكأن هذا الضعف لم يكن يكفي، فأصدر المفتي أبو السعود متولي مشيخة الإسلام في الأستانة فتوى أخمدت ما بقي من همة في النفوس لتحصيل العلم، وصارت القاعدة التي أصبحت الدستور في وظائف الأوقاف والتكايا والزوايا، وهي قوله: (خبز الآباء للأبناء) فإذا مات خطيب أو إمام لم يُبحث عن أهل يخلفه، وإنما تعطى وظيفته لابنه، وغالباً ما يكون جاهلاً وتوضع على رأسه عمامة الأب ((فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة، بدعوى أن آباءهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة، كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم)). بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء للأميين، ((وكم من أمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة)) كما قرر الأستاذ محمد كرد علي(١) وهو غير بعيد عن هذا الزمن.
والمؤسف حقاً أن هذه القاعدة بقيت آثارها حتى يوم الناس هذا، فأنا أذكر أني في طفولتي كنت كسائر الناس أضيق ذرعاً بخطيب في المسجد الأموي أكبر مساجد دمشق، عامي يستظهر الخطبة طول الأسبوع ثم يقرؤها ممتلئة باللحن، وكثيراً ما كان ينسى الجملة التالية للتي سردها فيكر راجعاً إلى جمل قبلها كأنه طفل يحفظ استظهاراً بلغة أجنبية عنه، وما أكثر ما كان يلحن في القرآن والحديث، وكل الأمر أن أباه كان خطيب المسجد الأموي، بل المضحك أننا في سنة ١٣٨١ هـ و ١٩٦١ ميلادية ساعة كتابة هذه المحاضرة، وخطبة المسجد الأموي أثلاث ثلاثة: فثلث لبيت الخطيب، وثلث لبيت الأسطواني، وثلث لبيت المنيني آل إلى فرد من بيت الخطيب أيضاً، لا أدري أعن طريق الشراء أم عن موت المنيني عقيماً بلا وارث، فورثه أقدم المنتفعين فصار لبيت الخطيب ستة عشر قيراطاً، والخجلة من غريب يؤم المسجد الجامع بدمشق وهو من أكبر مساجد الدنيا، فيظن نفسه أحياناً يستمع إلى خطيب قرية يمدح وجهاءها ومتنفذيها، وكان الحق أن تمتد يد الإصلاح إلى المساجد، فلا يلي شؤونها إلا كفيّ متعلم، يستحي من الله ومن الناس، ومتى كانت الوظائف العلمية في بلد من بلادنا تورث بالقراريط؟

* *

استثنيت من هذا الوصف المتقدم مصر لملابسات خارجية معروفة، ومن الحق أنه أنبه إلى حال خاص تميز به سكان الساحل الشامي وفلسطين، فحوادث سنة ١٨٦٠م ومداخلات الدول قسرت الدولة العثمانية على إعطاء متصرفية لبنان ومتصرفية القدس حكماً ذاتياً،

وأسرعت الدول فأرسلت إلى القدس وبيروت وغيرهما إرساليات تبشيرية من أعمالها فتح مدارس تبشيرية لا سلطة للدولة عليها، فأسس الأميركان (المدرسة الإنجيلية) في قرية (عبيه) ثم انتقلت إلى بيروت، وصار اسمها (الكلية الأمريكية) فيما بعد، وأسس الفرنسيون الكلية اليسوعية في بيروت، وفتح المجال فأنشئت مدارس أهلية طائفية، ومن حسن الحظ أن لغة التدريس في كل هذه المدارس هي العربية(١)، وحظيت المدرسة الإنجيلية (الكلية الأميركية) بمعلم العربية الشيخ ناصيف اليازجي كما حظيت بأطباء ثلاثة درسوا العربية وأتقنوها على أساتذة مهرة ثم صنعوا لفنونهم المؤلفات العربية، وعنوا العناية البالغة بتحري الكلمات العربية لمصطلحات فنونهم، وتخرج على أيديهم الرعيل الأول لنشر العربية في الجبل والساحل فكانوا الدعامة الأولى للتعليم العالي العربي في ديار الشام.

هؤلاء الثلاثة هم الدكتور (فنْديْك) والدكتور (جورج بوست) وهما أميريكيان، والدكتور (يوحنا ورتبات) الأرمني(١).
أما فلسطين فيكاد يكون لكل دولة أجنبية مسيحية مدرسة فيها وإرسالية، واستفادت اللغة العربية من كره الدول والطوائف للغة الدولة الرسمية اللغة التركية فمارست التدريس بالعربية، فعاد ذلك بالخير على المتعلمين. لكن هذا لم يدم طويلاً، فالمدرسة الإنجيلية (الكلية الأميركية) ببيروت خرجت عن خطتها فجعلت التعليم بالإنكليزية. وكأنها ندمت على أن يجري على يدها خير للشعب، وهي إنما أرسلت لتخرجه عن مقوماته، وتمسخ منه أشباه أمريكين، شأنها في ذلك شأن بقية الإرساليات والمدارس الأجنبية، وسنعرض لهذا بعد قليل، وإنما آثرنا ألا نغفل عنايتهم بالعربية في بضع السنين الأولى من التأسيس مهما تكن نيتهم.
ولم يخل القطر الشامي من أفذاذ نوابغ أعلام قدموا للغة خدمات جليلة بأنفسهم وبتلاميذهم الذين ساروا على طريقهم، فأثمر عملهم في العصر التالي، وكانوا نواة النهضة مثل أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧م) اللغوي الأديب صاحب المؤلفات اللغوية والأدبية، والذي أضاف إلى ذلك نشره الكتب الثمينة من تراثنا في مطبعة (الجوائب) بالأستانة فخدم العربية في ميدانين، وصبر على ما سيق إليه من اضطهاد، فعاش كريماً خيراً، ومات فقيداً حميداً، والشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ -١٨٧١م) الذي نشر علمه في التدريس وفي التأليف فأفاد أجيالاً، وكان من الأبطال في خدمة العربية. لم يخل العصر من أمثال هؤلاء، لكنهم كانوا في القلة كشذوذ من القاعدة (١) يؤيدها ولا يغيرها، فبقي عصرهم عصر غفلة بالجملة، ولم يظهر تأثيرهم إلا في العصر التالي الذي انتفع فيه كثيرون بفضلهم فنشروه نشراً أوسع.
* *

أما الفترة الأخيرة من الحكم التركي فتمتد من آخر القرن الثالث عشر الهجري إلى حوالي أربعين سنة من الرابع عشر أي بين (١٨٨٠-١٩٢٠م) تقريباً، وتتميز بأن النائم الذي يشخر قبلها بدأ يستيقظ ويتحفز للنهوض، وأن الشعور بالوطن واللغة والسيادة وسائر المقومات تجاوز الأفراد إلى الحلقات والجمعيات والجماعات، فقد شهدت إنشاء المدارس الأميرية على نطاق ضيق، كما شهدت تأسيس الأحزاب، فالحادث الذي هزَّ كيان الدولة، وهو إعلان الدستور، ثم خلع السلطان عبد الحميد رمز الاستبداد في رأي جماعة (الاتحاد والترقي) ورأي التاريخ الذي كتب بتوجيههم.

وتخلل ذلك تأسيس الجمعيات العربية التي كان في أول أهدافها إحياء اللغة العربية. ويستطاع جعل ولاية مدحة باشا على الشام في العقد الأخير من القرن التاسع عشر معلماً لبدء هذه الفترة.
تولى مدحة باشا التركي وكان أحد المصلحين الأحرار ولاية الشام ((فأنشأ في دمشق سنة ١٢٩٥ هـ ثماني مدارس ابتدائية للذكور والإناث، ودار صنائع، وأسس مثل ذلك في أعمال ولايته والواسعة))(٢)، وبدأت تزداد هذه المدارس الرسمية ببطء حتى أصبحت قبيل الجلاء التركي نحو ٤٤٦ مدرسة أولية وابتدائية، ونحو خمس مدارس إعدادية وثانوية وزراعية في كل ديار الشام(١) (أو ما يسمى في عهد الجنرال غورو سورية وفلسطين ولبنان والأردن). أما مدرسة الطب في دمشق ومدرسة الحقوق في بيروت وهما المعهدان العاليان في كل الشام فكانت لغة التدريس فيهما التركية، ولذا يصح ألا يكون لهما في موضوعنا حساب الآن. وأضاف جمال باشا السفاح إلى ما تقدم (الكلية الصلاحية) التي أنشأها في القدس في الحرب العامة الأولى مدرسة عليا للتخصص في الدين والعربية، وأضفى عليها اسم صلاح الدين الأيوبي تيمناً، وجلب لها أساتيذ أكفياء من بلدان عدة، وكان غرض الدعاية غير خفي في إنشائها.
وعلينا قبل الخوض في شأن اللغة العربية في هذه المدارس أن تتم نظرتنا الإحصائية فنذكر الأصناف الثلاثة الباقية وهي مدارس غير حكومية :
١- المدارس الدينية، ونعني بها مدارس الأوقاف الإسلامية المنتشرة في حلب وحمص وحماة وطرابلس ودمشق والقدس وغيرها، وقفها السلاطين والأمراء وأهل الخير على طلبة العلم الديني، ورصدوا لها العقارات الدارة لينفق من ريعها على المدرسين والموظفين والطلاب، ولها الفضل الكبير في بقاء العربية إلى هذه الأيام، تخرج القضاة والمفتين والمدرسين والأئمة والخطباء والوعاظ، وكانت على غاية من الازدهار قبل العهد التركي، لكنها آلت إلى الانحطاط كماً وكيفاً، ((ومن العجيب أن مدينة كدمشق مثلاً لا يقل سكانها عن ثلاث مئة ألف نسمة كان فيها في الثلث الأول من القرن العاشر (الهجري) نحو ثلاث مئة مدرسة ومعهد مختلفة الشكل – عدا الكتاتيب الملحقة بالجوامع – تقرأ فيها دروس العلم والأدب والطب والهندسة، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة، ولذلك بلغت العلوم الشريعة درجة من الضعف تضحك وتبكي، وبلغت أكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والإمامة من السخف ما نسأل الله معه السلامة))(١).
ومع هذه الدرجة التي بلغتها بقيت ملاذاً للغة العربية، وعلومها طول عصور الانحطاط حتى آخر الفترة التي نتحدث عنها.
٢- المدارس الأجنبية كان معظمها ذا هدفين : التبشير بمذاهب الإرساليات التي فتحتها، والدعاية للدول التي إليها تنتمي، وقد بثت هذه المدارس في جميع أنحاء القطر السوري، تنتمي إلى إنكلترة وأمريكا وروسية وفرنسة وألمانية والدانمارك وإيطالية، وقد مني لبنان والقدس بأكبر عدد منها لمكان الامتيازات الأجنبية فيها، وعنيت فرنسة بالإكثار من إرسالياتها في بيروت ودمشق منذ حوادث سنة (١٨٦٠). أما القدس فقد حرصت كل دولة حتى اليونان وكل طائفة أن يكون لها مدرسة ومركز فيها لمكانتها المقدسة. وتمتعت كل مدرسة بحماية دولتها بعيداً عن الرقابة التركية بحكم الامتيازات.

٣- المدارس الأهلية الخاصة وقد أنشئت بدافع الغيرة من بعض الواعين، لحسابهم أو لحساب جمعيات خيرية رداً على الغزو الثقافي الأجنبي والتركي معاً، ونمثل لها بالمدرسة العثمانية التي أسسها المرحوم الشيخ محمد كامل القصاب بدمشق (سميت الكاملية فيما بعد)، ومدارس جمعية المقاصد الخيرية في ساحل الشام، والكلية الأزهرية في بيروت للشيخ أحمد عباس وغيرها. هذه أصناف المدارس، فما موقفها من اللغة العربية وهي الناحية التي تعنينا هنا ؟

أما المدارس الحكومية فلغتها التركية، وأكثر معلميها أتراك، ومن كان عربياً منهم ألقى دروسه بالتركية، وتجافى عن الكلام بالعربية مع أن من يخاطبهم عرب، حتى الكلام خارج غرف الدرس في الباحات وضعوا عليه الرقباء، فمنعوا أبناء العرب أن يتحاوروا في الشؤون العادية بينهم بالعربية وأوجبوا عليهم الكلام بالتركية، ومن سبق لسانه إلى كلمة عربية صاحوا به (سنيال 1)(Signal) وسلموه خشبة نقش عليها كلمة (سنيال)، وصار على هذا أن يجول بين رفاقه حتى يسمع كلمة بالعربية سبق بها لسان متكلم فيبادر إلى تسليمة الخشبة صارخاً به (سنيال)، ومتى انتهت الاستراحة عوقب الذي تبقى بيده. وكانت هذه آخر سهم في جعبة التتريك حتى يجفو الناشئ لغته، وينشأ على التقزز منها، وإليكم شهادة شاهد عيان اكتوى بهذا الجو: قال الأمير مصطفى الشهابي:

((أتذكر أنني درست سنة واحدة في مدرسة تجهيز الحكومة العثمانية بدمشق، فكانت جميع الدروس تلقى بالتركية، وكان اللسان العربي يدرس أيضاً باللسان التركي، وكان معلم العربية رجلاً تركياً يتكلم لغة الضاد بلهجة تركية، ولا يفرق بين المذكر والمؤنث، ولا يفقه شيئاً من أدوات اللغة إلا مبادئ من الصرف والنحو مطبوعة في كتاب تركي))(٢). ولا تظنن أن هذا القدر الضئيل من الصرف والنحو المدرس باللغة التركية وضع مراعاة للولايات العربية، بل هو القدر اللازم لفهم قواعد التركية وأدبها والإنشاء فيها، وهو القدر المقرر في مدارس الولايات التركية تماماً(٣).

وذكر لي الأستاذ رشدي الحكيم وهو ممن كان في تلك الفترة في أول الشباب وأسهم في عدد من الجمعيات العربية السرية حينئذ : أن الاستهتار الثقافي وصل بالأتراك إلى أن أبدلوا بالشيخ طاهر الجزائري معلماً تركياً لتدريس العربية في ثانوية دمشق (مكتب عنبر) وإلى أن نصّبوا أرمنياً نصرانياً لتدريس الشريعة الإسلامية بالتركية في إعدادية بيروت، وأن هذا الأرمني جهد في إقناعهم بأن هذا عمل فاضح فلم يقنعوا وأجبروه على هذا التدريس. أما ما يلقى الطلاب العرب من سوء معاملة معلميهم الأتراك وشتمهم للعرب ولغتهم فحدث ولا حرج.

وأما المدارس الدينية القديمة المنتشرة في القطر الشامي فكانت العربية لغة التدريس في جميع حلقاتها، وكانت العناية مصروفة إلى الناحية النظرية مع إهمال كبير للناحية التطبيقية، والاشتغال بالشكل أبعد الطلبة عن الروح والجوهر، وشاع فيها جميعاً حفظ الكتب السقيمة الركيكة العبارة، المؤلفة في عهود الانحطاط، القاتلة للملكات المتفتحة في نفوس النشء، وزاد الطين بلة، أنهم نظموا مسائل العلوم في متون مجمدة معقدة العبارة يرهقون الطلبة في استظهارها أولاً، ثم في حل طلاسمها ثانياً. ومع كل هذا يجب الاعتراف أن هذه المدارس القديمة الوقفية حالت دون الإجهاز على ما تبقى من اللغة العربية وعلومها في هذه

الديار، حتى إذا آن أوان النهضة كان على يد المتنورين من خريجيها، الذين رزقوا مرانة واستعداداً، فطالعوا ما ترجم وألف من أساليب التدريس وبعض مبادئ العلوم، كان على يد هؤلاء الذين عهد إليهم بالتدريس في المدارس الرسمية أول الحكم العربي، تنشئة الرعيل الأول من الشباب الذين اندفعوا يبثون رسالة العربية في الأمة والأجيال الناشئة.
مدرسة دينية واحدة جمعت محاسن التعليم القديم والتعليم الحديث أنشأها جمال باشا السفاح أول الحرب الأولى للدعاية في البلاد العربية، لكن أثرها كان سريعاً في خدمة اللغة العربية وعلومها، وكان على عاتق خريجيها عبء غير قليل بعد رحيل الأتراك حملوه بكفاية، تلك هي الكلية الصلاحية بالقدس وقد مرّ حديثها آنفاً.
وأما المدارس الأجنبية فقد كان هدف إرسالياتها استعماراً بحتاً يمهد للدول الأجنبية في ميدانين : التبشير الذي يجعل المستجيبين إليه مخلصين لمصالح الدولة الأجنبية التي تدين بمذهب الإرسالية. وأثبت الواقع أيام الأتراك وأيام الانتداب الفرنسي وفي عهود الاستقلال نجاح هذه المدارس في مهمتها تلك، مما لا يعنينا بحثه هنا. والميدان الثاني التسميم الثقافي على الأقل عند من لم يستجب للمذهب التبشيري.
ومع أن هذه المدارس جعلت التعليم أول إنشائها باللغة العربية لتجذب الطلاب وعواطف الأهلين كما فعلت المدرسة الإنجيلية (الكلية الأميركية) في (عبية) سنوات قليلة، مع هذا لم تكن سواء في هذه الالتفاتة المرائية، فبينا نجد أكثرها جعلت التعليم قسمة بين اللغة العربية ولغة الدولة الأجنبية، نجد المدرسة الإنجيلية على ما أسلفنا قدمت للتعليم العربي العالي خدمة جلى في التأليف ووضع المصطلحات في علوم عدة، ونجد المدارس الروسية في القدس ((جعلت لغة التعليم اللغة العربية، وأنشأت مدرسة للمعلمين وأخرى للمعلمات الأكفياء للتعليم باللغة المذكورة)) على ما قرر الأستاذ ساطع الحصري(١).
والظاهر أنها جميعاً خافت على الهدف الحقيقي من إنشائها أن تحسره في سبيل الدعاية وتحبيب الناس بها، فخشيت أن تنتعش لغة البلاد فتخلق في النفوس المناعة على أهدافها، وهي لم تنشأ لهذا، إنما أسست لتفتيت وحدة الأمة وجعل بعضها حرباً على بعض، ولتستعبد عقول النشء لمثلها ولغاتها وثقافاتها حتى ينسلخوا من لغتهم وأمتهم الواحدة وأديانهم وسائر مقوماتهم، لهذا سرعان ما انتكست جميعاً بعد فترة قصيرة وصارت تتراجع بعد أن اعترف بها، وقويت بالامتيازات الأجنبية التي تنتمي إليها(١)، وبقيت تدرس العربية لغة ثانوية في بعض الحصص. تدريساً مهما يكن ضعيفاً لم يصل إلى العدم كما في مدارس الحكومة التركية، وبقي خريجوها وأكثرهم من الطوائف غير المسلمة على شيء من اللغة العربية أكثر على كل حال من زملائهم خريجي المدارس التركية.
والذي يجب ألا ينسى أن حرصها المرائي كان له هدف سياسي، وهو الكناية بالحكومة التركية، وتنشئ جيل يخدم مصالح دولها ضد الأتراك.
كان من أثر الدعاية في هذه المدارس تصوير أمريكا وأوروبة للناس بأنهما الفردوس الأرضي، فداعبت أماني الثراء والحرية والسعادة أخيلة الطامحين، فهب المغامرون منهم إلى الهجرة إلى أمريكا فلاقوا بعض النجاح فراسلوا إخوانهم، وفشت حمى الهجرة حتى صار للشاميين على توالي الزمان جاليات في الشمال والجنوب من أمريكا تزيد يوماً عن يوم لسوء الحالة المعاشية في الشام، ولئن رجع بعضهم إلى الوطن عليه آثار الثراء إن

أكثرهم استطاب المقام وتجنس هناك، والذي يعيننا من أمرهم هنا أن متعلميهم وأدباءهم أنشؤوا النوادي والصحف والمجلات باللغة العربية لتبقى الجاليات على علاقة بالوطن والأمة واللغة حتى لا تنسى الأصول، وكان للأدب المهجري(١) بما وجد من حرية وجو ملائم لحياة الأدب انتعاش هناك من حيث ضاق به وطنه الأصلي الرازح تحت القيود، وبذلك وجد أدب الشاميين متنفساً في مهاجر أمريكا كما وجده في مصر، وكان على مؤرخ الأدب الشامي لهذه الفترة أن يرصد آثاره في مصر والمهاجر أكثر مما يرصده في ديار الشام نفسها. وهذا أثر غير مباشر لوجود المدارس الأجنبية في الشام.

أما المدارس الأهلية الخاصة فعلى عكس كل ما تقدم فيما خص موضوعنا، لقد هدف مؤسسوها إلى تخريج نشء عربي يحافظ على لغته ودينه ووطنيته، وجاهدت في هذا السبيل جهاداً حميداً وبثت في نفوس الأمة الروح القوية العالية.

بعض هذه المدارس أنشأها الأفراد، وبعضها أنشأتها الجمعيات، وأكثرها مدارس ابتدائية خاصة لحساب مؤسسيها، أما الثانويات والإعداديات فقليلة جداً، اشتهر منها في بيروت كلية الشيخ أحمد عباس الأزهري، وكان اسمها أول تأسيسها (العثمانية) وهي مؤسسة فردية خرجت عدداً من رجالات العرب الذين أبلوا البلاء الحسن في خدمة الأمة، وكذلك مدارس جمعية المقاصد الخيرية لا تزال قائمة نامية حتى اليوم. واشتهر في دمشق: المدرسة العلمية الوطنية أسسها المرحوم أبو الخير الطباع، والمدرسة العثمانية بدمشق (تمييزاً لها من العثمانية في بيروت، ثم سميت الكاملية فيما بعد) أسسها المرحوم الشيخ محمد كامل القصاب، والمدرسة التجارية أدارها حيناً المرحوم الشيخ مصطفى الطنطاوي.

حظيت هذه المدارس بنخبة ممتازة من شبان العرب الناهضين عسكريين ومدنيين في مختلف الرتب والوظائف، كانوا يقتطعون من أوقاتهم ساعات ليدرسوا في هذه المدارس العربية بعضهم بأجر وبعض تطوعاً، وكان أكثرهم من المنتظمين في الجمعيات العربية السرية وجدوا من ميدان التعليم متنفساً لبث أهدافهم وخدمة بلدهم وتحقيق رسالتهم. وكانت المدرسة العثمانية (الكاملية) بخاصة الخلية الدائمة الحركة بنشاط هؤلاء المؤمنين(١) يجدون في زعيمهم الشيخ كامل القصاب ما لا يجدون في غيره حمية ووعياً وإقداماً وجرأة، والظاهر أنه كان يعمل في الميدان السياسي السري عملاً دائباً بعيد الأثر لا يقل عن عمله في الميدان التعليمي، وقل أن سمعنا ونحن صغار بوطني مقدام أو عالم غيور أو مكافح شجاع إلا كان من تلاميذه وخريجيه، ولقد رباهم – أحسن الله إليه – على حب العربية وخدمتها وإتقانها وحب بلادها، فلم يطل به الزمن حتى أثمر أطيب الثمر، لقد كانت مدرسته القلعة الوطنية المقاومة، وكان هو قائدها ومعلموه وجمعيته وزواره شحنتها، وليست العربي التي رباهم عليه لغة وأمة وبلداً فحسب، بل هي ذلك ومعها الأخلاق العربية الكريمة المتينة، لقد كان المثل الأعلى الذي تنشده البلاد في صاحب المدرسة.

وبعد فمن نافلة القول الإشارة إلى ما لقيت البلد من خير من خريجي المدارس الأهلية الخاصة في نشر اللغة العربية، وحسبك أن تعلم منذ الآن أن من خريجيها من ذهبوا فتخصصوا في أوروبة، ورجعوا على المبادئ الطيبة المغروسة فيهم من تلك المدارس، فلما وكل إلى بعضهم التدريس في الجامعة الناشئة أيام الحكم العربي، أنفوا كل الأنفة من أن يدرسوا بفرنسية أو إنكليزية وأخذوا على عواتقهم رد الاعتبار إلى اللغة العربية التي

نهضت من تحت الأنقاض، فدأبوا عملاً ليل نهار حتى قدموا أحسن الخدمات إلى التعليم العالي، وهي تعريبه على الأسس الراسخة السليمة.
كان الشيخ محمد كامل القصاب ومن عاونوه حريصين على رسالة العربية ينشرونها بمختلف الوسائل، وكان من أحبها إلى الطلاب والشعب معاً الخطب والأناشيد والحفلات، فعكفوا ينتجون منها كل ما طاب روحاً ومعنى وبياناً، وكان أكثرها في تعريف الناشئ بأمته ووطنه ولغته وأمجاده واستنهاضه لإحيائها، وكان الإقبال على استظهارها وإنشادها في الأسواق والمجامع مما أولع به الصغار والكبار، فبثت الروح المطلوبة، وقطفت اللغة العربية أطيب الثمار(١) من هذه المدارس القليلة عدداً والكبيرة إيماناً وإخلاصاً في خدمة الأمة العربية. ومن الحق الإشارة هنا إلى أنها امتحنت بكثير من المضايقات لتخمد أنفاسها، فلم يزدها ذلك إلا قوة في الحياة، وكان ما يتساقط على رؤوسها من المثبطات أضعاف ما يزدحم على المدارس الأجنبية من المشجعات. هذا تاريخ قلّ من أشار إليه إشارة، ولعل هذا من تتمة حظها المنكود مادياً، ولا يليق بمن يتكلم على نهضتها أن يغفل باعثيها الحقيقيين ويشتغل بمن دونهم ممن ظهر على مسرح السياسة الغوغائية.
شارك العرب في الجمعيات المؤلفة سراً أيام السلطان عبد الحميد للمطالبة بالحكم الشوري، وكان هذا الخطوة الأولى التي أعلنها مؤسسو الجمعيات ليضمنوا عون عناصر الدولة المختلفة من كرد وشركس وأرنؤوط وعرب. فلما تم الانقلاب بإزالة السلطان، وإعلان الدستور، واستلام جمعية الاتحاد والترقي أزمة الحكم، برز إلى الميدان من نواياهم ما لم يعلنوه قبل، فإذا بعصبية عنصرية تركية حاقدة تملأ نفوس الجمعية وتملي عليها تصرفاتها وإذا في الميدان أيضاً جمعيات (ترك درنكي) و (ترك أوجاغي) و (تورك يوردي)(١) وغيرها، كلها يتغني بالعنصر التركي ويذكر وطنه القديم (صحاري المغول) وتركستان، ويرتجل للأتراك الأمجاد الفخمة مشيدين بجنكيز وهولاكو وتيمورلنك وغيرهم من وحوش البشرية، وإذا دعوة متحمسة لتنقيح اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، ومقالات ضافيات في صحف ومجلات تسمم الشعب التركي بهذه النعرات.

وزادت هذه الفتنة الصهيونية الأصل (٢) وقاحة حين أسفرت « عن حث الحكومة على رفع أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع واستبدال أسماء جنكيز وهولاكو وتيمور لنك وأضرابهم بها » (١). وغدّى شعراء وكتاب منهم هذه النزعة بقلب حقائق التاريخ رأساً على عقب حين سوى بعضهم بين جنكيز ومحمد بن عبد الله بقوله :
جد مز جنكيز خان عاقلد ربزم   جد مز جد الحسينه هم معاد لدر يزم
معناه :
جدنا نحن هو جنكيز خان العاقل   جدنا نحن معادل لجد الحسين
وانجلى أمر هذه الجمعيات ورجالات الحكم عن هدف مبيت هو ((أن الدولة العثمانية هي دولة الأتراك ليس غير))(١) وأن سياسة الدولة تتريك العناصر والقضاء على لغاتها وقومياتها وجميع مقوماتها.
وتجلى هذا البلاء بمصادرة الحق الدستوري للولايات العربية بطرق خفية أبقت على الشكل وأعدمت الجوهر، فقد أباح قانون الانتخاب لكل مرشح أن يرشح نفسه عن المنطقة التي

يريد، وعلى هذا أرسل حزب الاتحاد والترقي مرشحين أتراكاً من حزبهم للمناطق العربية، حتى لا يرتفع صوت بغير ما بيتوا من مؤامرة، ((وذكر الأستاذ ساطع الحصري أن أحد من رشحتهم الجمعية عن الديوانية من ولاية بغداد كان صحفياً تركياً يكتب في جريدة اتحادية اسمها (طنين) فلما تم انتخابه وعاد إلى إسطنبول أخذ ينشر سلسلة من المقالات بعنوان (رسائل بغداد) يصف فيها البلدان التي مر بها في رحلته إلى الديوانية، وأبدى في إحدى هذه المقالات عجبه من جهل الناس هناك للغة التركية، حتى إنه لم يجد أحداً يستطيع التفاهم معه بهذا اللسان. وقد أجابته إحدى الجرائد العربية بقولها: ليس الغريب أن يجهل سكان الديوانية اللغة التركية، بل الغريب أن يكون النائب عنهم رجلاً يجهل العربية!))(٢).

هذه إحدى الوسائل التي تذرعوا بها ليطبعوا البلاد بطابع التتريك في كل المظاهر، إلى جانب الترويج الصحفي للعنصرية التركية وتمجيد رجالات الترك ولغة الترك مع الحط من سائر العناصر واللغات.

وكانت جريدتا (إقدام) و (طنين) تغذيان الشعب بهذه السموم صباح مساء.

كان هذا كافياً لتنبيه الواعين من العرب إلى ما يحدق بهم، ولكن الحمق الحاقد لهؤلاء الطورانيين كان يتحدى العرب تحدياً صارخاً في احتقارهم وتحقير عنصرهم وتاريخهم وبلادهم، على حين كان العرب جميعاً لا يعدلون بوحدتهم العثمانية (التركية العربية) شيئاً، فكلهم طالب إصلاح فقط، ولم يكن فيهم قبل هذه الحقبة طالب انفصال. هذا شاب منهم يعرض للمسألة العربية ونشأتها بلهجة معتدلة رصينة فيقول سنة ١٩٠٩: ((إن مراجلها كانت تغلي في صدر العربي أيام كان يسمع من أخيه التركي ألفاظاً يسمه بها هي من التحقير والاستهزاء بمكان، ولا أراني في حاجة إلى ذكرها الآن، خصوصاً وقد اتخذنا الأخوة والمساواة شعاراً لنا، وهي لم تكن تدور فقط على ألسنة العامة والأوباش من أبناء الأتراك، بل كانت تقذف بها أفواه الأساتذة المبرزين منهم في المدارس العليا في العاصمة وغيرها))(١).

وقبل نشر هذا الكلام بأربع سنين انتقل للدراسة في مدارس إسطنبول العالية نخبة من شباب دمشق (أسسوا فيما بعد جمعية النهضة التي سنتكلم عليها) ((فوجدوا عدداً كبيراً من الطلاب العرب كان معظمهم ضعفاء في اللغة العربية، جهلاء بآدابها وبتراثها العلمي، خالي الذهن من الفكرة القومية، خائفين من أن يتهموا بنزعة عربية، مؤثرين التكلم بالتركية، متباهين بالتحدث مع الشبان الأتراك بلهجة رقيقة إسطنبولية يلفظون فيها العين ألفاً، والخاء هاء، والقاف كافاً وهلم جراً))(١).

لقاء نذير الخطر هذا هب الواعون من العرب يواصلون العمل في غير ميدان، ((فاتفق محب الدين الخطيب وعارف الشهابي على أن يتطوعا لتعليم هؤلاء الطلاب قواعد العربية وآدابها في يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع، على أن يبثا فيهم فكرة القومية العربية في حذر وتؤدة. وسرعان ما اقتسما النبهاء من الطلاب وراحا يدرسانهم، ويجلبان لهم من مصر مجلة المقتبس التي كان يصدرها الأستاذ محمد كرد علي، ومجلة المقتطف وجرائد اللواء والمؤيد والأهرام وغيرها، وكلها كان دخولها محظوراً فكانت ترسل إليهم بالبرد الأجنبية(١). فتأسست جمعيات سرية علنية ذات أهداف سياسية وإدارية وقومية، تأسس المنتدى الأدبي سنة ١٩٠٩ وجمعية (العربية الفتاة) سنة ١٩١١ وجمعية العهد سنة ١٩١٣

وجمعية النهضة سنة ١٩٠٧م قبل الدستور (سنة ١٣٢٤هـ) إلى جمعيات أخرى قاصرة على مؤسسيها. ومع أن الإصلاح السياسي والإداري في البلاد العربية هو أكثر ما شغل هذه الجمعيات إن هدفاً واحداً أجمعت عليه بإصرار هو جعل لغة التعليم والإدارة والجيش في البلاد العربية هي اللغة العربية، وقد عملت جميعاً على دعم هذا المطلب بكل ما تملك من قوة إيماناً منهم ببديهة مسلمة: هي أن اللغة أولى مقومات الأمة ولا تقوم لها بدونها قائمة.

في يدي معلومات كافية تتعلق بجمعية النهضة العربية توحي بفكرة صادقة عن عمل هذه الجمعيات في الميدان الذي نؤرخ له، فقد أخبر الأستاذ محب الدين الخطيب أن أعضاءها من المثقفين الواعين ((يعملون لرفعة العرب ومجدهم، ولنشر اللغة العربية بكل الوسائل، ويجمع بعضهم الأموال من بعض ليفتحوا غرفاً للقراءة، ثم هم يعينون لها أميناً يدفعون راتبه من جيوبهم، ويهدفون – قبل كل شيء – إلى تعريف العرب بأنفسهم وبتاريخهم وبقوميتهم، ويعملون لهذه الأغراض السامية بمختلف الوسائل والسبل، السرية والعلنية...))(١).

أسس هذه الجمعية الأستاذ محب الدين الخطيب في القسطنطينية في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٢٤هـ من أربعة أعضاء هو وعارف الشهابي وعبد الكريم قاسم الخليل وشكري الجندي، كانوا النواة الأولى، ولقد كانوا من الوعي والتوفيق على جانب عظيم حين عمدوا إلى أولى مقومات الأمة يحيونها في أنفسهم أولاً، ثم في نفوس مواطنيهم فكانوا ((يجتمعون في غرفة أحدهم ويقرؤون في ليلة من كل أسبوع درساً عربياً غايته إحياء نفوسهم بإحياء اللغة العربية، لأنهم كانوا يعلمون أن اللغة من أحكم الصلات بين البشر، وأنها من أعظم عوامل النهوض والارتقاء في حياة الأمم العلمية والاجتماعية والسياسية))(٢).

ونشط فرع هذه الجمعية في دمشق فأنشأ ثلاث غرف قراءة عامة، واحدة في السنجقدار، وواحدة في (خان الكَمرك) قلب المدينة، وثالثة في حي النصارى، وزودوها بالمجلات والصحف لنشر الوعي بين الجمهور، وكان يمد هذه الجمعية بالتوجيه شيوخ بصيرون كالشيخ طاهر الجزائري، ويذكر الباقون على قيد الحياة من الأعضاء (١) أن الشبيبة كانت تتلقف كتابَي الكواكبي (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) بنهم، وكذلك رواية (آخر بني سراج) للأمير شكيب أرسلان، وقد طبع قبل إعلان الدستور العثماني فنبه أفكار الفتيان العرب إلى مجدهم الحضاري الباذخ وأثار أشجانهم ما عصف به من كوراث، وولد فيهم الاعتزاز بأمتهم فأكبوا على كتب السلف من أدب وتاريخ، وأقبلوا على غرف القراءة هذه يروون فيها ظمأهم الروحي.

غاية الجمعية كما في المادة (٢) من قانونها : « العناية باللغة العربية وآدابها وإقامة أوضاع علمية وخيرية » (٢). وتحقيقاً لهذه الغاية أنشئت غرف القراءة المذكورة التي صار يضم كل ألف منها كتاب قيم في الأدب والتاريخ والاجتماع وغيرها، وليس هذا بالقليل في ذلك الوقت ((إلا أن الجمعية رأت بعد ذلك أن أكثر أبناء التجار والصناع لا تمكنهم الظروف من تلقي دروس عربية، وكان إشاعة اللغة العربية من أهم مبادئ الجمعية كما هو مصرح في المادة الـ (٢)، فارتأت أن يلقى درس في اللغة العربية في غرف القراءة ليلاً، وندبت لهذه

المهمة الأستاذ الشيخ أحمد النويلاتي، وقررت ذلك في ليلتي الثلاثاء والخميس من كل أسبوع، وبدأ التدريس مساء ١٠ محرم عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩/٢/١٦)(١).

وزيادة في تشويق الجمهور إلى تعلم اللغة العربية ونشرها عمدوا إلى إقامة حفلات تمثيل لبعض الروايات الموجهة باللغة الفصحى يرصد ريعها لغرف القراءة.

صارت تلقى أيضاً محاضرات كل أسبوع من قبل الأعضاء، والناظر في مضوعات بعض المحاضرين كالدكتور صلاح الدين القاسمي والأستاذ لطفي الحفار، والأستاذ محمد كرد علي، وغيرهم يدرك ما توخت من إنارة العقول وتهيئة الجماهير للنهضة والاستقلال والحياة الحرة(٢).

وحدثني الأستاذ رشدي الحكيم أن أعضاء الجمعية خصصوا كل خميس جلسة لأنفسهم يتدارسون فيها قصيدة من ديوان الحماسة ويحفظونها، وأنهم كانوا يلتزمون في جلساتهم الكلام الفصيح، ومن لم يستطعه حاوله مهما كان التكلف شاقاً. وأن أحدهم وهو الأستاذ محب الدين الخطيب أراد للفصحى أن تحل مقاهي الأستانة فحث رفاقه الشبان العرب فيها على هجر المصطلحات التركية الفارسية حين يلعبون النرد، وأن يستبدلوا بها الأرقام العربية فيقولوا مثلاً (أربعة خمسة) بدل (شيش بيش)، فاستجابوا له وصاروا ملفت الأنظار في المقاهي. بل إن بعضهم يأتيه السائل في دمشق يستجدي بلغة عامية فيعلمه ما يقابلها بالفصحى، فإن نطق بها أعطاه صدقة.

هذا ويحسن الإشارة إلى جمعية صغيرة أسسها في بيروت الأستاذ عز الدين التنوخي وسماها (جمعية الإفصاح)، قانونها الكلام بالفصحى(٣) ولعلها كانت رد الفعل الطبيعي (للسنيال التركي) في المدارس التركية (والسنيال) الأجنبي في المدارس الأجنبية. وهي على كل حال توحي بما غمر شعور الشبان من رد فعل التتريك في نفوسهم.

بهذه الحماسة المؤمنة نزل هؤلاء العزل من غير الإيمان إلى الميدان، فانتزعوا لغتنا من براثن الفناء.

وقام في بيروت أيام حكم (الائتلافيين) جماعة من الوجهاء طلب إليهم درس مطالب إصلاحية للولاية، فأسفرت دراستهم عن تأليف (الجمعية العمومية الإصلاحية) ممثلة جميع الطوائف في مطلع سنة ١٩١٣. عقدت الجمعية عدة اجتماعات أقرت في نهايتها لائحة إصلاحية كانت اللامركزية هي الأساس فيها، وأهم ما فيها:

١- ((أن تكون اللغة العربية لغة رسمية في دوائر الولاية الحكومية.

٢- أن تعين العاصمة رؤساء تلك الدوائر على أن يكونوا عارفين باللغة العربية، أما سائر موظفي الولاية فيكونون من أبنائها.

٣- أن يؤلف مجلس تمثيلي للولاية تكون العربية لغته))(١).

كان وراء هذه المدارس والجمعيات خلايا توجهها وترقب عملها وتمدها بالآراء الصائبة المنيرة، هي للنهضة العربية بمثابة القيادة العليا يتخرج بهم قواد الفرق، وكان الشيخ طاهر الجزائري بعيد الأثر جداً في هؤلاء القواد ويليه الشيخ جمال الدين القاسمي، فالشيخ سليم البخاري. ومن الذين أفادوا أعظم الفائدة منهم محمد كرد علي، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، ويلي هؤلاء شكري العسلي، وعبد الوهاب الإنكليزي، والشيخ محمد كامل

القصاب، وعارف الشهابي والدكتور صالح قنباز والدكتور صلاح الدين القاسمي وغيرهم. وكانت مجلة المقتبس لسان حال هذه النهضة الواعية.
إن ما نشرته تلك الجمعيات والمدارس من خطب وتمثيليات في حفلاتها، وما أشاعته الصحف والمجلات، وما راج في أوساط الشبيبة من شعر وأناشيد، عبّأ الشعور العام تعبئة كافية ليكون إحياء اللغة العربية مطلب الجماهير الأول، فلنعرض لشيء مما راج حينئذ من شعر وأناشيد، مهملين ما تعرض للأتراك ومظالمهم وحض على الانتقاض عليهم مما نشر بالتوقيعات المستعارة لأنه بالموضوع السياسي ألصق.
فمما تعلق بالتغني بمجد العرب عامة والحفز على إعادته نشيد بتوقيع : (نابلس – أبو المأمون) فيه :

كم قد أبدنا دولة وملوكاً   كم قد فتحنا من قرى وبلاد
يا قوم لبّوا دعوة ونداء   من أرض (نجد) منبت الآساد
لبيك يا أرضي ومعقل قوتي   لبيك يا حصني بيوم جلاد
يا قوم سعياً للحجاز ونجده   وامشوا لنادٍ في (الجزيرة) باد
يا رب هب لي من علاك نصيباً   كي أخدم العربان في الأنجاد
فالعرب أهلي و (الجزيرة) دارتي   والله عوني والنبي الهادي (١)

ومن نشيد للأستاذ خير الدين الزركلي في صباه وقد راج في مدارس الشام قبيل الحرب الأولى:

معاشر العرب أموا قبلة المجد   وحسبكم غفلة عن نهضة تجدي
لدَّ الخمول لكم حيناً من الدهر   فصرتم أعبداً للذل والقهر
سيروا إلى مجدكم روحاً وأبدانا   واسعوا إلى عزكم سعياً وركبانا
عطفاً على ذكر (بغداد) ومن حلوا   ربوعها واذكروا (الشام) وما يتلو
وعهد (أندلس) والذكر قد يحلو   وكفكفوا مدمعاً يجري على الخد
قفوا على (تونس) واستمطروا الدمعا   وسائلوا عن بني (مراكش) الربعا
عسى ترى (عدن) تصغي لكم سمعا   فتذكر الآل من صنعاء أو نجد
وفي (الحجاز) لنا شعب نحييه   وعهد مجد تولى عن مغانيه
بالله يا أمة العرب به تيهي   زهواً وأكرم بعهد العرب من عهد(١)

ومن أكثر الأناشيد رواجاً نشيد بتوقيع مستعار (أنيس) راج أيضاً قبيل الحرب الأولى:

على البلدين والبيت الحرام   على النيل العزيز على الشآم
على من في القصور والخيام   بربك يا دموع العين جودي
طلول دراسات باليات   وآثار خلت منها الحياة
تخلفها العصور الخاليات   تراثاً للبنين من الجدود
ورثنا الذل جيلاً بعد جيل   وآثرنا الوقوف على الطلول
فياشمس اغربي عنا وحولي   ويا أطوادنا الشماء ميدي
ويا دهر احتكم ما شئت فينا   فإنا موطئ للطامعينا
تشيّدُ من الكلام لنا حصوناً   وتبنيها لأهلك من حديد
أليس وجودنا في الشرق يقضي بأن نحيا به بعضاً لبعض

كفانا أننا في كل أرض عبيد أو أحط من العبيد
معاذ الله أن نبقى نياماً يحيط بنا الظلام ولا ظلاما
أرى النيران تضطرم اضطراماً و (آسية) تهب من الهجود(١)
أنيس

أثبت هذا كله ليتبين المؤرخ ما كان عليه حماسة أهل الشام للوحدة الشاملة قبل خمسين عاماً كاملة، وكيف كان إدراكهم لضرورتها جامعة شاملة من مراكش إلى عدن، وهو - كما ترى - وعي مبكر جداً إذا قيس بأمثاله في بقية الأقطار، وحسبك أن تعلم أن كلمات الوحدة والقومية العربية كانت غريبة في مصر قبل أن تنطلق بها ألسنة رجال الثورة بعد سنة ١٩٥٢.

أكثر هذه الأناشيد نشرت – حين نشرت – غفلاً من التوقيع أو بألقاب مستعارة، حيطة من وطأة الاضطهاد، حتى هذه المجموعة نشرت منسوبة للفلاح العربي، وقد تحريت عنه ممن عاشوا ذلك الزمن فأجمع العارفون منهم على أنه أستاذ خصص نفسه بالزراعة واسمه (عمر شاكر) والتحق بالثورة العربية، وبقي موظفاً في حكومة الملك حسين رحمه الله حتى مات بقذيفة من المهاجمين السعوديين حين اكتسحوا الحجاز. وقد بدأت بالأناشيد لأنها أدل على ما كان يغذي روح الشعب، وعن طريقها نلمس نوع التعبئة النفسية. ولم يغب عن أحد أن هذا الحفز والاستحثاث ينصب أول ما ينصب على إحياء اللغة، لقد رآها أولو الفكر حينئذ هي الجامعة الكبرى، ورأوا وطنهم كل أرض يتكلم أهل العربية وأنه ((لا فضل لغير اللغة في جمع القلوب وحفز الهمم)). ولم تقتصر هذه النظرة على أهل القرن الرابع عشر الهجري بل كان ناصيف اليازجي وأمثاله من أدباء النصارى يجهر بها منذ القرن الثالث عشر. وعبر عنها صارخ صرخ في بيروت سنة ١٩١٠:

إن فرّق الإيمانُ بين جموعنا فلساننا العربي خيرُ موّحد

وكان النشء العربي يردد في مدارسه الوطنية صباح مساء هذا النشيد :

لغة العرب اذكرينا واندبي ما فات
كيف ننساك وفينا نفحة الحياة
يا بني الشام ومصر وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر طبق الآفاق
كنتم فيما تقضّى بهجة الأزمان
فلماذا اليوم نرضى حالة الهوان (١)

إن تنبه الأفكار في الصفوف الشعبية كانت تتسع دوائره سنة على سنة، وكان للجمعيات والحلقات والمداس الأهلية والحفلات والمدارس وغرف القراءة العامة... أثر كبير دائب تعززه الصحف والمجلات التي كثرت في ديار الشام هذه الأيام، والخطب والأناشيد حتى أصبحت قضية اللغة العربية في البلاد العربية المطلب الأول لكل جمعية وناد، وكانت وعود الأحزاب التركية بذلك وحزب الاتحاد والترقي بخاصة، الذي كان فيه قبل إعلان الدستور عرب وأتراك ماثلة للأذهان. فلما أعلن الدستور، وعمت فرحته البلاد العربية وأسهم شعراؤها وخطباؤها وكتابها في الترحيب به، وآل الأمر إلى حزب الاتحاد والترقي فاستلم الحكم لم يف بشيء من وعوده للبلاد العربية.

فشعر رجالات العرب بالغدر، وخابت آمالهم في الأحزاب التي استعانت بهم في الانتقاض على عبد الحميد، حتى إذا آل إليها الحكم تنكرت للعرب، وعبر الشعر عن هذه الخيبة فتوجه سليمان التاجي الفاروقي من شعراء الشام بقصيدة إلى السلطان محمد رشاد يشكو إليه ما آل إليه أمر العرب بعد عزهم ويخص مصير اللغة العربي بأبلغ الأسى :

العربُ لا شقيَتْ في عهدك العرب سيوفُ ملكك والأقلام والكتبُ
وكلُّ خير أتى فالعرب مصدرُه بل أي فضل أتى لم تحوه العرب
لسانهم أخلق الإهمالُ جدّته فبات ينعى على الكتاب ما كتبوا
تمشت اللهجةُ العجماءُ فيه إلى أن أنكرته بنوه الخلّص النجب(١)
بضع وعشرون مليوناً لهم لغة تموت ما بينهم ؟ ! يا شد ما غلبوا!
هذي المدارس محظور تعلمها فيها، فمن أين تُبْغَى ؟ كيف تكتسب؟

ونادى فؤاد الخطيب شيخ شعراء الشام (أيها الترك والعرب) قصيدة قال فيها:

خذوا لغة القرآن جامعةً فإن فعلتم جمعتم شمل أتباع أحمدا
وكانت لكم في الشرق والغرب هيبة تخر لهم شُمّ الممالك سجّدا
وإن تنقموا منها، فلله نقمة تغادركم صيداً لدى من تصيّدا(١)

بل جاهز بعضهم بعدوان الترك، وأنه لا علاجَ للعرب إلا أن يحكموا أنفسهم على ما قضى به المتنبي من ألف عام :

وإنَّما الناس بالملوك وما تصلحُ عربٌ ملوكها عجم

فقال عبد الحميد الرافعي من طرابلس الشام:

ما تصلحُ الدنيا ولا ناسُها ما لم يل

دارِكْ أمير العرب جرثومة للعرب قد أدركها ياسها
تجاوز الترك على حقها والترك قومٌ ضاع إحساسها
تزعم حبَّ الدين لكن كما يروج السِّلعة دلاسها
لو تألَّف القرآن ما حاربت لسانه حتى التوى فاسها

بل كشف زعماء الحكم عن عصبيتهم العنصرية، وتحقيرهم للعرب في مجالسهم ونواديهم وصحفهم كما عرفت، وأبدت سياسة التتريك المبينة عن نواجذها واشتدت الوطأة، فلم ير رجالات العرب بداً من الاستعداد لدرء الخطر، فعقدت جمعيات، وأسست مدارس، وفتحت نواد كلها يطالب بتعريب التعليم وحظٍ من الإدارة المستقلة للبلاد العربية، وتوجت هذه المساعي كلها بمؤتمر باريس الذي عقد في صيف ١٩١٣ وكانت أهم مقرراته:

((اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية))(١).

إلى مطالب إدارية تتلخص في أن يكون الحكم في الدولة لامركزياً يتولى أمور كل ولاية أهلها على أن تكون العناصر كلها ممثلة في حكومة مركزية.

رزق هذا المؤتمر حظاً حسناً من الدعاية فدوّت مقرراته في كل البلاد العثمانية، وتعدى أثره إلى الأوساط الأجنبية، وعمّقت الجاليات العربية في المهاجر (أوربة وأمريكا) آثاره لدى الدول فاهتمت به وبمقرراته، وكان دويه في العاصمة العثمانية شديداً. وقامت في الشام (في دمشق وبيروت) ((مظاهرات شعبية عنيفة اقترنت باضطرابات واسعة النطاق،

فاضطرت الحكومة آخر الأمر – سنة ١٩١٣ – إلى مفاوضة زعماء الحركة الإصلاحية العربية والاتفاق معهم على سياسة داخلية جديدة إزاء الولايات العربية.
وكان من جملة الأمور التي تم الاتفاق عليها بين الطرفين:

١- جعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع المدارس الابتدائية على أن تدرس فيها اللغة التركية أيضاً.
٢- إنشاء مدارس ثانوية جديدة يكون التعليم فيها باللغة العربية، على أن تبقى المدارس الثانوية القائمة عند الاتفاق على حالتها السابقة تعلم باللغة التركية.

وقد ألفت وزارة المعارف العثمانية لجنة خاصة لتنفيذ هذه المقررات(١): فترجمت المناهج الرسمية إلى اللغة العربية، وأخذت تضع أو تترجم بعض الكتب المدرسية بغية تدريسها في البلاد العربية.
غير أن الحرب العالمية نشبت قبل إتمام هذه الإجراءات، وتوقفت هذه الأعمال، وظلت المدارس الرسمية تواصل التعليم باللغة التركية في جميع الولايات العربية حتى انتهاء الحرب وانفصال تلك الولايات عن الدولة العثمانية))(٢).
انقلب التفاؤل الذي غمر الناس في البلاد العربية عند إعلان الدستور خيبة أمل، حين لم يروا أثراً لتنفيذ الوعود عند الحزب الحاكم، فلما تمت الاتفاقية السابقة فتحوا ثانوية عربية في دمشق (السلطاني العربي) وثانية في بيروت، ولم تدوما إلا شهراً، ثم دخلت الدولة العثمانية الحرب وأعنت حالة الطوارئ، واستغل الأتراك الوضع العسكري العرفي ((وجنوا جنوناً عظيماً بسياسة تتريك العناصر حتى خرجوا عن طور العقل، ولم يحبوا أن يسمعوا بالعرب والعربية))(١).
فألغوا هاتين المدرستين، وآض التعليم في المدارس الرسمية تركياً قحاً شراً مما كان(٢).
وحلت السلطة (الجمعية العمومية الإصلاحية) في بيروت وغيرها من الجمعيات، وقامت مظاهرات الاستنكار فقمعت بالقوة، وعمت الكآبة كل الشعب، ويئس موجهوه من الأتراك يأساً قاطعاً، فاعتمدوا على أنفسهم في إنشاء المدارس الأهلية، وتحمسوا للغة العربية، وكان رد الفعل للتتريك السافر إبان الحرب قوياً جاوز الميدان التعليمي والميدان الثقافي، إلى الميدان السياسي، وأصبح شعار (الحكم للقوة) يراود الأفكار، إلا أنها اعتصمت بالوطنية والمروءة، ولم تفكر في انتقاضٍ ما على الدولة مراعاة لحالة الحرب القائمة.
هذا حال الأكثرين، وربما وجد أفراد ملهمون جمجموا في أنفسهم بتحري طريق للانتقاض، لأن كل الملابسات تتضافر على أنَّ المسؤولين الأتراك لا يتزحزحون عن سياسة التتريك، فصرت ترى في شكواهم بوادر الثورة، وكانت فيما سبق لا تعدو العتاب، وبذلك عبروا عن نفوس الواعين الغُير على اللغة من الشباب أصدق تعبير. أمثل لهذا بقصيدة لأمين ناصر الدين رد فيها على جريدة (إقدام) التركية(١) جاء فيها:

إن أسرفَ الحسّاد تنديداً بنا   فلطالما ذمَّ الكرامَ لئامُ
نحن الأُلى بلسانهم قد أُنزلت   آيُ الكتاب وذلك الإلهام

وبميمية فؤاد الخطيب التي منها:

جاروا على لغة القرآن فانصدعت   له القلوب، وضجَّ البيت والحرمُ
فالقدس باكيةٌ، والشام شاكيةٌ ،   وفي الحجاز يكادُ الركن ينحطم

والشرق يضئُلُ، والأهواء تحزبُهُ   فليت شعري : أعرب فيه أم رمم؟!
أكلّما حاول العرب الرقيَّ علت   في الترك شكوى وقالوا: ((فتنة عَمم؟))(٢)
وكان إلغاء الثانويتين العربيتين بعد إنشائهما أصرخ الأدلة على عداء حزب الاتحاد لكل ما هو عربي، فلما حل الطاغية السفاح أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع الشام حاكماً عسكرياً مطلق السلطان، وشدد وطأته على الشعب والمتنورين الأحرار بخاصة، وامتلأت السجون وصودرت خيرات البلاد وجاع أهلها، وختم ذلك كله بإعدام القافلة الأولى ثم الثانية سنة ١٩١٦ في دمشق وبيروت شنقاً، ومادت المشانق بخير الأحرار وأكرمهم بتهمة التآمر على الخلافة، لم يكن مناص من إعلان الثورة العربية في الحجاز.
ويهمني هنا الإشارة إلى أن هؤلاء الأفذاذ لم تصرفهم مضايقات السجون وانتظار الإعدام عن الاشتغال فيما أخلصوا له من إحياء للأمة العربية ولغتها وأدبها، فقد كان بعضهم ينظم لأمته الشعر الحماسي، وآخرون يقوون نفوسهم بإنشاد الأناشيد الوطنية، ولما سيقوا إلى المشانق كانوا يهتفون بنشيد كان نظمه أحدهم، هو سليم الجزائري، واشتهر وشاع في حياته وهو :
نحنن أبناء الأولى   شادوا مجداً وعلا
نسل قحطان الأبي جد كل العرب
ولم يدر – رحمه الله – حين نظمه أنه أعده ليكون آخر تحية مخلصة لأمته ولغته تخرج مع آخر أنفاسه.
بدأت بقايا السيوف من الشام والعراق تتسلل بأرواحها إلى الشريف حسين في مكة منضوية إلى لواء الثورة، وعضّ خلال ذلك الغيرُ على اللغة العربية بالنواجذ يزيدونها نشراً في المدارس الوطنية والنشرات السرية والقصائد والأناشيد التي لم تكن تدري السلطات كيف تذاع، ورثيَ الشهداء بأكرم الشعر والنثر. ويعنينا من ذلك ظاهرة في هذا الرثاء هي نصه على عنايتهم باللغة وجهودهم في إحيائها كقول خير الدين الزركلي في رثائهم:
نعى نابُ العربِ شبابها   فجدَّد بالنعي أحزانها
بكى كلُّ ذي عزةٍ تربه   فهاج نزاراً وعدنانها...
نعت لغة العرب من أحكموا   لسان قريش وتبيانها
وناحت على من بنوا عزها   وأعلوا بما أثلوا شبانها
****
استمر ما بذر الرعيل الأول من رجال النهضة عن طريق المدارس والجمعيات والنوادي وغرف القراءة والحفلات والتمثيليات والقصائد والأناشيد، ينمو ويترعرع في كتمان، وكلما عسف الظلم زاد نمواً في سره، حتى إذا غلت فيه عوامل النمو وأوهت القيودَ المحيطة بها من الداخل، وأسعفت العوامل الخارجية فكان جلاء الترك، تفجرت هذه البذور بما يشبه البراكين فأشعلت النفوس حماسة للعربية لغة وأمة وحكماً، وشهدت اللغة في هذه البيئة المواتية من حكم فيصل عصر إحيائها بأقوى ما يكون عليه عصر إحياء، وهو ما سنراه في البحوث الآتية إن شاء الله.
ملحق
نصوص تاريخية لهذه الفترة

أثبت فيما يلي بعض النصوص التي وقعت عليها، لتلقي ضوءاً على أنحاء من هذا البحث، فنعرف منها الجو الذي أومض فيه بعض الإشعاع على اللغة العربية وتعليمها في الشام.
ولا يعيينَّ القارئ ما في لغتها من بعض الركاكة، فلقد انتزعوا هذا القدر من براثن الأسد على كلب الزمان وضعف المكان. وشتان ما نعيش فيه من خصب المصادر ويسر التعليم وما عاشوا فيه من الجذب والعسر.
- ١ -
مجلة (لسان العرب) الجزء الأول ربيع الثاني سنة ١٣٣١هـ - ١٩١٠م من الافتتاحية: ص ٢
((.. وكنت وأنا شاخص البصر في هذه المدة إلى فروق - حيث هي مركزنا الديني والسياسي - لعلي أرى بروق الأقلام ترمض من جانبها، فتسكن زفرة لاعج الشوق المتمكن في القلب كتمكن الاسم في الإعراب، فأقضي زمن ليس بقليل وأنا منتظر بفارغ الصبر، إلى أن سمعت والحمد لله قبل شهرين حمامة البشر على أيك المسرة تغرد بصدور (الهداية) لمنشئها الأستاذ الشيخ عبد العزيز شاويش. فأجبتها بقلب كاد يقضى عليه من الفرح:
حمامة بطنِ الواديين ألا اسْجعي سقاكِ من الغُرّ الغوادي مطيرها
وقد نشطني الشوق وشجعني، فوطنت نفسي مما أصابني من السرور، بأن أجعل أختاً لـ (الهداية) في فروق، فأصدرت (لسان العرب) قائلاً: إن أتيت بالمطلوب فيها ونعمت وإلا فالعفو من شيم أبناء قومي.
أما خطتها فقد تتعين خطة للصحيفة السياسية أو المجلة إذا كانت سياسية، وإذا سلكت المسالك غير السياسية فخطتها حينئذ معنونة في مقالاتها من تنوير، وتهذيب، وإرشاد، وتنبيه. وبما أن اسم المجلة (لسان العرب) فينبغي أن تبذل الجهد في رفع هذا اللسان المحبوب نفديه بالنفس والنفيس، وتسعى على قدر استطاعتها في إحياء ما دثر منه..))(١).
- ٢ -
رعاية اللسان والدين في مفهوم الوطنية:
((.. لسان كل أمة معدود من جملة مفاخرها التاريخية أيضاً بلا منازع، وعليه فلسان كل أمة جزء من مفهوم وطنها، ولكن ((هل الدين داخل في مفهوم الوطن؟)) سؤال إذا أجبنا عليه بعد التأمل قلنا: إن بعض الأمم قد يكون الدين أكبر عامل في حصول مفاخرها التاريخية كالأمة العربية، فإن جانباً كبيراً من مفاخرها تم على الدين، أي إن الدين كان أكبر عامل في حصول تلك المفاخر لها؛ وإذا كان جانب من مفاخرها قائماً على الدين فالدين داخل في مفهوم وطنها. ولكن هذا غير مطرد، لأن في الأمم من لم تقم مفاخرها على الدين.
وعليه فمن الوطنية أيضاً رعاية الدين..)).
معروف الرصافي
- ٣ -
مجلة لسان العرب الجزء الأول ص ٧ - ٨
رواية وفاء العرب تمثل بالعربية في العاصمة التركية.
((مثلت الشبيبة العربية في الشهر الماضي رواية (وفاء العرب) تحت حماية المنتدى الأدبي، وقد حضرها جميع أبناء العرب القاطنين في الأستانة وبعض رجال الحكومة،

وكانت ليلة لم يسمح الدهر بمثلها حيث تجلت فيها الشهامة العربية بأجلى مظاهرها وألقيت فيها القصائد الحماسية التي كان يتخلل أبياتها التصفيق الحاد)).
ص ٤٦ مجلة (لسان العرب الجزء الممتاز في ربيع الأول سنة ١٣٣٢ هـ)
- ٤ -
المدارس العالية
جاء تحت هذا العنوان في مجلة (لسان العرب) الجزء الرابع ص ١٤٠ بعد أن عرض لازدهار المدارس العليا في الحضارة العربية، وكيف كانت تقصد من جميع الأمم، ويجد فيها طالب العلم كل رعاية وإكرام ما يأتي:
((إنهم كانوا إذا حلَّ في بلادهم الغريب في طلب العلم والأدب احتفوا به أكثر من القريب لمجرد انتسابه للعلم والأدب، وخففوا عنه الأسى ومرارة الاغتراب بمثل هذه المعاملة الحسنى حتى يؤول الأمر بكثير من أمثال أولئك الطلاب أن تسكرهم نشوة لطف معاملة هؤلاء لهم فتنسيهم أهلهم وبلادهم ولسانهم أيضاً فيصبحون ولا دين لهم غير الدين العربي، ولا وطن لهم غير الوطن العربي، ولا لسان لهم غير اللسان العربي..
لم ترغم أحداً على تعلم اللغة العربية، وإنما سارت اللغة سيراً طبيعياً، وهي كالغادة الحسناء كل من سمعها افتتن بحسنها، حتى رأينا عدد عاشقيها يزداد كل يوم، ولا مروج لها ولا من يكره على تعلمها حتى آل الأمر أن يتبنى لها من ليس ابنها، وينتسب إليها كل بعيد عنها)).
ثم يرثي الكاتب لاندثار المدارس العليا في عصر الانحطاط حتى أيامه الحاضرة ثم يقول:
((إنني سمعت في العام الماضي وقرأت في جريدتي (المقتبس) و (القبس) أن في نية الفاضلين: شكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي وغيرهما من الفضلاء تأسيس مدرسة عالية في سورية تضاهي تلك المدارس التي ، ولكن ما لبثنا أن رأينا أعقب هذا العزم فتور، ولا نعلم ما الذي يثني همة الرجال في مثل هذه الأعمال..)).
(آيا ستفانوس) ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ
(ابن القيم)
- ٥ -
الجمعية الخيرية ونهضتها التعليمية أيام المصلح مدحة باشا:
((كان بهابك مكتوبي ولاية سورية محباً للعرب، ومتوخياً النصح والنفع للأهالي، فإنه تآزر مع الشيخ طاهر الجزائري على أن يحسنا للوالي مدحة باشا إيجاد نهضة أهلية في البلاد، فألفوا جمعية اسمها (الجمعية الخيرية) وكانت في الظاهر مؤلفة من أعيان دمشق وعلمائها، ويدها المتحركة للشيخ طاهر، وظهرها الذي يسندها بهابك، فأسست:
يوم ٥ شباط سنة ١٨٩٤ م مكتب الباغوشية ودخل فيه ١٠٦ تلميذاً.
وفي ٢٥ شباط سنة ١٨٩٤ مكتب جامع الكردي ودخل فيه ١٠٦ تلميذاً.
وفي ٣ مارس سنة ١٨٩٥ م مكتب الحبال وعدد تلاميذه ١٠٠.
وفي ٨ مارس سنة ١٨٩٥ م مكتب الخانكية ودخله ٩٧ تلميذاً.
وفي ١٦ مارس سنة ١٨٩٥ م مكتب الشامية ودخله ١٥٢ تلميذاً.
وفي ١ نيسان سنة ١٨٩٥ م مكتب الصاحبة ودخله ٥١ تلميذاً.
وفي ٢ نيسان سنة ١٨٩٥ م المكتب الجديد ودخله ٧٧ تلميذاً.

وفي ١٦ حزيران سنة ١٨٩٥ م مكتب البزوري.
وتأسس للبنات المغيريبية في ١١ حزيران سنة ١٨٩٥ م ومكتب السليمانية في ٢٤ مارس سنة ١٨٩٥... وقد أحسن مدحة باشا صنعاً بتعيين الشيخ طاهر مفتشاً للمعارف في ولاية سورية - التي كانت بيروت وملحقاتها تابعة لها، لأنها كانت إحدى متصرفيات ولاية سورية - وكان الشيخ طاهر يؤلف كتب التعليم الدينية والعربية والرياضية والطبيعية فيقرر تدريسها في مدارس الجمعية الخيرية، وتطبع في مطبعة الجمعية الخيرية التي نشرت كتباً نافعة)).
من مقال نشر في مجلة لسان العرب (الجزء الخامس في شعبان ١٣٣١ هـ ص ٢٩٧) بعنوان (مشاهير العرب: الشيخ طاهر الجزائري) وبتوقيع مستعار: (محب لفضله).

الباب الثاني
في العهد العربي الفيصلي
١٩١٨/١٠/٥ – ١٩٢٠/٧/٢٤

أما في حساب الزمن فقد كان كالحلم الخاطف، لم يعمر سنتين، نعمت البلاد فيه بالسيادة والسعادة، وعاشته ساعة ساعة، بل لحظة لحظة. إنه عهد إحياء ونشور، كان فيه الأفراد والجماعات تتضافر في بناء حياة، وبعث لغة، وتأسيس كيان، وأما في حساب النتائج والثمرات، فما أسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار إلى أيامنا هذه، وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة، نتقدم على رغم ما عرا السير من توقف حيناً ونكسة حيناً.
ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أن تأبت على الحديد والنار، وكل ما تمخض عنه الخبث الاستعماري الفرنسي من خطط ماكرة حلوة المظهر فتاكة المخبر مدة خمس وعشرين سنة من الاحتلال العسكري، وستأتي بعون الله على ما بقي من الاحتلال (ثقافياً ونفسياً وخلقياً)، الاحتلال الذي جلا مادياً منذ ١٧ عاماً ولبثت خلاياه الخبيثة الخفية حتى الآن حية تسعى.
ولا يقدر لها – إن استعدنا روح البناء بقوته الأولى – حتى تضعف فتحتضر فتموت أكثر من ثلاثين سنة.

التركة التركية

كانت التركة التي على العهد الجديد تصفيتها ثقيلة معجزة، لكن الله آتى القائمين على الأمور حينئذ، من حافز الإيمان وصدق العزم وقوة الغيرة وإخلاص العمل ما طهر البلاد منها تطهيراً دخل في نطاق الخوارق، وكيف لا يكون كذلك وقد أتى في سنتين على آفات ورواسب وراسخ بقيت تتوطد مئات السنين؟!
أعلن الأمير فيصل تأسيس حكومة عربية في (١٩١٨/١٠/٥) ودواوين الحكومة والجيش كلها تركية اللغة وبالية الأجهزة، أفسدها الرشوة والفوضى والاتكالية، والمدارس لغتها وكتبها وتدريسها بالتركية، وقد حشيت هذه المؤسسات بكثير من موظفين أتراك ما لبث أغلبهم أن رحل إلى بلاده.

أما الجمهور فقد خلق خلقاً جديداً بالفرحة المفاجئة، فهب يعلن عنها بالمظاهرات والحفلات والأناشيد وتزيين الأسواق، وقل أن مر أسبوع في هاتين السنتين دون شيء من هذا ، وتبادر المتعلمون من الأحرار يُعبئون الأرواح بالمعاني العربية وبالاستقلال وتاريخ الأمجاد ولغة الأجداد، حتى حفظ العامة هذه الدروس، يُسهم في إلقائها المشايخ والكهنة وخطباء من كل الطوائف، فبدت البلاد صفاً متراصاً لا ثغرة فيه، وألف الأميون في هذه الأفراح والاحتفالات المتواصلة اللغة الفصحى يفهمونها ويزداد فهمهم لها مع الأيام، حتى ليصح أن يقال: إن هذه المهرجانات كانت مدرسة أدبية للأميين والعامة، كما كانت مزودة لمن كانوا في سن الطفولة بشحنات روحية قوية، بقوا يعملون بطاقاتها في شبابهم أيام الاحتلال الفرنسي، وحين اكتهلوا من بعد، إذ نشؤوا عرباً في لغتهم وروحهم وعقائدهم وأخلاقهم وأمزجتهم(١).

التخطيط الناجح

كانت حماسة المسؤولين لدرء الخطر عن لغة البلاد عظيمة في عهد الأتراك، فلما آلت السلطة إليهم وهالتهم التركة التركية، لم يتسرب إلى نفوسهم المؤمنة يأس، فرسموا لإحياء العربية منهجاً عاماً في ميادين ثلاثة :

١- أما الميدان الأول فما قدمت الإشارة إليه من تغذية الجماهير ومعظمهم أميون وعامة بالروح العربية في كل مناسبة، وما أكثر المناسبات حينئذ، يقود الشعب في مظاهراته شبان يلقنونه الهتاف بالفصحى ويسمعونه الأناشيد الوطنية الشجية بها، حتى إذا تجمعت المظاهرات من طرقها المختلفة في الساحة العامة، سمعوا خطباً وقصائد حماسية بالفصحى تسير عدواها إلى نفوسهم، فيمتلئون بشعور التمجيد للعرب وأمجادهم والتفاؤل في مستقبلهم، وكان أشد ما يثير حماستهم أناشيد الصغار وألبستهم العربية، ثم خطبهم في الجماهير.

٢- وأما الميدان الثاني: ففي إدارات الحكومة والجيش، وهي إدارات يغشاها الناس في حاجاتهم كل يوم، ولا يستغني عن معاملتها أحد. كانت لغتها التركية، وكان على المسؤولين تعريبها تعريباً شاملاً لا يقتصر أثره على موظفي الإدارات نفسها، ولكن يتعداها إلى الناس كافة، فرسمت لذلك العمل في ناحيتين معاً: ناحية عامة تتكفل بإمداد الحكومة بكل ما تحتاج إليه من مصطلحات عربية تقوم مقام المصطلحات التركية، وبمصطلحات مستجدة توضع وضعاً، وناحية خاصة تكفل الارتفاع بلغة الموظفين إذ كان أكثرهم درس بالتركية.

أ- في الناحية العامة: مست الحاجة لإصلاح لغة الدواوين بإيجاد المصطلحات العربية ترجمة ووضعاً، فتألفت لجنة خاصة بالجيش برياسة ياسين الهاشمي، وعضوية، رشيد بقدونس، ومراد الاختيار، وعبد القادر المبارك، لوضع جميع ما يحتاج إليه الجيش من إيعازات وكلمات فنية فقامت بعملها خير قيام، وما لبث الناس أن ألفوا الأوضاع الجديدة واستعملوها.

وألف الحاكم العسكري في ١٩١٨/١١/٢٨ أي في الشهر الثاني لجلاء الأتراك. شعباً إدراية وفنية لإنجاز أعمال الدولة الجديدة، فكانت (الشعبة الأولى للترجمة والتأليف) لتعريب الدواوين ونشر العربية بين الموظفين، وسميت هذه الشعبة بعد أن ضم إليها شؤون المعارف العامة بـ (ديوان المعارف) وأسندت رياسته إلى محمد كرد علي في ١٩١٩/٢/١٢. وكانت لجنة المصطلحات فيها برياسة ساطع الحصري وعضوية عز الدين

التنوخي وحبيب اصطفان (١)، ثم فصلت الشعبة الأولى عن (ديوان المعارف) واستقلت باسم المجمع العلمي في ١٩١٩/٦/٨. ((وقد ألف المجمع أعضاء لجنتين: لجنة لغوية أدبية تبحث في لغة العرب وطرق ترقيتها، ولجنة علمية فنية تبحث في توسيع دائرة العلوم والفنون))(٢)، ثم شرح المجمع خطته في العمل، والحافز له على اختطاطها بقوله تحت عنوان (إصلاح لغة الدواوين):
لما تأسست الحكومة العربية، وتألفت دواوينها ومصالحها المختلفة، أحس رؤساء الدواوين وكتابها بشديد الحاجة إلى كلمات وأساليب إدارية عربية جديدة تخلف تلك الأخرى القديمة الأعجمية في مادتها وأسلوبها، وأحبوا أن ينزعوا عن لغتهم التي اشتهرت باسم (لغة الدواوين) عجمتها وركاكتها، ثم يحلّوها من الكلم والأساليب بما يكون في العروبة أعرق، وبالفصاحة أعلق.
وقد صادف اهتمامهم هذا إنشاء المجمع العلمي العربي فأخذوا يرسلون إليه جرائد (قوائم) تتضمن ما يدور في معاملاتهم وعلى أسلات أقلامهم من الكلمات والأساليب، ويرغبون إلى المجمع في النظر فيها واستبدال غيرها بها.
فوافى المجمع رغبتهم في هذا الاقتراح النافع، ونظر في كلمات وتعابير كثيرة وردت إليه من دوائر المعارف، والأوقاف، والشرطة، والمجلس البلدي، والصحة، والمصرف الزراعي، فأبقى بعضها على حاله لصحته وعروبته، وبدل بعضها كل التبديل، وعدل الآخر تعديلاً قليلاً أو كثيراً حتى اجتمع لديه من ذلك ما يحسن نشره في هذه المجلة وعرضه على رؤساء الدواوين ورجال الصحافة فيرون رأيهم فيه))(١).
ومضى المجمع على خطته التي وصف، ينجز في كل جلسة عدداً غير قليل مما تحتاج إليه مصالح الحكومة من أوضاع وتراكيب. وقد طبع من أجل ذلك على نفقة ديوان المعارف سنة ١٩١٩ (رسالة لغوية في الرتب والألقاب وما يقابلها من العربي الفصيح مبنية على الرتب والألقاب في مصر) لأحمد تيمور باشا، وقد أشار إلى ما كان يكلفه وضع المصطلحات من مراجعات في الكتب القديمة ثم مداولات فيها، بقوله يعدد أعماله في دوره الأول :((ومنها البحث في عشرات من الألفاظ المتداولة في أكثر دوائر الحكومة وتقرير الفصيح منها اعتماداً على أمهات الكتب القديمة مما استغرق النظر فيها جلسات عديدة للمراجعة والمفاوضة والتحقيق))(٢) و((ترجم وصحح ونقح بعض القوانين كقانون التعليم الابتدائي، وقانون الصحة العامة، وقانون الحجر الصحي وبعض القوانين المالية))(١).
ويجب ألا نغفل من الحساب الدروس الدينية في المساجد ولا المحاضرات العامة في مختلف الموضوعات لتثقيف الشعب في التاريخ، والأدب، والعلم، والصحة، والأخلاق والدين، تلقى في قاعة العادلية الكبرى بلغة فصحى سليمة، وكان لهذا وذاك الأثر الطيب في رفع مستوى العامة(٢).
(ب) في الناحية الخاصة: علمت أن كثيراً من الشبان كانوا يترددون إلى غرف القراءة التي أنشأتها جمعية النهضة أيام الحكم التركي، وأن دروساً في اللغة العربية كان يلقيها عليهم الشيخ أحمد النويلاتي، والحق أن كثيراً من الشبان أخذوا أنفسهم بتعلم لغتهم بولوع غريب حتى بلغوا فيها قراءة وفهماً وتعبيراً شأواً بعيداً، وكان من هؤلاء عدد صالح عهد إليهم بأعمال حكومية في الدواوين، لكن أكثر الموظفين فاتهم هذا التعليم لنشأتهم في المدارس

التركية. لذلك، أنشأت الحكومة العربية دروساً لهؤلاء الموظفين وأمثالهم هدفها تقوية لغتهم العربية والارتفاع ببيانهم، وعهدت بهذه الدروس في اللغة والإنشاء إلى أساتذة أكفياء كمحمد الداوودي، وسليم الجندي، وأنيس سلوم وغيرهم، وعجل بإثمار هذه الدروس ثمرتها أشياء ثلاثة: رغبة شديدة في نفوس الدارسين، والجاه الذي ينتظر متقن اللغة العربية في الحكومة الناشئة، والتخلص من معرة الخطأ الذي كان المسؤولون الكبار لا يعفون مرتكبه من تقريع.
وحسبك أن تعلم أن الحاكم العسكري رضا باشا الركابي أحد الأفذاذ بين رجالات الدولة الذين أنجبتهم الأقطار العربية انتقى لديوانه ثلاثة أقوياء في اللغة العربية هم الأساتذة سليم الجندي، وشاكر الحنبلي، وسعيد المسوتي، وكان الأول من أعلام العربية في ديار الشام، وقد وقف الحاكم العسكري كثيراً من جهوده ووقته على خطا التعريب يسهر عليها بنفسه، وكان إذا أراد أمراً بلغه مهما عسرت الشقة إليه، وكان من لطف نظر الله لهذا العهد أن كان حاكمه العسكري، وقد قبض على الأمور بيد من حديد حزماً ومضاء حتى لقبه بعض الناس بـ (هندبرغ العرب).
٣- وأما الميدان الثالث: فميدان التعليم، وله أوسع الآثار التي بقيت تنمو بعد هذا العهد.
ويحسن أن نقسم هذا التعليم تسهيلاً للعرض إلى قسمين: عام وهو التعليم الابتدائي والثانوي، وخاص وهو التعليم العالي وإليك البيان:
(١) التعليم العام: انصرف معلمو المدارس الابتدائية والثانوية وكلهم تخرج في المدارس التركية إلى ترجمة الكتب المدرسية إلى العربية بإلحاح حثيث من مديرية المعارف العربية، وألفت لذلك (لجنة الاصطلاحات العلمية المستعملة في كتب المدارس) كما سبق برياسة مدير المعارف ساطع الحصري وعضوية رشيد بقدونس، وعز الدين التنوخي، وعبد الرحمن شهبندر، وعبد القادر المغربي، وكان يضاف إلى اللجنة حين البحث في مصطلحات فن أو علم، مختص فيه لتوضيح معنى المصطلح بالدقة ومذاكرته فيما يلائمه من مصطلح عربي.
ولضعف أكثر المعلمين في العربية، كانت تعرض كتبهم المترجمة على أستاذ ضليع في العربية لينظر في لغته. حتى لا ينشأ الناشئ على غلط أو ركة، ولا يجوز مطلقاً طبع كتاب لم ينظر في سلامة لغته.
وكان الجو العام للبلاد بالغ الحماسة للغة العربية وللتاريخ العربي ولاستعادة المكانة الأولى للعرب في ظل السيادة والاستقلال، فكانت العناية في الاستجابة للأحوال المحيطة تشغل كثيراً من وقت الطلاب والمعلمين، وقد نالت الأناشيد الوطنية والقصائد والخطب التي كان البلغاء المتحمسون يذكون بها الروح العامة كقصائد الثورة لفؤاد الخطيب ذروة الاهتمام في المدارس، فما أكثر ما كانت تخرج في الشهر تغذي المظاهرات وهي تنشد الأناشيد الحماسية ويتبعها الناس، وما أكثر ما حفظ الطلاب من خطب وقصائد لتلقى في الجماهير.
ولا يخفى ما عاد من هذا كله على ذوق الطالب وملكته وروحه بحيث صار شديد الإحساس بالبلاغة العربية.
(ب) التعليم العالي : في عام ١٩٠٣ أنشأ الأتراك معهداً للطب بدمشق لغته التركية، وأساتذته أتراك، وفي الحرب العالمية الأولى نقل إلى بيروت حين رحل الآباء اليسوعيون

عنها فشغل معهدهم الطبي دار معهد اليسوعيين هناك، وبعد أن انتهت الحرب عاد اليسوعيون إلى معهدهم وتوقف المعهد الطبي.
أما معهد الحقوق فقد أنشئ بعد مؤتمر باريس (١٩١٣/٦/١٨)، عقب الاتفاق الذي تم بين رجالات العرب وحزب الاتحاد والترقي على ما مر بك من إنشاء تعليم عربي عال في البلاد العربية، فأسسوا مدرسة للحقوق في بيروت في ١٩١٣/١٠/١ وبدأ التدريس فيها بعد شهر من هذا التاريخ، وكان أغلب أساتذتها من الأكفياء العرب، وجعلت لغة التدريس هي العربية لمواد (المجلة وأصول الفقه وأحكام الأوقاف والوصايا والفرائض والزواج)، أما بقية المواد فقد جعل التدريس فيها بالتركية. وأقبل الطلاب عليها ثم نقلت المدرسة خلال الحرب العامة (١٩١٤ – ١٩١٨) إلى دمشق، ثم أعيدت إلى بيروت، فلما انتهت الحرب ودخل الفرنسيون بيروت كان الطلاب والأساتذة قد تشتتوا، وورثت الجمعية اليسوعية مخلفات مدرسة الحقوق بمساعدة السلطات الفرنسية.
فلما كانت النهضة في عهد الحكومة العربية، هب الطلاب القدامى من المعهد الطبي ومدرسة الحقوق يطالبون بإعادة المعهدين وإنشاء الحامعة، وجاهد طلاب الصف الأخير من المعهد الطبي جهاد الأبطال، وعقدوا الاجتماعات في النادي العربي وغيره وألفوا الوفود، وعضّد طلبهم مدير المعارف العامة حينئذ، وحملوا الحكومة الفيصلية على إنشاء الجامعة من هذين المعهدين، وهكذا ولدت نواة الجامعة من هذين المعهدين، وكان أكثر أساتذة المعهد الطبي من الأطباء العسكريين. وافتتح المعهد الطبي العربي في الشهر الأول من عام (١٩١٩) ثم افتتح معهد الحقوق في ١٩١٩/٩/٢٥(١)، وكان شرط الحكومة في تسمية الأساتذة أن يحسنوا التدريس باللغة العربية، لأنها اللغة الرسمية للجامعة. وهنا بدأ تاريخ:
كان على الأساتذة أن يجسدوا ما عمر قلوبهم من حماسة وغيرة وإخلاص وإيمان بعربيتهم عملاً محسوساً ليوائم في متانته وأصالته ما يبذل بقية الرجالات في هذا العهد التأسيسي لدولة عربية ناشئة، فعكفوا على الترجمة من اللغات الأجنبية، وأكثر ذلك كان عن التركية والفرنسية، ثم درسوا للاستفادة آثار معهدين طبيين كانا بذلا جهوداً طيبة في التعريب:
أحدهما معهد الجامعة الأميركية، وقد عرفت أن تدريسها كان بالعربية حين إنشائها، واستمر بضع سنين(٢)، وكان أبطال التعريب من أساتذته الدكتور بوست والدكتور فانديك والدكتور ورتبات، ولهم تواليف في الطب والنبات جيدة، لها قيمتها فيما خص المصطلحات حتى الآن، وثانيهما مدرسة الطب المصرية التي بقيت مدة طويلة تدرس بالعربية وترك أساتذتها الذين أوفدوا للتخصص أيام محمد علي على تواليف بالعربية في كل الفروع.
ثم بحثوا فيما وصل إليه وسعهم من كتب الطب العربي القديم يستخرجون منه المصطلحات الممكن استعمالها، حتى تبقى الصلة محكمة بين لغة الطب القديم والحديث، وبعد هذه الخطوة أخذوا يتذاكرون في وضع المصطلحات الحديثة مفيدين كل الإفادة من مرانة اللغة العربية في الاشتقاق والمجاز، موائمين ما أمكن بينها وبين معانيها. ثم شرع كل ذي فن منهم يستقل في وضع مصطلحات فنه مستفيداً من آراء الآخرين، واتسع العمل وأحكم مع الزمن حتى صار لكل فرع من فروع الطب معجمه الخاص فنجد مثلاً للدكتور أحمد حمدي الخياط مؤلفه الضخم (فن الصحة والطب الوقائي) في ثلاثة أجزاء قد ختم بستين صفحة

فيها معجم المصطلحات الخاصة بالكتاب، أمام كل مصطلح عربي مقابله الفرنجي، وأمام كل مصطلح فرنجي مقابله العربي(١)، وليس هذا موضع تفصيل على ما أسدى أساتذة الطب في الجامعة السورية من فضل كبير إلى الأمة العربية، وإنما ضربنا مثلاً لثمرة ما بذر في هذا العهد عجلت به وإن كان محله في المحاضرات القادمة. وحسبك أن تعلم أن جهودهم المتصلة مدى أربعين سنة أثمرت أطيب الثمار، لا في سورية فحسب، بل في كل أقطار الجزيرة العربية، التي قل في هذا التاريخ أن ترى فيها طبيباً من غير خريجي هذا المعهد، من العراق إلى جنوب اليمن. لقد كان هؤلاء الخريجون ينشرون الطب والعربية معاً. وهي رسالة الرعيل الأول من أساتذتهم أقاموها على الأسس المتينة في العهد الفيصلي، واستمر خيرها يتصل إلى الآن.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الذين كانوا يتقنون العربية من أساتذة الطب في هذه الفترة هم قلة أشهرهم الدكاترة: أمين المعلوف، وعبد الرحمن شهبندر، ومرشد خاطر، وأحمد حمدي الخياط، وعبد القادر سري، ولمن استقر منهم في المعهد آثار جليلة بدأت في هذا العهد ثم تتابعت؛ أما الباقون فيستحقون أعظم الثناء لأنهم أخذوا على نفسهم أن يحملوا الرسالة مع زملائهم؛ وبذلوا جهوداً صادقة في تعلم العربية على كبرة السن، حتى استطاعوا أن يدرسوا فنونهم بها، وهذا غير قليل.

وقل نحواً من هذا في عمل معهد الحقوق الذي حظي أيضاً بأساتذة كبار ضليعين في اللغة العربية ضلاعتهم باختصاصهم.

نتيجة التخطيط

هذه هي أهم دعائم النهضة اللغوية التي قامت على أسسها دولة عربية أرادت لأمتها الحياة، ولئن لم تنجح سياسياً وإدارياً لما أقام في طريقها العدو الطامع من عراقيل وعقبات، إنها انتصرت أعظم الانتصار في ميدان الدعاية الحقة بإنشاء أمة عربية واحدة، حتى صار هذا هدف كل الواعين اليوم من المحيط إلى الخليج وسيتحقق يوماً قريباً بإذن الله، وانتصرت في ميدان الكفاح اللغوي فما بذر في هاتين السنتين(١) بقي ينمو على رغم المعاكسات، ويؤتي ثمره مدى الأربعين سنة الماضية، وسيأتي حديث ذلك في المحاضرات المقبلة إن شاء الله.

احتل الفرنسيون ساحل الشام وحكموه حكماً مباشراً، واحتل الإنكليز فلسطين وحكموها حكماً مباشراً أيضاً، لكنه غير بارز، وكان تأثير هذين الجزأين بالإحياء اللغوي الذي قام به الحكم العربي في العهد الفيصلي غير واضح، إذ انصرف الفرنسيون في هذه الأشهر إلى توطيد حكمهم المباشر والتمهيد للإجهاز على الحكم العربي في دمشق، فبقي حال اللغة العربية على ما كان عليه أيام الأتراك. أما فلسطين، فقد قضى التخطيط البريطاني فيها بالتمهيد لإحياء اللغة العربية تمهيداً سيظهر أثره بعد سنة ١٩٢٠ وسنعرض له في المحاضرات القادمة، ومع هذا فتكاد فلسطين تكون أشد تأثراً بنهضة دمشق ولم يصرح بانفصالها عنها في الأشهر التي تؤرخ لها، بل كان كثير من أدبائها وعلمائها وسياسيها مندمجين في الحكم العربي بدمشق، قد وكل إليهم تبعات وأعباء لا تقل عما لأبناء دمشق، ويجب ألا ننسى إسهامهم في المؤتمر السوري الفلسطيني الذي أعلن بيعة فيصل بن الحسين ملكاً على الشام بحدودها الطبيعية(١).

أما الأردن فلم تكن قد انفصلت بعد، وقد شملها الروح الذي عم بقية أجزاء الشام، ولقد كانت الأردن وما زالت إلى الآن في حياتها الاقتصادية والروحية هي وما يسمى (بالتقسيم الإداري) سورية بلداً واحداً متشابك المصالح.

* * *

ولا أختم هذا الحديث قبل الإشارة إلى أمرين:

١- الأول أن هذا العمل الواسع المتين في أقل من سنتين والذي أربك خطط الاحتلال الفرنسي ودهاء رجال ٢٥ سنة، لم يستقل به السوريون وحدهم، بل تجمع في دمشق في العهد الفيصلي الكفايات العربية من كل الأقطار، من كل من أسهم في عمل عام عسكري أو مدني أو علمي أيام الأتراك، فكنت ترى إلى جانب السوريين (من بيروت وطرابلس وحلب ودمشق ولبنان وفلسطين والأردن) عراقيين وحجازيين ومصريين، اندمجوا جميعاً في العمل الحكومي الرسمي، وقام البناء على أكتافهم متراصين، وفي هذا تفسير المعجزة التي خلقت حكومة عربية بكل معنى الكلمة بسرعة فائقة لا تكاد تصدق.

٢- والثاني أن هذا التخطيط الذي مر بك في قلب أوضاع تركية إلى أوضاع عربية صرف على سداده وإحكامه والحماسة في إنفاذه، لم يكن ليؤتي ثمره، لولا حمية قوية في نفوس الأفراد أنفسهم – موظفين وغير موظفين – على أخذ أنفسهم في تعلم اللغة العربية، فأقبلوا على الدروس التي أتاحتها لهم الدولة فأتقنوها، ثم أخذوا أنفسهم بدروس خاصة مكملة، ثم صاروا يستفتون المعاجم ويرجعون إلى كتب الأدب القديمة يقوون بها ملكاتهم، حتى صرت ترى أكثر حديث موظفي الوزارات في مكاتبهم حول صحة كلمة أو فصاحة تركيب، فكان ذا ممن نشؤوا على الدراسة التركية من أقوى ما أعان على نجاح التخطيط نجاحاً سريعاً راسخ الأصول، وإليه يعزى تمتع لغة الدواوين في سورية – بين بقية الأقطار العربية – بأصح بيان وأعربه وأسلمه، ويليها في ذلك العراق، إذ كان بين الذين بنوا دولتها عراقيون وسوريون من رجال العهد الفيصلي(١) نزحوا إليها جميعاً من الشام على أثر الاحتلال الفرنسي.

وثائق ونصوص

نثبت في هذا الملحق وثيقة عن جهد العاملين في تعريب الحكم والتعليم، فقد شمر المختصون في المجمع العلمي العربي للنظر في عربية المصطلحات الضرورية لأجهزة الحكومة المختلفة في التعليم والجيش وبقية المصالح(١). وسيرى القارئ في هذا الملحق أن أكثر المصطلحات المستعملة كانت تركية اللغة أو التركيب، وقد وضح المجمع نهج عمله في تصنيف المصطلحات وما يراه من خطة في تيسير تداولها بما يلي:

((إن مجرد وضع المجمع لهذه الكلمات لا تفيد الفائدة المرغوبة ما لم يتناولها الأفاضل المومأ إليهم (رؤساء الدواوين ورجال الصحافة) فيستعملوها في كتاباتهم ويزيلوا خشونتها أو غرابتها بواسطة التداول والتخاطب والتراسل بينهم، وإذا استعمل أحدهم هذه الأوضاع الجديدة حسن أولاً أن يتبعه بأصله القديم فيزيد بذلك وضوحاً وشيوعاً بين الناس، فإذا استعمل كلمة (حاشية) مثلاً أتبعها كلمة (دركنار) واضعاً لها بين هلالين.

ونحن على يقين من أن ما اخترناه للكتاب الأفاضل من هذه الأوضاع والتعابير الجديدة لم يكن خير ما يقال وأفضل ما يعول عليه: إذ قد يتفق لبعضهم أن يخطر له كلمة أو تعبير خير مما وضعنا واخترنا، فله أن يستعمل ما ارتآه هو كما أن لغيره أن يستعمل ما ارتأينا نحن، فتحيا الكلمتان معاً أو إحداهما التي تكون أفصح وأصلح.

وها نحن أولاء ننشر طائفة من تلك الكلمات التي عرضت علينا مقتصرين منها على ما فيه تبديل أو تعديل. أما ما أبقيناه على وضعه القديم فقد ضربنا صفحاً عن نشره لعدم الحاجة إليه.

وبعض هذه الكلمات التي جددناها مقتبس من أوضاع الدول العربية القديمة كديوان الخراج، وديوان العمائر مثلاً.

وقد قسمنا هذه الكلمات إلى ثلاثة أقسام وخاتمة:

القسم الأول

كلمات عربت(١) أو حولت عن أصلها

وضع قديم	وضع جديد
النافعة	ديوان العمائر
الطابو	ديوان التمليك
الوير كو	ديوان الخراج
البوليس	الشحنة أو الشرطة
معاون بوليس	رفيق الشحني
سر قوميسيير	مفوض تحري
سيفيل بوليس	فارس شحني
الهيئة الفنية لإنشاءات الأوقاف	لجنة العمائر في الأوقاف
دائرة الهندسة	لجنة التخطيط
المأمور الصحي	الملقح أو المطعم
الدورية	العسس
نوبتجي	آذن أو بواب
أودخه جي	فراش
ذمت وإيليشيك	الدين والعلاقة
إيلشيك جدولي	جدول العلاقة
قاصة دفتري	دفتر الخزانة
شيفره جدولي	جدول القلم السري أو الجدول الجفري
نومرو	رقم أو عدد
دركنار	حاشية
إيستا تستبق	إحصاء
خرجراه	نفقات السفر، أو ترحيلة
رابور	تقرير
بول	طابع

قوجان دفتر القسائم (وكل ورقة قطعت منه تسمى قسيمة، والورقة الباقية فيه تسمة أرومة [قرمية])

القسم الثاني

كلمات عدلت بعض التعديل

وضع قديم	وضع جديد
دائرة الداخلية	دائرة الملكية
دائرة العدلية	دار العدل
دائرة المالية	قلم الحال
دائرة الديوان العمومية	شعبة الديوان العامة
دائرة انحصار الدخان	شعبة حصر الدخان
القائمقام	القيم
دائرة التنظيم والطرقات (بلدية)	لجنة إصلاح الطرق
دائرة المواصلات والحرف (بلدية)	لجنة النقل والحرف
مأمور الإجراء	المنفذ
مأمور سجل العقارات	مسجل العقارات
مدير التحريرات	مدير الرسائل
كاتب المخابرات	كاتب الرسائل
مأمور الأمانات	حافظ الأمانات
مأمور السجن	السجان
أمين الصندوق	الخازن
رئيس قسم العدلية في دائرة الشرطة	رئيس القسم العدلي
مأمور إطفائية	إطفائي
مقيد	مدون
محضر خيال	محضر فارس
محضر ماشي	محضر راجل
دفتر مفردات القروض	دفتر تفاريق القروض
قوائم المزاد	جرائد المزاد
مفتاح الشيفرة الخارجي	المفتاح الرقمي الخارجي
أوراق موردوة	الرسائل الواردة
أوراق مرسولة	الرسائل الصادرة

القسم الثالث

كلمات مختلفة

وضع قديم	وضع جديد
ماصه	مكتب
قاصة	خزانة
قولتق	متكأ

باس باس	ممسحة
دوسيه	إضبارة أو ملف
روزنامه	تقويم
استامبه	محبرة الخاتم
زبل	منبه
صوبا	مدفأة

الخاتمة

تتضمن كلمات ارتأى المجمع أن يكون لها معان خاصة واعتبارات جديدة، ويرغب إلى رؤساء الدوائر أن يراعوها في معاملاتهم ومراسلاتهم من بعد اليوم:

(الدائرة) هي القسم المختص بعمل من أعمال الحكومة يدرج تحته فروع متعددة مثل (دائرة المعارف) و (دائرة الأوقاف) و (دائرة المال). فإن كانت الدائرة في بناية خاصة سميت (داراً) كدار العدل ودار الأمة العامة، وإذا اجتمعت عدة دوائر في بناية واحدة سميت أيضاً داراً كدار الحكومة الكبرى.

(الديوان) هو القسم المعين لعمل واحد من أعمال الحكومة كديوان الرسائل، وديوات النفوس وديوان الخراج (ويركو) وديوان التمليك (طابو) وهو أخص من الدائرة.

(القلم) هو شعبة كتابية تابعة للدائرة أو للديوان مثل (قلم المحاسبات) و (قلم المراسلات) و (قلم الأوراق).

(المجلس) هو في اللغة مكان الجلوس. وفي الاصطلاح يطلق على جماعة تنتخب للنظر في بعض الشؤون العامة كمجلس الإدارة والمجلس البلدي.

(اللجنة) بفتح اللام، جماعة ينتخبها المجلس من أعضائه أو غيرهم للنظر في بعض الشؤون الخاصة.

(الدائرة الشرعية) هي التي تتعلق بها المعاملات الشرعية، وتقابلها (الدائرة المدنية).

(الدائرة الملكية) هي التي تتعلق بها المعاملات الملكية وتقابلها (الدائرة العسكرية).

الباب الثالث

حال اللغة أيام الاحتلال الفرنسي

الفصل الأول

حالها العامة – قوة الاستمرار

تغلبت قوى الجيش الفرنسي على المجاهدين السوريين حين هبوا لصدها متطوعين، وانكشفت معركة (ميسلون) في ٢٤ تموز ١٩٢٠ عن الاحتلال الذي امتد حتى عام ١٩٤٥. لقد خسرت فيه البلاد سيادة الحكم فما حال سيادة اللغة؟

تلقت اللغة العربية في هذه الأعوام هجمات عنيفة، ظاهرة وخفية، سهر على إعداد خططها مستعمرون أذكياء دهاة، عملوا في الخفاء كثيراً وفي العلن قليلاً، وكان أملهم أن تثمر في الشام ما أثمرت في الجزائر، حيث قضت على اللغة العربية فيها قضاء شمل أغلب الميادين، حتى صار المتجول فيها يشك في أنها كانت عربية يوماً من الأيام.

لكن الفارق بين حالي البلدين كان أكبر من طاقة المستعمرين، فسلموا بالأمر الواقع واكتفوا برسم خطط أخفى وأبعد مدى وأبطأ ثمرة، تنفذ على مراحل، فمن إضعافها في المدرسين والمدارس إلى شوبها بالعامية، إلى إحلال العامية مكانها، ثم يعاودون أمرهم الأول في إحلال الفرنسية محلها. ولقد قطعوا شوطاً بعيداً في تنفيذ خطة الإضعاف، فحال يوم الجلاء دون تنفيذ الباقي من خططهم الماكرة، لكن بقينا نعيش حتى اليوم في عقابيل من الضعف.

ذلك أن الفرنسيين الذين كسبوا معركة ميسلون بالعدد والعدد ولم يلقوا قوة ركينة تثبت لهم، جابهوا حين تصدوا لمقومات السيادة في الأمة، قلاعاً حصينة سخرت بخططهم وثبتت لقواهم حتى راغت هذه القوى ثم اندحرت وانتصرت اللغة العربية.

لقد كان حال اللغة الفصحى في المدارس والصحف والنوادي من القوة بحيث لم تكتف برد الهجمات، بل زادت إلى ذلك نمواً في قوتها وانتشارها وتمكنها في النفوس تمكناً ما يزال يقوى على رغم التشكيك والعراقيل والمكايد والأحابيل، وهذا ما لم يجده الفرنسيون في الجزائر غداة احتلالها سنة ١٨٣٠ لاختلاف الزمانين.

إن التعبئة العامة التي عبئتها النفوس في العهد العربي الفيصلي على قصره، أورث الأمة أفراداً وجماعات اندفاعاً وحماسة في الإقبال على الفصحى تعلماً وتعليماً ونشراً كانا كالنار في الهشيم لا يقفه شيء، وإن وقفه قليلاً فليرتد أضرى ضراوة وأشد اندفاعاً، ولقد استطاع الاحتلال إغراء النفوس الضعيفة لتخدم مآربه في السياسة بمناصب ورواتب، ولم يستطع قط أن يظفر بين جميع حكوماته التي نصبها بحكومة تتكفل بالعدوان على اللغة العربية كما ضمنت له الحد من روح الوطنية المفعمة بها أجواء الشام، فانقلب الاحتلال صاغراً وتظاهر بتشجيعه لغة البلاد.

* * * *

إن الذي يرصد تياراً من التيارات في مجتمع ما سيتعاظمه تعدد الميادين التي عليه أن يلجها ليسبر فيها عمل التيار سطحاً وعمقاً، فماذا ننتقي من هذه الميادين لحديثنا هذا القصير ؟

أمامنا بيئة الفلاحين مثلاً، وبيئة العمال في المدن، وبيئة كل حرفة على حدة، وبيئة الأسواق، هذا من نحو، ومن نحو آخر دور الحكومة ومصالحها وما يرد عليها من قضايا الناس تبت فيها على مختلف أحوالها، ثم المدارس والبيئات العلمية كالنوادي الأدبية والجمعيات والمجامع والجامعات، ثم دور اللهو، وأماكن الحفلات، ثم الصحف والمجلات والكتب والنشرات إلخ، وكل من هذه موضوع صالح للدرس بأناة وسبر.

ولا شك أن أبعدها مدى وأرسخها أثراً على الإطلاق دور العلم حيث تطبع أجيال الأمة بطابعها فتخرجها إلى المجتمع رجالاً عاملين، لتستقبل من بعدهم ناشئة تعدها لتتوزعها ميادين النشاط العام. وهكذا تمد البلاد بدفعة بعد دفعة حتى تطبع المجتمع بطابعها العام.

سنتكلم إذن على معركة اللغة العربية في المدارس الابتدائية عامة ثم نفرد مؤسسات ثلاثاً من دور العلم بحديث خاص؛ وهي ثانوية دمشق، والمجمع العلمي العربي، والجامعة السورية، وسيظهر لك سبب هذا الإفراد فيما بعد.

فإذا انتهينا من ذلك عرضنا لأثر المطبوعات من صحف ومجلات وكتب ونشرات، وختمنا بكلمة عامة على بقية الميادين، مسجلين في ذلك كله المظاهر العامة دون توغل في المناحي الفنية، فلا نعرض مثلاً لمستوى ما ينشر في الصحف والمجلات من الناحية الأدبية أو الفنية

اللغوية، ولا للتقدم العلمي في كليات الجامعة، وإنما نرصد أثر هذه المؤسسات في نشر الفصحى واكتسابها الميادين الجديدة وتطويع الجماهير للاستجابة لها.

- ٢ -

في المدارس الابتدائية عامة

عرفت من المحاضرة السابقة أن الانبعاث اللغوي في الحكم التركي وفي العهد الفيصلي واكب انبعاث الروح الوطنية العربية والاعتداد بالعرب أمة وتاريخاً وأمجاداً، وبقي الأمر كذلك في عهد الاحتلال الفرنسي مع إضافة أمر ثالث هام جداً هو النضال القوي المرير الذي عاش فيه الناشئة والشبان والكهول بكل طاقاتهم وأوسع وعيهم، وهو ما لم يكن في العهد التركي، إذ قام بالنضال فيه فئات غير كثيرة، ولا في العهد الفيصلي إذ كان الناس مطمئنين إلى مستقبلهم الذي انصرف المسؤولون إلى بنائه، والاطمئنان قلما أذكى همة وبعث نضالاً.

احتل الفرنسيون الشام ووجدوا بناء راسخاً مكيناً للغة الفصحى في النفوس، وفكروا طويلاً، وقدروا فانجلى تفكيرهم عن الخطوة الآتية في مرحلتين(١):

فأما المرحلة الأولى فلم يعرضوا فيها للغة العربية وجهاً لوجه، وإنما أرادوا شلها من وراء وراء بما يلي:

(أولاً) ضاموها بفرضهم اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية من سنتها الأولى، فاستبدت بقدر غير قليل من جهود الأطفال وأوقاتهم، واحتجزت من ساعات التعليم سدسها لهذا الهدف وهو كثير، وبذلك خسرت اللغة العربية من طاقاتهم ما غصبته اللغة الفرنسية.

(ثانياً) أخذوا المدارس الأهلية (غير الحكومية) بسياسة الترغيب والترهيب، فكانوا يرسلون عليها المفتشين يأخذونها بصرامة بشكليات كثيرة فوق قدرتها وإمكانها، يتوسلون بذلك إلى إغلاقها، ويمدون من جهة ثانية أيديهم بمساعدات مالية لتعلم اللغة الفرنسية حتى إذا استنامت إلى هذا الإغراء تذرعوا بذلك إلى الدخول في شؤونها وتوجيهها الوجهة التي يريدون، وبذلك ينتزعون منها الصبغة الوطنية الاستقلالية فيأمنون جانبها.

والمعروف أن هذه المدارس صبغتها عربية إسلامية، وهو ما أرادوا القضاء عليه. وأذكر أن مدرسة الموارد تعيش على التبرعات رفضت بكل إباء قبول المساعدة وصابرت فقرها إخلاصاً لأغراضها السامية هي مدرسة الإسعاف الخيري في البزورية، وعلى مقربة منها مدرسة كبرى تبتز المال ابتزازاً من الطلاب سارعت إلى قبول المساعدة والتطوع لخدمة مآرب الاحتلال، واستزدت من ذلك ثم جعلت لغة التعليم فيها فرنسية.

(ثالثاً) أكثرت السلطة الفرنسية من مد المدارس الأجنبية وبعض المدارس الطائفية بالمعونات المادية والمعنوية، وصارت تعتمد إعطاء خريجيها الوظائف في الدولة لقوتهم في الفرنسية، وتحرم خريجي المدارس الوطنية الأهلية، وتلقي إلى خريجي المدارس الرسمية ببعض الوظائف، فأنتج ذلك بعد سنوات كثيرة الإقبال على المدارس الأجنبية وبعض المدارس الطائفية حتى أتخمت طلاباً وأموالاً ونفوذاً في الدولة، وأغلق بسبب الحرمان عدد من المدارس الوطنية التي لم تساوم على مثلها العليا، وفي طليعتها المدرسة الكاملية، وهي التي لها الفضل الأكبر في النضال، وفي مد البلاد بخير الشبان أخلاقاً وعلماً ووطنية أيام الأتراك.

(رابعاً) حرمان خير المعلمين الذين أبلوا البلاء الحسن في بث روح العربية في الناشئة أيام الأتراك وفي العهد العربي، لأنهم اشتغلوا بالسياسة وأنهم فيصليون، وأنهم يناوئون الانتداب، وتذرعوا إلى ذلك بشكليات الشهادة وما إليها. فعهد بتدريس اللغة العربية إلى من لا يحسنه.
(خامساً) فضلوا معلمي اللغة الفرنسية في المدارس الرسمية في رواتبهم ومراتبهم على أمثالهم من المعلمين فكانوا طبقة متميزة، فعكف فريق من المعلمين على تعلم الفرنسية للتقدم إلى امتحانات المعلمين وتركوا تعليم اللغة العربية وغيرها من الدروس ليحظوا بهذه الدرجة، وقد كانت الرواتب ضئيلة في الجملة.
(سادساً) عرفت أن الروح الوطنية المتأججة في نفوس المعلمين والطلاب في المدارس الرسمية تكفلت بحفظ اللغة العربية، ولم ين المعلمون في تحديث طلابهم عن العهد الفيصلي السعيد، وعن تاريخهم، وعن الاحتلال والاستقلال بما تعيه مداركهم، وكانوا يغضون النظر كثيراً عما يفلت من ألسنة الطلاب وحركاتهم عداء للفرنسيين، ولمن اصطنعوهم من الحكام والوزراء، فإذا تظاهروا بالزجر قالوا: لا تخرجوا عن الموضوع. ونمى الأمر إلى سلطة الاحتلال فعالجت ذلك علاجاً خبيثاً خفياً، وذلك بأن جعلت في كل مدرسة ابتدائية، معلماً للغة الفرنسية من خريجي المدارس الأجنبية وأمثالها يقوم بالتجسس على الطلاب والمعلمين. ونقل على أثر تقارير هؤلاء ووشاياتهم عدد من المعلمين، وسرح عدد، وعم أجواء المدارس إرهاب خفي برهة من الزمن ؛ فلما عرف المعلمون من أين أتى زملاؤهم المظلومون تجنبوا الكلام أمام أكثر معلمي الفرنسية.
هذا بعض ما صنعه الاحتلال فماذا كان الأثر العام؟
أما في المدارس الرسمية فقد قاومت نفوس الأطفال التعليم الفرنسي مقاومة مكبوتة حتى كانوا يعيبون المجدّ فيه بنقص وطنيته، وازداد معلموا اللغة العربية عناية بتعليمها، وبات رد الفعل واضحاً يبشر بخير، وبذلك لم تتوقف تلك الدفقة الخيرة في الغيرة على اللغة العربية التي شملت المجتمع أيام العهد العربي، بل تابعت طريقها بنشاط.
وكان من حمق الاحتلال أن منع أناشيد وقصائد وطنية راجت أيام العهد العربي، فأقبل الصغار يستظهرونها وينشدونها في الفرص فيزجرهم معلموهم فينزجرون ثم يعودون لما نهوا عنه، وكل ممنوع مرغوب فيه. سنة الله في النفوس.
وبذلك جعلوا الأطفال يحسون منذ نعومة أظفارهم بمرارة النضال الذي عليهم أن يناضلوه غداً، ولبثوا سنين طويلة ينظرون إلى اللغة الفرنسية نظرهم إلى لص غريب في عقر دارهم. واحتاج تأليفهم على تعلمها إلى أكثر من خمس عشرة سنة حتى تغيرت النظرة مع الإدمان، وقنع الكثيرون بأن تعلمها نافع.

الفصل الثاني

اللغة العربي في ثانوية دمشق(١)

معقل العروبة وطنية ولغة وأدباً وتاريخاً ونضالاً طويلاً، لبث الشوكة الكبرى في عيون الفرنسيين ربع قرن، لم ينازعه هذا الشرف في دمشق معهد آخر. كان الإبرة الحساسة لما يجيش في الشام من تيارات، وكان الفرنسيون يرصدون فيه صدى الحوادث، بركان الشام

الدائم لا ينزل بها الأعداء أذى حتى يتمخض، فيقذف الشوارع والساحات بالمظاهرات العنيفة تغلق لها الحوانيت وتتعطل المتاجر لتزيد بمن فيها وقود التظاهرات والاحتجاجات والإضرابات، وسرعان ما تحذو بقية المدن والقرى حذو الشام بطلابها وعمالها وتجارها، وتصلى السلطات الفرنسية بهذه النار التي لا تخمد ليكفوا أذاهم عن البلاد. وأستغفر الله، لم يقتصر هذا المعقل على أن يكون صدى أحداث الشام، بل كان صدى أحداث العالم العربي كله فمن مقتل السردار في مصر وما أعقب من كوارث إلى نفي السلطان محمد الخامس رحمه الله، كانت الشام تنفث الهم والحزن من براكين مضطرمة بالسخط على أعداء العرب، تثور من هذا المعقل بتظاهرات الطلاب واحتجاجاتهم فلا تلبث أن تعم الشام كله.
وأصبحت سياسة الجزء الذي أطلق الفرنسيون عليه اسم (سورية) هو سياسة هذه الثانوية إلى حد ما، لقد تفننوا في تغيير إدارتها وأساتذتها وحشروا فيها ما كنا نسميه (معلمي الاستخبارات الفرنسية)، وأثقلوا برامجها بما يرهق الطلاب، ثم جعلوا فيها رؤساء فرنسيين للتدريسات، كانوا هم المديرون الحقيقيون في بعض الفترات، ولكن هيهات، كل ذلك ما كان إلا ليزيد الروح العربية ضراماً في هذه النفوس الناشئة الطيبة.
وتفرض طبيعة الموضوع منهجاً خاصاً في الكلام عليه يخضع لحالة اللغة العربية في هذه الثانوية وبعبارة أدق حالة اللغة في (التعليم الثانوي) وقد دخلت أدوراً ثلاثة:
١- دور التأسيس وينتهي بسنة ١٩٢٧ حين أنشئ نظام الشهادة الثانوية العامة (البكالوريا السورية).
٢- دور القوة وينتهي بسنة الجلاء عام ١٩٤٥.
٣- النكسة وقد كانت بدأت قبيل ذلك ببضع سنين نتيجة للنظام الفرنسي في تخريج مدرسي اللغة العربية من فرنسة، لكنها عظمت بتغيير مناهج التدريس وقواعد الامتحانات وإليكم بعض التفصيل(١):
١- عرفت من الكلام على العهد الفيصلي وما قبله أن الحماسة في الإقبال على تعلم العربية وإعزازها كانت شديدة، وأن الذين وسد إليهم تعليمها في الثانويات هم الطليعة من علماء العربية وأدبائها وشعرائها في دمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور وغيرها. فلما كانت نكبة الاختلال زادت الحماسة، فلما بدا مكر السلطة بالعربية وذويها انقلب الإقبال نوعاً من الجهاد في سبيل الله، واقتسم شرف هذا الجهاد المعلمون والطلاب وأولياؤهم على السواء.
دخلتُ مدرسة (التجهيز ودار المعلمين) تلميذاً بعد الاحتلال بعامين، وقد جمع طلاب الثانوية وطلاب دار المعلمين على منهج واحد، ثم ينفرد طلاب دار المعلمين بدروس مسلكية إضافية بعد الدوام وقبله، فوجدت فيها على منابر اللغة ثلاثة من أعلام العربية، هم المرحومون الشيخ عبد الرحمن سلام، والشيخ محمد سليم الجندي، والشيخ محمد الداوودي، ولم أستكمل العام حتى انتقل الأول إلى بلده بيروت، وحل محله الشيخ أبو الخير القواس، وبعد ثلاث سنين أضيف إليهم الأستاذ محمد البزم رحمه الله، ومع احتلافهم في التمكن والتبحر في علوم العربية، يستوون في حبها والغيرة عليها والسعي لرفع شأنها والحماسة في تعليمها. وعلى جهود هؤلاء وأمثالهم في بقية المدن الشامية ارتفع لواء اللغة العربية في الشام وحمله بعدهم تلاميذهم. ومن حسن الحظ أنه لم يكن يرشح لتدريس اللغة العربية في الثانويات إلا من ثبتت له قوة في علومها أو في أدبها نثراً وشعراً أو بلاء حسن في تعليمها

سنين طويلة. وإلى أن يشتهر واحد بشيء من هذا يكون قد أبلى نضارة أيامه جلوساً على ركبتيه في حلق العلم، وسهراً على تحصيل مسائله، وقل أن تطير له شهرة إذا لم يضف إلى ذلك نشاطاً يرضي أهل الاختصاص. ولم تكن يومئذ تلك البدعة المتأخرة في جعل التولية مقصورة على من حمل شهادة عالية سواء أكان أهلاً أم غير أهل، وسواء أكانت الجهة المعطية الشهادة لشهادتها وزن أم لا.

والفضيلة التي ينبغي أن تسجل أن هؤلاء الأساتذة في جملتهم عنوا بالكشف عن الملكات الأدبية واللغوية وتفتيحها مع عنايتهم بتدريس المناهج المقررة، وكانوا يأخذون طلابهم بالكلام العربي الصحيح في قاعات الدروس، ويقومون ألسنتهم عند كل لجنة في قراءة أو محادثة أو كتابة، وكلهم لا يضع درجات الامتحان إلا بوزن وحساب، فعلى قدر سلامة اللغة وصحة الملكة يقدر الطلاب، فعاد ذلك على الطلاب أنفسهن بالخير العميم حتى صاروا يتعايون باللحن، ويتباهون بالفصحة والسلامة.

ولقد نبغ من طلاب هذا المعهد خطباء وكتاب وشعراء وأدباء عرفوا بهذه المزايا وهم طلاب، فكأن أولو المواهب يكتسبون من كل أستاذ ما ينفرد به، فبينا نرى الشيخ عبد الرحمن سلام خطيباً مفوهاً مشاركاً أديباً شاعراً، حتى إن دروسه المخصصة للقواعد خطب كلها، نرى الأستاذ الجندي معنياً بعلوم الأدب واللغة يطغى عليه الطابع العلمي، على حين كان الأستاذ البزم يُعنى بطبع طلابه بالطابع الأدبي المتفحل، أما الأستاذات الداوودي والقواس فالناحية التطبيقية التعليمية هي الغالبة في دروسهما.

ثم يتساوى هؤلاء الأساتذة في البحث عن ذوي الملكات وتشجيعهم وتقديم كل ما في إمكانهم من إيناس ووقت وعلم وتوجيه لبعث ما لديهم من موهبة وملكة(١).

ومن ذكريات السنة الأولى في هذه المدرسة أنا دخلنا ذات صباح، فرأينا تلاميذ الصفوف العليا تلحقوا حلقاً بتهامسون، فلما قرع جرس الدرس لم يهرعوا إلى الاصطفاف كعادتهم، بل صاحوا بأصوات صاخبة وتجمهروا جانب الإدارة، وصعد منهم خطيب بعد خطيب يعلنون الإضراب عن الدروس حتى تبدل الوزارة مديرهم، وبعد مدة علمنا نحن الصغار أن هذا كان نتيجة إنزال عقوبات صارمة ببعضهم، وطال هذا الإضراب حتى جاوز الشهر، والمهم أنا كنا نستمع كل يوم من هؤلاء الطلاب الكبار خطباً مرتجلة بالعربية الفصحى لا تلعثم فيها بل تدفقاً وسلاسة، ولست أعرف الآن هل كانت خالية من اللحن أو لا.

ولا أنسى قط ليلة من ليالي الثورة السورية (سنة ١٩٢٧) لم نذق فيها طعم المنام : كنت تلميذاً ليلياً في هذه المدرسة حين آضت أعمر أحياء الشام خراباً من ضرب الفرنسيين البلدة بالمدافع وقذائف الطائرات والحرائق، وأتى مفوض سام جديد لفرنسة (هو المسيو هنري دي جوفنيل) يلوح للثوار في الشام بغصن الزيتون، فزار المدرسة وتفقد قاعات دروسها معه حاشيته وأعضاء إدارة المدرسة وبعض الأساتيذ، فلما دخل بهو الرسم والأشغال اليدوية ينظر أعمال الطلاب، ووقف طالب لا ولوع له بالأدب واللغة وارتجل كلمة لا بأس بها ندد فيها بالأعمال الوحشية وقال: ((إننا أمة تطلب حريتها واستقلالها)) وكلاماً من هذا الباب، فاصفر المفوض السامي وحاشيته والمدير والأساتذة وقطع المفوض السامي الزيارة متوجهاً إلى باب المدرسة يرتجف غضباً، ولم يفته أن يقول لإدارة المدرسة وأساتذتها : ((إن هذا ما لقنتموه الطلاب)). وتوقع الطلاب الليليون قصف المدرسة ليلاً بالحمم فلم

يناموا، ولم يكن توقعهم من وحي الصبا الطائش، فقد كان الفرنسيون يفتكون لأقل من هذا بكثير.
والذي أسجله أن أساتذة اللغة العربية لم يكونوا يتكلمون في سياسة قط، لكن ثمرة جهودهم في نشر اللغة العربية نشراً حياً وتقوية ملكات طلابهم فيها لم يكونا يجدان متنفساً إلا في السياسة، لقد كان إنتاج الطلاب حينئذ (ما شئت من خطب وقصائد) وقوداً للمظاهرات والاحتجاجات والإضرابات. وهذا هو ما تقتضيه الأحوال في هذا الدور.
أكثر هؤلاء الأساتذة كانوا يتجهون بطلابهم وجهة القديم في الأدب واللغة لهدف واحد: هو الإبقاء على نقاوة اللغة وسلامتها، وقل أن يعترف أحدهم لمحدث بتجويد، بل كان الأستاذ الجندي ينهى تلاميذه عن كتب المنفلوطي وشعر شوقي وحافظ، لأنها تفسد اللغة، إني والله لا أزال أذكر قوله هذا ونحن في الصف التاسع، وقد جرح بذلك شعورنا لكثرة ما كنا نحب المنفلوطي. وكانت ترجع إلينا وظائفنا الكتابية موشاة بالخطوط الحمر فوقها نمنمة تشير إلى الخطأ والصواب فيه مع شيء من التبكيت والتنكيت أحياناً، وعرف الأستاذ البزم بتعليقاته الطريفة العنيفة استحساناً واستهجاناً.
ولا شك في أن هذا منهم كان (قومية لغوية) إن صح التعبير، لينهل الجميع من المنهل العذب الصافي، فيتحدوا في سلامة التعبير وتكون اللغة الواحدة في المستقبل هي الموحد الأكبر لهذه الأمة. وقد نشأ طلابهم على غرارهم فقاموا بالعبء معهم في الدور الثاني، وبعدهم في الدور الثالث الآتي بيانهما إن شاء الله.

* * * *

كان على الاحتلال أن يفكر في تهديم هذه القلعة تهديماً من وراء وراء، إذ لا تجيز السياسة كفاحها وجهاً لوجه. فعمل على زيادة الإقبال على المدارس الأجنبية والطائفية التي تُعنى باللغة الفرنسية ولا شيء وراء ذلك ذو بال، فكان هذا اليسر داعية الإقبال والنجاح من صف إلى صف دون عناء وشهاداتها تقبل في الجامعة، وهي المفضلة بل هي الميسرة في التوظيف في الشركات الأجنبية (الخطوط الحديدية والتراماواي وغيرهما) والمصارف (البنوك) وجميع المصالح الحكومية التي يديرها الفرنسيون مباشرة، ثم تكون هي الشفيع في تولي مناصب الحكومة السورية نفسها عند المستشارين الذين هم كل شيء في كل وزارة ومصلحة.
وعلى عكس ذلك كله كان الأمر في مدرسة التجهيز والمعلمين وخريجيها أنظمة إدارية صارمة، عناية قوية في كل العلوم، وموازين دقيقة في الامتحانات لا تُنجح إلا المجدين المحصلين، وعند التخرج فالجامعة لا تفضل خريجي الثانويات الرسمية على أولئك من خريجي المدارس الطائفية والأجنبية على رغم تفوق الأولين العلمي، ثم أبواب مسدودة في وجوههم في كل ما عددنا من مصالح وإدارات.
هذا وغيره مما لم أذكر لم يثمر في قتل الروح العالية في هذه المدرسة وأشباهها، لكنه صد عن أبوابها أعداداً كثيرة ارتمت في أحضان المدارس الأجنبية، ثم أعدت لتملأ دوائر الاستخبارات الفرنسية وغيرها، ولو لم تشح بوجوهها ودخلت فتربت التربية الوطنية ونشئت التنشئة العربية لكان منها لوطنها وللأمة ولغتها خير غير قليل.

٢- إلقاء الحبال على الغوارب في قبول شهادة كل ثانوية غير رسمية فسح مجالاً واسعاً للفوضى، وجعل صفوف الجامعة تعج بالمستويات المختلفة بين الحضيض والأوج، وأخذُ الجميع إخاذاً واحداً ظلم ما بعده ظلم، فإذا أضفت إلى ذلك سوء الاستعمال الذي لجأ إليه بعض مديري المدارس غير الرسمية من إعطاء الشهادات بثمن معلوم، ومن جعل التلاميذ يقفزون في السنة صفين وثلاثة صفوف، ولكل ذلك أجره الخاص، ثم تزييف شهادات لمن لم يدخل المدرسة قط إذا قدم ما يطلب منه هذا المدير من مال، على أن يساعده في امتحان الدخول للجامعة، جعل الإبقاء على الأوضاع مسقطاً من هيبة الحكم، فعمد المسؤولون إلى إيجاد نظام الشهادة الثانوية العامة (البكالوريا) السورية، فصار تلاميذ جميع المدارس يتقدمون إلى امتحانات واحدة ويعاملون بمستوى واحد، وبعد ذلك يحصلون على شهادة واحدة، وهذه عدالة لا شك فيها وضعت حداً للتلاعب وللظلم. واللغة العربية إحدى المواد الأساسية في الامتحان فبماذا عاد عليها نظام (البكالوريا) من خير أو شر، وكيف جرى كيد الفرنسيين لها مع وجود هذا النظام؟

حرصت المدارس جميعاً على أن تكون نسبة النجاح التي تحظى بها عالية لتحصل على التقدير المعنوي، وكان حرص المدارس غير الرسمية أشد لسبب ثان هو فوزها بالثقة بين الناس فيكثر الإقبال عليها، ويزداد تبعاً لذلك ربحها المادي. دب التنافس بين المدارس غير الرسمية فسعى كل منها للحصول على أقدر المدرسين في كل مادة، وراح المدرسون يوصون طلابهم بدراسة ما استطاعوا من المصادر في كل مادة، وأقبل الطلاب على ذلك بحماسة وشغف حتى ارتفع المستوى الأدبي في المدارس الرسمية عن المستوى الثانوي، وعُني الطلاب فيما يقدمون من موضوعات تدريبية، بسلامة لغتهم وسمة أساليبهم وألا يغفلوا في الموضوع مصدراً دون درس، وأذكر أننا، ونحن طلاب، كنا نلتهم مؤلفات طه حسن وأحمد أمين والزيات والرافعي والعقاد والمازني وهيكل، كما نتخاطف أعداد السياسة الأسبوعية، لئلا يفوتنا بحث في موضوع من الموضوعات الأدبية الداخلة في منهج الدراسة الثانوية وما أوسعها وأقواها حينئذ، وعاد ذلك كله على اللغة العربية تعليماً وانتشاراً بخير الفوائد، بحيث ساغ للأستاذ سليم الجندي أن يخشى على تلاميذه من بعض أخطاء رآها في كتابات المنفلوطي فنهاهم عن قراءته لأنها تفسد لغتهم، وساغ للمرحوم الأستاذ البزم إذ رأى كلمة مولدة في كتاب أو فعلاً عُدّي بغير حرفه قال: ((هذه لغة السوقة في الأزقة)).

واضطرت المدارس الأجنبية أيضاً إلى الاهتمام بتعليم لغة البلاد لأول مرة لأن اللغة العربية إحدى مواد (البكالوريا باللغة الفرنسية) أيضاً، فمن ثم دخلت المدارس الأجنبية على كره. وأصبح على طلاب هذه المدارس أن يشموا هذه الرائحة اضطراراً.

وكانت لجان الامتحان العربي أكثرها من الفئة التي تحدثت عنها فيما سبق ،فكان مستوى التقدير يلائم ما قدمت عنهم من قوة وغيرة وإخلاص ،فصارت العناية تشد سنة عن سنة في اللغة العربية وأدبها يعززها هذا الرسوب الذي يعود به الضعفاء فيها وخاصة من طلاب المدارس الأجنبية. وللخطوط الحمر على أوراق الامتحان تحت كل خطأ لغوي أو إملائي أو نحوي، وتحت كل ركة في التعبير وكل خلل في التركيب فضل أي فضل في الخطوات الفساح نحو الكمال في معظم المدارس غير الرسمية وفي جميع المدارس الرسمية.

تبرم بهذا كله المدارس الأجنبية وسلطة الانتداب معاً، فاستعانوا عليه بأن جعلوا في النظام الصفر وحده هو الذي يرسب صاحبه في الشهادة إذا حصل على نصف مجموع الدرجات متضامنة، وبذلك أمنت هذه المدارس الرسوب في اللغة العربية، لأنه مهما يشتد ضعف الطالب في تقديرهم فلا بد أن ينال علامة واحدة من عشرين إذا سوّد أربع صفحات طوالاً.
وأفادهم هذا النظام فترة، ثم رأى الغير من المصححين أن هذه الحجة خطابية فأجمعوا على أساس سليم هو أن من لا يحسن التعبير بلغة البلاد لا يصح أن يحمل شهادتها، فصاروا يضعون الصفر لكل ضعيف. وحين يعقد المجلس العام لإقرار النتائج وهو دائماً برياسة المستشار الفرنسي الفعلية، ومعه سوريون أعوان ممن جعلهم في وظائف كبار لم ترفع نفوسهم الصغيرة الدنيئة قط، كان المستشار يعرض قضايا هذه الأصفار وأغلبها ممن قدموا امتحاناتهم باللغة الفرنسية من طلاب المدارس الأجنبية وبعض المدارس الطائفية، فيأمر بانعقاد لجان اللغة العربية ثانية لإعادة النظر فيها عسى أن تستحق علامة واحدة، وحينئذ يعلن نجاح أصحابها، وكان المستشار قد احتاط لنفسه فجعل في هذه اللجان مع المدرسين الأصليين مدرسي المدارس الأجنبية والطائفية، وإن كان أكثرهم لا يرقى إلى مستوى الشهادة الابتدائية في اللغة العربية، فإن اشتد الخلاف أخذ الأمر بالتصويت وكثيراً ما يكونون الغالبية في اللجنة. وأذكر مرة من المرات أن طلب المستشار منا إعادة النظر في صفر من الأصفار حصل صاحبه في غير اللغة العربية على مجموع عال، فأجمعنا على عدم استحقاق صاحبه شيئاً، فاستثار المستشار عواطف الرحمة في المجلس العام فقرر إعادة القضية ثانية، واستبدال نصف العلامة أو بعها بالصفر، فاجتمعنا ثالثة وأصررنا على الصفر قائلين: إن الذي يكتب كلمة (أحادها) مكان (أحدها) لا يليق أن يحمل شهادة هذه البلاد، وكان هذا حاسماً لمحاولات المستشار وأعوانه.
هذا ما كان يجري علناً على رؤوس الأشهاد من محاولات السلطة الفرنسية لإضعاف أثر اللغة العربية والتهوين من شأنها في الامتحانات العامة والأخذ بناصر المدارس الأجنبية، وقد تكفلت به بطولة المدرسين المخلصين الغير.
لكن جريمة أخرى شرعتها هذه السلطة لحماية المدارس الأجنبية واللغة الفرنسية، لم نستطع حيالها – نحن المدرسين – تصرفاً ما، ذلك هو تسريب السلطة لأسئلة الامتحان إلى بعض هذه المدارس. ومتى تجرد المسؤول عن الشرف والأخلاق وجعل نفسه الخصم والحكم لم يعد للشرفاء معه حيلة.
كان المستشار يكلف من يكلف بوضع الأسئلة المتعددة، وجعل لنفسه حق الاختيار وحق تنظيم الامتحانات وطبع الأسئلة وإرسالها، وكل ما يتعلق بسرية الامتحانات، وارتاب مصححو مادة الأدب العربي سنة من السنين حين رأوا أجوبة متشابهة لا بأس بمادتها في الجملة، لكنها جميعاً محشوة بالأخطاء والركاكات، ثم انجلى ريبهم حين اهتدوا إلى السر، لكن لا سبيل إلى الإفصاح به، وكثر اللغط سنة عن سنة، حتى صار بعض موظفي المستشار يبيع السؤال بثمن باهظ، وعرف ذلك عنه؛ والظاهر أنه قام بعمله مرة دون علم المستشار، وافتضح الأمر فأقصاه عن مركزه عقوبة ظاهرة للناس، وبقي هو يظهر التصون والعفة. لم تقتصر هذه اللصوصية على امتحانات البكالوريا، بل صار مألوفاً لهذه السلطة في أكثر ما تعقد من مسابقات للتوظيف أو الإيفاد، ويكون الذي ترغب فيه – وهو من

موظفي استخباراتها غالباً – مسمى نجاحه قبل إجراء المسابقة فيعطى الأسئلة قبل الموعد، ثم يكون هو الفائز أخيراً.
فلما كثر موظفو السلطة في المدرسين وقف تقدم اللغة العربية في الصفوف التي بعهدتهم، ولم يعد لمستوى الامتحان أثره الأول لضعف هؤلاء من جهة ولمناصرتهم كل قضية تتعلق بالمدارس الأجنبية من جهة ثانية. إلا أن هذا التوقف لم ينقلب تقهقراً إذ كانوا في العهد الذي نتكلم عليه، وبقي تقدم اللغة مستمراً في غير هذا المجال الرسمي.
اقتعدت (مدرسة التجهيز والمعلمين) في عهد قوة اللغة العربية في الشام الذروة بين جميع مؤسسات العالم العربي، فلئن كانت أقوى ثانوية في الشرق من حيث المستوى التعليمي العام إنها كانت في رفع لواء اللغة العربية قرة الأعين ومنية المتمنى، ولقد علمت درجة التعليم العربي فيها من حيث التدريس ودقة الامتحان وعلو كعب الأساتذة الذين قل في العالم العربي أمثالهم حينذاك علماً وغيرة وكفاحاً في تأدية رسالتهم، فاعلم الآن أن للطلاب نشاطاً آخر غير هذا وغير ما حدثتك عنه من إسهامهم في النضال السياسي وخروجهم إلى المجتمعات محمسين مستفزين بأروع بيان عربي سليم لم يخل من أثر دائم في ذوق الجماهير، إنهم كانوا يؤلفون الندوات الأدبية والخطابية في شبه السر داخل المدرسة يستمعون فيها إلى إنتاج ذوي الملكات منهم في الأدب والشعر والخطابة. ولا أنسى – وكنت تلميذاً ليلياً فيها – أن عيني ألفت أن أجد على منضدة رفيقي محمد الجيرودي (نقيب المحامين فيما بعد) أمالي القالي وبعض أجزاء الأغاني وهو في السنة الثانية من تحصليه الثانوي، كما ألفت رؤية القاموس المحيط بأجزائه الأربعة أمام زكي المحاسني (الأديب الشاعر) ودواوين الشعر القديم أمام أنور العطاء وكتب الأدب واللغة مع عبد الغني الكرمي وعبد الكريم الكرمي وغيرهم إلى جانب كتبهم الدراسية الثانوية، وهم جميعاً في منتصف الدراسة الثانوية كما لا أنسى تكليف المعيد لعلي الطنطاوي بإلقاء القصائد الحماسية أيام الثورة السورية وإلى الآن أتمثل رنة صوته الحماسي وهو ينشدنا (في الصف التاسع) قصدية خير الدين الزركلي في ضرب الفرنسيين دمشق بالمدافع وقد أغلق المعيد النوافذ والباب احتياطاً وحذراً.
وأختم كلامي بخبر هو لما قدمت كالنتيجة المنتظرة، ويصور حال اللغة في أول عهد القوة خير تصوير، الحال الذي استمر حتى قبيل سنة ١٩٤٠، فقد تقدم إلى امتحان البكالوريا عام ١٩٢٧ أربعة شعراء من تلاميذ هذه المدرسة، ورأى الأستاذ اللغوي المتين سليم الجندي رحمه الله أن من العقوق لرسالة هذه المدرسة إغفال التنويه بهم فقد بلغوا في الشعر درجة ارتضاها الأستاذ، فأشار على رئيس المجمع العلمي بالاحتفال بنتائجهم، فلبى هذا بما عهد فيه من أريحية للتنشيط، ونحن ننقل خبر الحفلة كما ورد في مجلة المجمع العلمي العربي حينئذ، إذ هو الشاهد على ما ارتقى هذا المعهد باللغة العربية.
حفلة تنشيط في المجمع العلمي
((لما رأى المجمع حفلات التكريم تقام في طول البلاد وعرضها تنويهاً بأسماء أشخاص فضلاء نفعوا البلاد بعلمهم وآثار نبوغهم، رأى هو أيضاً أن يقيم حفلة مبتكرة في نوعها دعاها (حفلة تنشيط)؛ وذلك أن أربعة من طلاب المدرسة التجهيزية أظهروا في امتحان شهادة العالمية (البكالوريا) ذكاءً وتفوقاً، ولا سيما في الآداب العربية، وقرض الشعر

العربي، ومثل هؤلاء الشبان كانوا إذا نبغوا في عهد عرب الجاهلية دقت البشائر ـ وأقيمت المهرجانات فرحاً بهم، واستبشاراً بنبوغهم في الشعر، من حيث يذودون به عن حمى قبيلتهم، ويفحمون الذي يهجوها أو يعتدي عليها. كل ذلك حمل المجمع العملي على إقامة حفلة التكريم أو التنشيط لهؤلاء الأربعة فدعا لها الجم الغفير من أدباء الحاضرة وفضلائها.
فلما جاء الوقت المعين (الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الجمعة الواقع في ٤ تشرين الثاني ١٩٢٧) اكتظت ردهة المجتمع بالمدعوين، وفيهم سعادة مدير الجامعة السورية رضا بك سعيد، ومدير مكتب التجهيز، وأساتذته ورفاق الطلاب الأربعة من تلاميذ المكتب وطائفة كبيرة من شعراء الفيحاء وأدبائها. ولما استتم عقدهم نهض الأستاذ رئيس المجمع محمد كرد علي وأبان الغرض من هذه الحفلة وذكر ما روي عن (غلادستون) من أنه كان إذا رأى غلماناً يلعبون في الشارع رفع قبعته تحية لهم، وقال : ((إن هؤلاء الغلمان سيكونون رجال المستقبل، فهو يحيي فيهم الرجولة المندمجة في هذه الطفولة، وكذلك المجمع يكرم هؤلاء الشعراء الأربعة الذين سيكونون في المستقبل نوابغ تباهي بهم الشام غيرها من البلاد. وإن هذه الحفلة ستكون من أكبر المنشطات لهم للمضي في هذا الطريق طريق النبوغ والتفوق في الأدب العربي وخدمة هذا الوطن. ثم قدم الشبان المحتفل بهم للجمهور وهم السادة (زكي المحاسني ثم جميل سلطان، فأنور العطاء، فعبد الكريم الكرمي) وأعلن الرئيس أن كلاً منهم سيتلو على الحضور قصيدة من شعره تدل على مبلغه وتفوقه فيه))(١).
٣- دور النكسة : إقبال الناس على التعليم حمل على إحداث شعب في كل سنة من السنين في المدارس الموجودة، فلما تزايد الإقبال اضطر الحكومة إلى إنشاء ثانويات وإعداديات جديدة، وهذا يحوج إلى مدرسين جدد، واللجوء إلى تكليف اللامعين من العلماء والأدباء والشعراء كما جرى في السابق يعيق تنفيذ النية التخريبية للاحتلال، فما العمل؟
إن خمسة عشر عاماً مضت على ممارسة الاحتلال أطلعت العدو على ثغر المجتمع ونواحي الضعف فيه، وأكسبته خبرة في تمويه الباطل بصورة الحق، فنجح في البدء بعمله الهدام في بناء اللغة العربية على خطين : الأول : شاع عرف عند أنصاف المتعلمين، وعند كبار الموظفين الذين أتى بهم الاحتلال بعد الخبرة، وعند عدد غير قليل من النواب المستوزرين في العهود النيابية الفاسدة، هو أن مدرس الرياضيات أو مدرس الطبيعيات أو مدرس الموسيقا مثلاً لا بد أن يكون له ميلٌ إلى فنه واختصاص فيه، ولا يعيب المرء من المتعلمين ألا يكون له هذا الميل أو ذاك، لكن اللغة العربية وآدابها اختصاص كل من يقرأ الصحف ويكتب فيها أحياناً، فحين يحوّل المتنفذون في هذه العهود، أناساً من أتباعهم المستوظفين ممن خدموهم في الانتخابات أو (العراضات) وما إليها إلى وزارة المعارف لتعيينهم مدرسين، يعرض عليهم كبار الموظفين فيها اختصاصاً بعد اختصاص، فيعتذرون بعدم الميل إليه، حتى إذا وصلت نوبة العرض إلى اللغة العربي قبلوها. ووضع بعض الظرّاف قانوناً ينص على أن (تدريس اللغة العربية اختصاص من لا اختصاص له)، وصار رئيس التعليم الثانوي حين يكلف أو يريد هو توظيف من لا يحمل اختصاصاً ما سماه مدرساً موقتاً للغة العربية. أما المستشار الفرنسي الذي كان يراقب الصغيرة والكبيرة في تسمية المدرسين فلا يتساهل في شرط من الشروط لمدرس الرياضة أو الطبيعية أو

اللغة الفرنسية، فإذا وصل إليه قرار مدرس اللغة العربية الذي لا يتحقق فيه شيء من الشروط تعامى وأنفذ القرار استغلالاً للأوضاع الفاسدة، وتشجيعاً على إفساد التعليم العربي.
الثاني : إن الخطة السابقة خطة موقتة تلبي رغبات الإقطاعيين والمتنفذين وما إليهم من جهة، وترضي نيات الفرنسيين المبيتة نحو لغة البلاد من جهة، لكنها على كل حال ظاهرة الشذوذ والفوضى للعيان، فانصرف التفكير إلى تنظيم الإفساد بإسباغ الصفة القانونية عليه، وتثبيته ليعمل عمله المستمر في الأخذ بمخنق اللغة العربية ومن بقي من القائمين عليها بقوة وإخلاص، وإليك المخطط الذي نفذوه :
١- حصر إيفاد البعثات للتخصص في اللغة العربية بالجامعات الفرنسية طول عهد الاحتلال الفرنسي، وبذلك أعادوا إلى الأذهان خطة الأتراك حين كانوا يرسلون معلمي الصرف والنحو من الأتراك يعلمونها أولاد العرب بالتركية، وقد مر بكم إشارة إلى ذلك، ولا عجب فالاستعمار ملة واحدة تركياً كان أم فرنسياً.
٢- عد الحائزون على شهادات الجامعات الفرنسية في اللغة العربية أصلاء، ومن عداهم من قدماء الأساتذة الأقوياء موقتين [في بعض فترات القوة من الحكم الوطني أعطيت شهادة الجامعة المصرية حقوق الشهادات الفرنسية في التصنيف رسمياً، ولكن بقيت الرعاية الخاصة والتمييز سافراً حيناً وغير سافر حيناً آخر للأولين].
٣- يشرف المستشار الفرنسي على جميع مسابقات الإيفاد هذه، وهو مع ديوانه يفتح أوراق الامتحان بعد تصحيحها، وهو يعلن النتيجة وقد عرف الخاص والعام أن هذه المسابقات شكلية، وأن أسماء الناجحين مقررة عند المستشار قبل إجراء الامتحان [في بعض فترات القوة من الحكم الوطني كان يوفد بعض المختصين من المعلمين انتقاءً دون مسابقة وهم في الجملة أقوى ممن يجري لهم المستشار الفرنسي المسابقات الشكلية المزيفة بما لا يقاس].
وهذه خطة مضى الصلف الفرنسية في تنفيذها بوقاحة وشراسة على الرغم من ضحك الجميع وتنكيتهم، إذ كل جزء من أجزاء الخطة عكسه هو المسلَّم بصحته بداهة، فمتى كانت اللغة العربية تتلقى في غير بلادها على من لا يقيم لسانه الأعجمي بجملة ينطقها صحيحة كما ينطقها العرب أو يفهمها كما يفهمونها، وقد أوصى أحد أذناب المستشار الذين رباهم وصنعهم على يده رؤساء أعداء لكل ما يصلح التعليم، متفرنسين في إيذاء التعليم العربي والقائمين عليه بإخلاص أكثر من الفرنسيين، أوصى موفداً ليتخصص في الفلسفة جاء ليودعه بحضوري فقال له: ((لا تضيع وقتك بالحصول على شهادات عربية من فرنسة فتلاميذك في المدرسة الابتدائية أقوى في العربية ممن يعطون (الليسانسات) هناك))!! قالها ببراءة دون وعي منه، ولولا ذهوله ما قالها!
أنتج قلب المقاييس رأساً على عقب ما أراده الفرنسيون من نتائج، فقد رجع هؤلاء الضعفة بشهاداتهم وأعطوا أحسن المناصب والمراكز، وحورب ذوو الملكات القوية في عيشهم واطمئنانهم، وزاحمهم أولئك بالمناكب، وكثيراً ما كان الطلاب المساكين الذين يصحح هؤلاء أوراقهم أقوى منهم بكثير، واستهجن الناس هذا التصرف الذي أضفت عليه القوة الوقاح صفة المنطق والشرعية حتى ألفه العامة مع مر السنين، وافتقدنا من ثانوية دمشق وغيرها قوتها الأولى في العربية، وما القول فيمن تولى تدريس الأدب واللغة وهو لم يسمع بمعاجم العربية، ولم يمارس تذوق دواوينها، ثم لا يقيم لسانه بنطق صحيح، ولا يقرأ شعراً

على وجهه دون كسر أو لحن، فإذا ضبط الطلاب له النطق لم يفهم المعنى فإذا أفهموه إياه لم يتذوقه(١). فلما مضت سنوات صار عدد كبير من الأجيال لا يمر على الأساتذة من الرعيل الأول القوي بل يمر على هؤلاء من أول الدراسة إلى آخرها، فصار طبيعياً أن يتدنى التعليم العربي سنة بعد سنة. وكانت تنتشر في طبقات المتعلمين على هؤلاء الأساتذة الفضائح وتخبطات في الجهل المركب تضحك الثكلى. ولولا أن الله عجل بالجلاء لقضى الفرنسيون على التعليم العربي بخطتهم الخبيثة تلك في عشرين سنة، حين لا يبقى في التدريس من تلاميذ الرعيل الأول أحد.

وزاد الطين بلة هبوط مستوى التصحيح في الامتحانات العامة. فبعد أن كان الأساتذة الأولون لا يهملون خطأً من الإشارة إليه، وحسم الدرجات عليه، صار هؤلاء يخبطون في تقدير العلامات خبط عشواء، إذ لا يعرفون قبيلاً من دبير، ولا خطأ من صواب، وحين المناقشة في لجان الامتحان يستنكفون أن يتعلموا ممن يعلم، فإذا أرشدهم إلى إصلاح الخلل عارضوه بجهل، وصار التصويت الأعمى هو الحكم حين الخلاف دون نظر إلى قيمة المصوت من حيث المعرفة، فجعل الصواب خطأ والخطأ صواباً وضاعت المقاييس.

فلما كان الجلاء وانتظرت اللغة فرجاً على يد من أتى به الحكم الوطني ليصلح أمور المعارف ومناهجها وموازين امتحاناتها، أخطأ الخطيئات الكبرى النكراء في تأليف لجان المناهج ولجان الامتحان، وفي السرعة الحمقاء بتعديل أنظمة الشهادة الثانوية، وتبديل مستوى التصحيح في امتحاناتها، وحسبك أن تعلم أن ذلك كله انكشف عن حسم ١٠ درجات من مئة على الخطأ الفاحش في الشهادة الثانوية، وكان في عهد القوة يحسم عليه علامتان من عشر في الشهادة الابتدائية، أي إن من ارتكب خمسة أخطاء من قبل كان يعطى صفراً في الشهادة الابتدائية فلا يحصل عليها، ويحسم عليه الآن في الشهادة الثانوية خمسون علامة من مئة فيحصل عليها. وليس بعد دلالة الأرقام هذه بيان فيما آل إليه التعليم العربي من تدن.

ويجب أن تعلم أن خطط الفرنسيين الهدامة بقيت تستمر في عملها بعد جلائهم وحتى الآن، لأنهم – كما عرفت – عهدوا بالمناصب والمراكز إلى من خرجوهم وأخروا أهل الكفايات ما استطاعوا، فلما كثروا في الإدارات كتلهم ضعفهم وشعورهم بالنقص وجعلهم حلقة مصمتة، بل نفوا منهم من كان قوياً (وقد علمت أن هؤلاء تسربوا بطريق الانتقاء أيام الحكم الوطني) ولم يستحيوا أن يجعلوا من صبيانهم الأغرار رؤساء لأهل الكفايات والمكانات من علماء اللغة العربية الذين ضحكوا من هزل الدهر، ومضوا قدماً في تأدية رسالاتهم هازئين بالرياسات والوزارات.

ولو لم يتسرب إلى جهاز الإدارة والحكومة إلا الأكفياء من رجال الوطن علماً وإدارة وإخلاصاً لقضي على هذه النكسة في مهدها، لكن خمسة وعشرين عاماً مضت على الاحتلال أفسدت الأمور وجعلت الناس يألفون فسادها، أضف إلى ذلك أن الفرنسين لم يرحلوا إلا وخلاياهم الاستعمارية بيدها كثير من تصريف الأمور، ثم كان يتخلل الحكم بعد الجلاء فترات انقلابات يعود فيها النفوذ المعنوي لفرنسة، فتستمر تشير بواسطة سفاراتها ومؤسساتها من وراء حجاب بأسماء الوزراء والأمناء ورؤساء المصالح، حتى آمن المطلعون أنهم لم يفقدوا من الاحتلال إلا شخصه. وإلا فما معنى أن يعتزل الأكفياء الكرام

ويعبث في أجهزة التعليم العربي ولجانه ومؤسساته ومجامعه ومؤتمراته من لم يعرفهم أحد بموهبة، بل من شهد الصغير والكبير بأنهم لا يستطيعون قراءة جملة عربية واحدة في إذاعاتهم المنحطة، ثم لا يستحيون أن ينصبوا أنفسهم لأصول تدريس العربية أو أعضاء في مؤسسات عربية أقل شروطها إتقان علوم اللغة العربية وآدابها، ثم إنتاج وافر ذو قيمة. الحق أن الفرنسيين ما زالوا في بلادنا يُضحكون الجهل من العلم، والخيانة من الوطنية، والدناءة من الكرامة.

أسجل هذا للتاريخ، وأقرر في الوقت نفسه أن هذا التدني لا بد له من أجل، وأن فرصة ستتاح يوماً ما للمخلصين الغير من سدنة اللغة العربية وآدابها فيطهروا هذه الأجهزة والمؤسسات من جراثيم الفساد وسرطانات الاحتلال، وأنه لا بد من هذا التطهير. ولست أخاف على العربية، ففي بنيانها من عناصر القوة والخلود ما استعصى على كل تهديم، لكني أخاف أن تغفل الأقطار العربية التي منيت بالاحتلال عن أذنابه وخلاياه وجراثيمه التي تبقى بعده تفعل أفاعيلها، والناس يظنون أن الاحتلال زال. ولئن كان في الشام من المناعة الظاهرة والخفية ما يحمي عربيتها من الخطر، إن هذه المناعة في بقية الأقطار العربي أخشى أن تكون ضعيفة لا تقف لمناهضة الداء الخفي الذي حقن المستعمر دمها به، فلا يغترنّ عربي بالشام بركان العروبة الصامت، بل عليه أن يطهر أجهزته ومدارسه من كل من رضع شيئاً من أفاويق الاستعمار، ولو تشبث بأستار الكعبة، أو تظاهر بوداعة القديسيين أهل السلامة.

لقد شعرنا بالنكسة شعوراً قوياً، ولا نريد دليلاً زائداً على هذه الكتب أو المقالات أو الخطب المملوءة لحناً وخطأً وركة وجهلاً، فبعضها كان في أيدي الطلاب فترة طويلة فرض عليهم بقوة هذه الشهادات (في الأدب العربي من فرنسة) فجاءت ضحكة الثكلى وفضيحة الدهر(١). ومع أن الاحتلال كان إذا شعر بأن جهل أحد هؤلاء صار فضيحة وسخرية للطلاب أنقذه بنقله إلى مؤسسة فرنسية استخبارية تتستر بطابع العلم أو إلى عمل إداري مكافأة له على أن كان أصدق ثمرة للخطة التي رسموها بدقة وعناية.

هذا هو الداء قد عرفناه، ومعرفته أولى البشائر بالعافية، وعلينا بعد ذلك أن نعيد لمستوى اللغة العربية في الامتحانات والتدريس مقاييسه الأولى بحيث لا يحمل تلميذ شهادة الدراسة الابتدائية إلا بعد أن يعبر عما يريد بلغة سليمة، ويكتب بلغة سليمة لا خطأ فيها في الإملاء ولا لحن في العربية، ويمضي الرقي في اللغة قدماً حتى لا ينال الشهادة الثانوية إلا من تذوق آداب العربية وعلومها، وصار على أولى درجات العلماء فيها أو الأدباء أو الكتاب، كما كان الحال قبل ثلاثين سنة. ويكون القائمون على التدريس فالتفتيش فالتوجيه إلخ مطردين في الكفاية مع حال التلاميذ الذين وصفت.

فهل يتاح لي ولكم فيما نستقبل من أيام أن نرى الثانويات في الشام على الحال التي ترضي الغُير المخلصين، وتقر عيون اللغة بأبنائها البارين فترقى صعداً من حيث كانت قبل ثلاثين عاماً ؟ نرجو الله.

الفصل الثالث

عمل المجمع العلمي العربي في خدمة اللغة

بعد الكلام على اللغة العربية في المدارس الثانوية يتوقع الشروع في خدمات الجامعة السورية للغة العربية وحالها فيها، لكني آثرت تقديم الكلام على نشاط المجمع العلمي في خدمة اللغة لأن تنوع الميادين التي ولجها تجعله يشارك المدارس الثانوية في صفة العموم والسعة، دون الجامعة التي اقتصرت جهودها بطبيعة تخصصها على الميدان العلمي البحت، وهو ميدان لا يشمل أولاً إلا طبقة خاصة من الأفراد.
وأحب أن أنبه هنا على أن اسم المجمع العلمي العربي له عند الخاصة العارفين الواعين مفهومان، الأول ينطبق على الاسم تمام الانطباق إذا أريد بـ (العلم) علوم اللغة والثقافة الإسلامية في الأغلب، وتاريخه أبيض ناصع في الجملة، وهو الذي سنتكلم على خدماته المشكورة للغة العربية، ويبدأ من يوم تأسيسه سنة ١٩١٩ في العهد الفيصلي إلى يوم وقفه عن العمل لأسباب – قالوا: إنها مالية – سنة ١٩٣٣. ويمكن أن يلحق به مع تجوز فترة قصيرة صدرت فيها مجلته من ١٩٣٥/٥/١ إلى آخر سنة ١٩٣٧ وبقي أكثر أعضائه الكاثرة أمناء على رسالته حتى الآن.
أما المفهوم الثاني فيبدأ منذ قررت سلطة الاحتلال إعادته أيام حكومة المديرين في العهد العرفي، ونفذت قرارها أول عام ١٩٤١/١/١ بشروط ونيات أسرها لي رئيسه الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله، هذا المفهوم الثاني لا أعرض له البتة هنا لعدم علاقته بالموضوع، ولأنه أدخل في تأريخ دسائس الاحتلال الفرنسي(١). أما كثير من العامة فيظنون أن هذا المجمع هو ذاك الأول، وأن بقاء الكرام من أعضاءه القدامى وإن انقطع أكثرهم عن الحضور أو ضعفت مشاركتهم دليل على أنه هو هو.
وتنبيه ثان نرى من الحق بيانه، وهو أننا نتكلم على الخدمات العامة التي أسداها العارفون من أعضائه الأولين إلى اللغة العربية، دون تطرق إلى البحوث اللغوية الفنية التي حولتها مجلته، والتي لا تعني إلا أهل الاختصاص إذ لنا في بعضها رأي ليس هذا مجاله. وإنما مجالنا هنا ما قدم المجمع للجماهير من خير عام.
عرفت من تلميحنا إلى المجمع في محاضرة سابقة أنه أسهم كل الإسهام في مرحلة تأسيس الحكم العربي في الشام أيام الملك فيصل، وإن إسهامه تجلى في الميادين الآتية:
١- تزويد المصالح الحكومية بما تحتاج إليه من مصطلحات فنية وإدارية، فكانت هذه المصالح ترسل إلى المجمع قوائم تدرج فيها ما تستعمله من مصطلحات أجنبية تركية وغير تركية، فتبحث لجان المجمع عما يقابلها من العربي الصحيح، وتقر بعد الدراسة وتعاد إلى الجهة المرسلة، فيأمر المسؤولون بإحلالها محل الأولى، وتجري بها الأقلام في الدواوين الرسمية، ومن ثم يتلقفها الأفراد وتحيا في المجتمع. وقد أمد المجمع دوائر المعارف، والأوقاف، والشرطة، والمجلس البلدي، والصحة، والمصرف الزراعي...(١) إلخ بكل ما احتاجت إليه.
ومضى العمل على هذا دون اتصال، فكان المجمع يسأل في العام مرة أو مرتين وضع مصطلح ما للحياة العامة فيقترحه. حتى عهد بأمانة سره إلى العالم اللغوي الأستاذ عز الدين التنوخي فسرت الحياة في جهاز المجمع ونشر عدداً من المخطوطات القديمة ذات النفع اللغوي، ثم لفت إليه الأنظار بقوة، حين نزل بعدته إلى حياة الناس، وشرع يلبي حاجاتها، فوضع للدراجة (البسكليت) وللنساخة (الآلة الكاتبة) جميع ما تحتاجان من مصطلحات :

صور أجزاءهما ثم وضع اسماً سهلاً أليفاً لكل جزء يوحي بعمله ونشر ذلك على الناس دفعة واحدة، وروج مصطلحاته المدرسون في المدارس ومعلموا الضرب على النساخة. ثم حال دون استمرار النشاط إلغاء المجمع ثانية. ثم أعاده الفرنسيون على النحو الذي علمت، وليت السنوات العشرين (١٩٣٧ – ١٩٥٧) التي عاشها المجمع بعد ذلك انجلت عن بعض ما قدمه الأستاذ التنوخي في أشهره القلائل. وهذه كلمة يجب أن تقال لوجه الحق الذي حاولت عناصر الاحتلال طمسه، شأنها المعروف في مثل ذلك.

٢- لم يقتصر عمل المجمع المتقدم على الدوائر الرسمية، بل كان المجمع يلبي رغبات الأفراد والصحف والجمعيات غير الرسمية بكل ما تطلبه من مفردات فصيحة تقابل ما يستعمله الناس عامة وأرباب الصناعة خاصة في شؤونهم اليومية، وما يجد من حاجات الحياة كل يوم أو يرد من آلات حديثة وماعونٍ وما إلى ذلك.

٣- التزمت الحكومة العربية ألا تصدر قانوناً أو نظاماً إلا بعد تحويله إلى المجمع لتنظر لجانه في سلامة عربيته. واطرد ذلك بعد زوال الحكم العربي مدة قصيرة(١). ثم كان يتولى هذه المهمة الدائرة نفسها ذات العلاقة بالقانون، إذ توافر في كل دائرة موظفون يحسنون العربية نتيجة حتمية للنهضة الشاملة التي بذرت غراسها أيام الحكم العربي.

٤- كانت هذه المصالح وأرباب الصحف وبعض الأفراد تستفتى المجمع دائماً في صحة بعض المفردات والتراكيب الشائعة، فسرعان ما يعود إليهم الحكم عليها في الصحة أو البطلان أو الفصاحة أو الركة. وهذا دليل التجاوب بينه وبين الجمهور في الحرص على سلامة اللغة العربية.

٥- النظر في لغة الكتب المدرسية التي يقرأ فيها التلاميذ: التزمت الحكومة أول الأمر ألا يطبع كتاب حتى ينظر في لغته عالم بالعربية، وكثيراً ما يكون عضواً في المجمع، فإذا حكم بسلامتها سمح بطبعه واستمر العمل على ذلك مدة بعد الحكم العربي، ثم استغنى عن ذلك اعتماداً على ما أصبح لدى كثير من المدارس من متقنين للعربية يرجع إليهم فيها.

استمر المجمع على ما سبق بعد الحكم الفيصلي، وأضاف إليه الأمور الآتية:

٦- انبرى أفاضل بعضهم من أعضاء المجمع يتتبعون ما ينشر في الصحف والمجلات، فإذا وقعوا على لحن شائع أو تركيب ركيك أو تعبير غيره أعرب منه، جمعوا ذلك ثم نشروه على الناس مبيّنين موضع العيب فيه، ومشيرين بما يقوم مقامه من تعبير سليم.

بدأ المجمع العلمي ينشر هذه المسارد من الأغلاط وتصحيحاتها منذ سنة ١٩٢١م تحت عنوان (عثرات الأقلام)، في مقالات متتابعة تجد أولاها في المجلد الأول (ص١٧٣) وهو الذي صدر سنة ١٩٢١ ثم تتسلسل ثلاثين مقالة آخرها نشر في عدد (آذار ونيسان) من سنة ١٩٢٧. وقد كان نفع هذه التصحيحات عميماً. وتعاور بعضها النقاد.

ولم ينس المجمع أخطاء النطق الشائعة فانبرى لتصحيحها وألقى الشيخ عبد القادر المغربي محاضرة في (١٩٢٤/٢/١) بعنوان (عثرات الأفمام) ثم نشرت سنة ١٩٤٣ في المجلد الثامن عشر (٩٧) وألحق بها بعد ذلك عدداً من المقالات يضم ما تم له جمعه من أفواه العامة وأشباههم من خطأ النطق، وليس لمقالات (عثرات الأفمام) نفع تلك الأولى (عثرات الأقلام) ولا لها قيمتها، وسنعرض في ملحق النماذج طرفاً من هذه وتلك.

٧- بحوث جزئية للخاصة والمتعلمين في اللغة يحتاج إليها ذوو الاختصاص ولا يستغني عنها غيرهم من المثقفين عامة، سهر أصحابها ليالي طوالاً يسردون المعاجم المختلفة مستخرجين منها ما تمس الضرورة إلى استعماله حديثاً، وقد أحيوا بعملهم هذا مئات من الكلمات كانت غريبة أو ميتة فسالت على ألسنة المتعلمين وطردت مرادفاتها الأعجميات، من ذلك:

١- ((ألفاظ عربية لمعان زراعية)): للأمير مصطفى الشهابي، مقالات نشر أولاها سنة ١٩٢٢ في المجلد الخامس ص ٥٥٨ ثم مضت تتسلسل حلقات تسعاً نشرت آخرتهن سنة ١٩٣٠ في المجلد العاشر ص ٧٧٦.

وللأمير جولات كثيرة في هذا الميدان، فتجد له أيضاً بحثاً في (ألفاظ التصنيف في الفقاريات) نشر سنة ١٩٤٥ في المجلد العشرين (ص ٣٩٩ و ٤٨٨) كما تجد له سلسلة في (أسماء نباتات مشهورة) بدأت في المجلد (١٨/ ص٤٩) إلخ بحوثه ومسلسلاته المفيدة، ولا يكاد يخلو مجلد من مجلدات مجلة المجمع البالغة الآن (٣٦) من تتبعاته وتحقيقاته وهو منذ سنوات طوال يرفد اللغة الزراعية بثمرات جده حتى استوى له معجمه الثمين (معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية)(١) فأسدى إلى العربية وإلى علوم الزراعة أجل الخدمات، ولو كان لنا في كل ميدان من ميادين الاختصاصات في العلوم والفنون والصناعات مثل الأمير لكان بناء نهضتنا العلمية واللغوية شامخاً يناطح السحاب.

٢- رسالة الكرم للأستاذ سليم الجندي، رحمه الله، جمع فيها كل ما يخص الكرمة منذ تكون بذرة إلى تساقط أوراقها وما يصيبها من عناية زراعية وما يعتريها من أحوال وأزمان وذكر أسماء مواضعها... إلخ. فما يخطر بالبال مسمى لبعض ذلك إلا وجده مشروحاً في بابه. نشرها حلقات سبعاً في مجلة المجمع أولاها سنة ١٩٢٩ في المجلد التاسع (ص ٢٨٠) وأخراها في السنة التالية في المجلد العاشر ص (٧٦٢).

٣- رسالة الطرق للأستاذ الجندي أيضاً نشرت مسلسلة في تسع حلقات أولاها في المجلد الثامن عشر (ص ٤١١) سنة ١٩٤٣ وأخراها في المجلد العشرين (ص ٣٣١) سنة ١٩٤٥ جمع فيها الألفاظ المتعلقة بالطرق وأنواعها وتمهيدها وأحوالها، فأحيا مئات الألفاظ المحتاج إليها اليوم، إلا أنه رتبها على حروف المعجم فجاءت معجماً وافياً في الطرق.

وحسبنا أعمال الأساتذة الشهابي والجندي والتنوخي نماذج لما صدر عن المجمع في هذا الباب. وقبل الانتقال إلى ميدان آخر نعود القهقرى إلى ما نشرت مجلته في صيف سنة ١٩٢١ (٢٣٩/١) للأب الكرملي من توصيات في بعض بحوثه :

((أولاً: على كل عربي متفرنج ألا يقطع بعجز اللغة العربية أو ضعفها إن لم يكن له وقوف على أسرارها وألفاظها ودقائق معانيها ومبانيها.

ثانياً: يحسن به أن يستفتي أحد الأدباء أو يستشيره أو يبحث هو بنفسه عما ينشده من أمر ضالته.

ثالثاً: إن لم يفز بطائل فلينسب العجز إليه، أو إلى من أراد أن يغترف من بحار أفكارهم، ولا ينسب شيئاً إلى اللغة، فاللغة كنز مدفون أو كالمدفون فإذا كان لا يوجد من يدلك عليه فهذا لا ينفي وجوده)).

نعود القهقرى لنقول بعد أربعين عاماً من نشر هذه التوصيات : إن فريقاً من أعضاء المجمع أخذوا أنفسهم بها منذ نعومة أظفارهم فأفنوا الليالي الطوال بحثاً ودرساً بإخلاص حتى قدموا – على تواضع واستحياء – ما بلغه وسعهم من خير، مستصغرين ما يقدمون حين يقيسونه إلى تراث أسلافهم أو إلى سعة اللغة نفسها، إذ كانوا كلما أوغلوا في درسها ازدادوا علماً بقصدهم، وقد عرفت الشاهد على ذلك.
٨- تكتيل المعنيين باللغة وعلومها ونقدها في العالم العربي كله، بحيث صارت هذه المجلة لسان حراسها في العالم الإسلامي كله، بل أسهم في خدمتها بعض المستشرقين الأفاضل كالمرحوم (فريتز كرنكو) وعرف قراء المجلة ومتتبعو جلسات المجمع أسماء (محمد كرد علي وسعيد الكرمي، وسليم الجندي، وشفيق جبري، وعارف النكدي، ومصطفى الشهابي، وعز الدين التنوخي، وعبد القادر المبارك) كتلة الحماة المحافظين على سلامة العربية المنافحين دونها، الواقفين بالمرصاد حتى لبعض نزوات زملائهم من المتسامحين.
يتجلى هذا التكتيل في الاستدراكات والردود التي ترد من أنحاء مختلفة على ما يعرض في مجلة المجمع من بحوث أو استفتاء أو إفتاء في قضية من قضايا العلم، أو حكم من أحكام اللغة، أو تخطيء لكلمة أو تركيب ونمثل لذلك بأمور ثلاثة:
الأمر الأول: بدأ أعضاء المجمع تحت إلحاح الضرورة يتذاكرون في التعريب قديماً وكيف ينبغي أن يكون اليوم وإلى أي مدى؟ فينشر الشيخ سعيد الكرمي من فلسطين في هذا الموضوع بحثاً بعنوان (اللغة والدخيل فيها)، (١٢٩/١) ويثنى الأب أنستاس الكرملي من العراق بـ (درس المعربات) (١٣٨/١). لكن حرص المجمع على نقاء اللغة وإبعاد المعرب ما أمكن جعله يتطوع بنشر كل رأي موافق في مجلته، فيقتنص مثلاً من جريدة العراق فقرة تدعو إلى إبعاد الدخيل بتوقيع (معرق) جاء فيها: يتحتم على كل عربي قح أن يدفع بجميع ما (لديه) من الوسائل ما يدنس ثوب لغته، ولا يقبل اتخاذ حرف دخيل فيها، لأن هذا الفعل يمكن في قلبه حب وطنه وقوميته وعنصره الذي غبر القرون الطوال ولم يصبه أذى، ولأنه حافظ عليه محافظته على حياته إلخ))(١).
وأمثلة هذا التجاوب على الهدف السليم كثيرة.
الأمر الثاني: الردود والاستدراكات، وهذه تكون هادئة حين تتعلق بسهو في قضية علمية لا مساس لها بعاطفة ما، ولا بحفاظ على لغة أو دين أو تاريخ، وعنيفة حين تمس شيئاً من هذه المقدسات، ويزيدها ضراماً في بعض الأحيان تهجم على المردود عليه أو انتصاراً هذا للنفس، ولا أمثل للأولى لكثرتها، وإليك شواهد ثلاثة أيضاً على الثانية، بادرت إلى الذهن لعلاقتي بها:
الشاهد الأول في موضوع النحت : نشر الخور أسقف مارون غصن مقالاً بعنوان (النحت في اللغة العربية) في مجلة المجمع (مجلد ١٣٠ ص٣٠٠) دعا فيه إلى أن نقول (أربيدات، وأبربرجلات وذوثدات، ونفسلوجيا) بدلاً من (ذوات الأيدي الأربع، وذوات الأرجل الأربع، والثدييات، وعلم النفس) فيرد عليه الأستاذ سليم الجندي في عدد تال (٣٥٨/١٣) يستنكر هذه الجريمة، ويقسم بالله لو سمع قائلاً بهذا قبل اليوم ما شك ((في أنه ساخر يهزأ أو محموم يهذي)) ويقطع بأن اقتراح الخور أسقف أسرع وسيلة لعدم اللغة من أساسها، فيرد عليه الخور في (ص ٤٥٨) من السنة نفسها. ثم يأتي سعيد الأفغاني فينشر (كلمة

الحياد) بين المتناظرين في موضوع النحت هذا في (١٤/١٤٧). إلا أن مارون غصن يعود إلى طرق الموضوع ص (٢٧٧) من المجلد نفسه.
الشاهد الثاني في قضية تاريخية: ألقى الأستاذ أحمد رضا في مهرجان المتنبي كلمة في (روح الطموح عند المتنبي) نشرت في المجلة (١٤/٣٦٧) ذهب فيها إلى أن الفرق بين سيف الدولة وكافور ((كالفرق بين الدرة والبعرة)) فيغضب سعيد الأفغاني لقلب الحقائق وينشر كلمة في عدد لاحق (١٥/٧٨) عن ((كافور وسيف الدولة في نظر الحق والتاريخ)) يثبت فيها العكس، ثم يعقب عليه أحمد رضا في المجلة نفسها بعد أشهر (١٥/٢٢٥) يجادل منتصراً لصاحبه لأنه من أهل البيت.. إلخ.
الشاهد الثالث هل يقال (كريات بيضاء): كان الأستاذ اللغوي أمين ظاهر خير الله نشر في مجلة المقتطف فتوى بجواز قولهم (كريات بيضاء)، فنشر الأب أنستاس الكرملي في مجلة المجمع العلمي (١٣/٤٢١) مقالاً عنوانه (لا تقل كريات بيضاء)، ثم تنشر المجلة (١٥/١٥٥) للأستاذ الأول مقالاً عنوانه ((قل: كريات بيضاء)) يستشهد على رأيه بشواهد ونقول لغوية ويخطئ الكرملي تخطئته. كان هذا سنة ١٩٣٧، لكن الكرملي يعود إلى فتح هذا الباب بعد خمس سنوات فيمنع هذا الاستعمال في مجلة المجمع (١٧/٢٣٢)، فينبري له الأستاذ أمين ظاهر خير الله ببحث مستفيض قوي نشرته المجلة في السنة نفسها (١٧/٤٧٣) بعد أن ألف في الموضوع رسالتين: (المحجة البيضاء في صحة نعت الجموع بفعلاء) والجزء الثاني من (البرهان الجلي على علم الكرملي!).
ثم تزين للشيخ عبد القادر المغربي نفسه أن يحكم في هذه القضية فينشر مقالاً في السنة نفسها بعنوان (مشكلة طال عهدها)، (١٧/٥٥٢) فتبدو مقاتله ويجانبه التوفيق إذ لم يحسن درسها فيتعقبه أمين ظاهر خير الله برد موجز حاسم ينشره في جزء كانون الثاني وشباط سنة ١٩٤٣ (١٨/٨٨).
بقيت هذه المسألة بين أخذ ورد على صفحات هذه المجلة عشر سنين كوامل.
والأمر الثالث: استغلال المجمع هذا التكتيل حين تعصف بحياته العواصف، فقد خطر لذهن المسؤولين غير مرة، الاستغناء عنه أو عن بعض مرتباته اقتصاداً في النفقات، فكان يلجأ حفاظاً على بقائه إلى أساليب تلفت النظر وتستدر العاطفة حيناً، فمن الأول ما طلع به الشيخ المغربي على الناس يستفتيهم في مشاكل – زعم – لغوية وما هي بها، فقد حلا له أن ينزل بالمجمع من مقام المفتي إلى مقام المستفتي حين أنزل إلى السوق مشغلة (الكلمات غير القاموسية) وطلب من كل ذي رأي رأيه، وبذلك تردد اسمه واسم المجمع في الجرائد والمجلات، وخيل للقوم أن هناك شيئاً، وطفق ينشر ما يرد له من أجوبة في مجلة المجمع منذ طرح الاستفتاء في جزء كانون الثاني وشباط ١٩٢٨ (٨/٣٩) حتى عرض تلخيص الأجوبة سنة ١٩٣٢ في جزء أيلول تشرين الأول (١٢/٥٢١) فلم يكن فيها حكم جديد عند المختصين، وسنعود إلى بعض البسط في ملحق المحاضرة، ويعنينا هنا التمثيل لحيلة المجمع البارعة في لفت الأنظار إلى أن في البلاد جمهرة تعنى بما يعنى به المجمع وتعترف بوجوده الحيوي.
٩- أوسع الميادين المتقدمة هذا الميدان : إذ يغشاه الناس على مختلف طبقاتهم يتزودون ثقافة وأدباً، عنينا به ميدان المحاضرات العامة التي أقبلت الجماهير عليها والطلاب منهم

خاصة، يروون ظمأهم إلى اللغة وآدابها والعلوم وفنونها، تعرض عليهم في كل ذلك في أسلوب سهل يفهمه كل أحد، وبذلك عملت على نشر الثقافة نشراً واسعاً غير مقيد، وكان تنوع موضوعاتها مغرياً بمتابعتها، فمن موضوع تاريخي إلى بحث أدبي إلى ترجمة شاعر إلى بحوث حقوقية أو صحية أو صناعية أو جغرافية أو اجتماعية... إلخ يعهد في تحضير هذه الموضوعات إلى المختصين من أعضاء المجمع وغيرهم. وقد ألقى في قاعة محاضراته ما قارب (٤٠٠) محاضرة (ما بين ١٩٢١/٤/١٧، ١٩٤٦/٤/١٢)(١).
هذا عدا مهرجانين نظمها المجمع واشترك فيهما رجالات العلم والأدب في العالم الشرقي والغربي: مهرجان المتنبي (لمرور ألف عام على وفاته) في ٢٣-٢٩/ ٧/ ١٩٣٦، والمهرجان الألفي للمعري في ١٩٤٤/٩/٢٥، وحفلات تأبين يقيمها المجمع لوفاة كبار الأعلام في العربية كالشيخ طاهر الجزائري (سورية) وأحمد كمال المصري العالم الأثري (مصر) ومحمود شكري الألوسي (العراق) والمنفلوطي (مصر) وشوقي وحافظ ورشيد رضا فيشترك في التأبين أدباء وشعراء من جميع الأقطار.
١٠- آخر هذه الميادين ميدان (النقد) فقد كان طيب الأثر في عهد المجمع الأول (المنتهي سنة ١٩٣٧) وكانت الخطة أن يعهد إلى مختص من أعضاء المجمع أو غيره بدراسة كل كتاب يرد إلى المجمع، ونشر تقرير عنه في المجلة، ويعنى بالموضوع والأسلوب والحسنات والمآخذ، فكان كثير من الناس يتعلمون تصحيح اللغة من هذه التقارير التي تنشر عن الكتاب، ويطمئنون إلى العرض والتقدير، وكان أكثر الكتاب مخلصين في عملهم للحق، فأكسبوا المجلة ثقة في قلوب المتعلمين والعلماء، وكان المؤلفون أول المستفيدين مما يكتب عن مؤلفاتهم لما يحوي من توجيه وتسديد وإصلاح وتبصير، وليت الأمر اطرد على هذا، ولم يصبح تقاريظ رخيصة ومجاملات غثة منذ سنة ١٩٤٥ لأيلولة الأمر إلى غير أهله(١). ولم يبق على الخطة السليمة إلا بعض قدماء الأعضاء (أعضاء المجمع الأول).

* * *

بما تقدم ندرك أن المجمع العربي على إبلائه أحسن البلاء في إنماء اللغة العربية في الحيز الخاص لم يهمل رعايتها وإحيائها في صفوف الشعب عامة بمحاضراته وحفلاته. لقد كان مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية أحياناً، تقبل كل راغب من كل الطبقات، خيرها مشاع دون قيد ولا شرط. وقد قيض الله لهذه المدرسة معلمين أحسنوا خدمة رسالتهم نحواً من عشرين عاماً في أحوال غير مواتية وزمان صعب وعدو متربص، فكان لهم من إيمانهم بلغتهم وثقافتها خير حافز على المضي في الطريق، وانتفع بهم أجيال. رحمه الله من قضى منهم، وأمتع بالقليل الباقي الذي أصبح غريباً ينشد:
ما كنت أوثر أن يمتدَّ بي زمني.

ملحق

وثائق ونصوص

عثرات الأقلام(١)

ثلاثون مقالة متسلسلات نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي على سبع سنين من ١٩٢١ إلى ١٩٢٧ تصحح الأخطاء الشائعة على الأقلام في الصحف والمجلات وغيرها بعد مناقشتها في جلسات المجمع. نجتزئ بذكر مقدمتها وطرف من أول مقالة، ونوصي

بقراءتها كاملة إذ تقفنا على مستوى الكتاب في اللغة العربية من ناحية، ومستوى الذين تصدوا للتصحيح من ناحية، وهما معاً يصوران حال اللغة في تلك الأيام.
المقدمة
((وقد رأى المجمع العلمي العربي أن ينشر في مجلته وفي الصحف المحلية من وقت إلى آخر تحت عنوان (عثرات الأقلام) نبذة لا تتجاوز العمودين في نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه. وسنجتهد في الاقتصار على ما نظنه خطأ من القول مما لا يحتاج إلى الرد والمناقشة تفادياً من الخروج عن صدد ما أخذنا فيه من إصلاح الهفوات إلى المجادلات والمناقشات التي طالما كانت سبباً في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة ندع التصريح باسم الكاتب الذي نؤاخذه، والصحيفة التي كتب فيها مكتفين بنقد القول، متبرئين إلى الله من الحول والطول.
فعسى أن يقع عملنا هذا من أهل الفضل موقع الرضا والقبول فيتدبروا ملاحظاتنا هذه، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم أو دارت على أسلات أقلامهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله سوى خدمة وطننا العربي، ونشر لغته الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها والله الموفق والمعين)).
فمن عثرات الأقلام:
١- قولهم: (عدم اعتياد الموظفين على كذا) صوابه: (عدم اعتياد الموظفين كذا) من دون حرف الجر، قال القاموس (تعوده واعتاده: جعله عادته، وعوده إياه : جعله يعتاده).
٢- وقولهم: (أجمعت الصحف على حياد إنكلترا وعدم مداخلتها مع اليونان) ؛ إذا لم يكن بد من استعمال فعل (المداخلة) فالأصح أن يقال (وعدم مداخلتها في أمور اليونان) كذا يفهم من صحاح الجوهري.
٣- وقولهم: (تأكد القوم أن السياسة الإنكليزية ترمي إلى كذا). فعل (تأكد) لازم لا مفعول له، قال في لسان العرب: (تأكد الأمر وتوكد بمعنى واحد).
٤- وقولهم: (فلبثوا هناك برهة من الزمن) يعنون وقتاً قصيراً مع أن (البرهة) هي الوقت الطويل، قال في الصحاح: (بره: أتت عليه برهة من الدهر، أي: مدة طويلة من الزمن). وأما الهنيهة فهي الوقت القصير.
٥- وقولهم: (يواصلون السعي بهمة لا تعرف الكلل) صوابه (الكلال)، قال في الصحاح: (كللت من الشيء أكل كلالاً وكلالة: أعييت).
٦- وقولهم: (وصل البلد عصاري يوم الجمعة) صوابه (عصر يوم الجمعة) لأن كلمة (عصاري) لا أثر لها فيما بين أيدينا من كتب اللغة.
٧- وقولهم: (إن المندوب السامي يخابر اليوم حكومته) فعل المخابرة غير مذكور في كتب اللغة بهذا المعنى، فالصواب أن يقال : (يذاكر) أو (يراسل) أو (يكاتب).
٨- وقولهم: (استفسروا من بعضهم بعضاً) و (ينظرون إلى بعضهم البعض) وصوابه: (استفسر بعضهم بعضاً) و (ينظر بعضهم إلى بعض). وهو خطأ فاش فلينتبه إليه.
٩- وقولهم : (فضربه ما ينوف عن خمسين عصاً) صوابه: (ما ينيف على خمسين) أي: يزيد عليها، فإن هذا الفعل (ناف) إن كان بمعنى الزيادة لا يستعمل إلا رباعياً مع حرف الجر (على) لا (عن).

١٠- وقولهم: (إن ما تطالب به ألمانية قد لا تكره عليه) صوابه (لا تكره) أي من دون (قد) لأن (قد) لا تدخل إلا على الفعل المثبت.
١١- وقولهم : (فلان كفؤ لوظيفة كذا) و (فلان من الأكفاء لكذا) وصوابه: (فلان كفيّ) و (هو من الأكفياء) أي ذو كفاية ومقدرة على العمل، أما (الكفء) بالهمزة فهو بمعنى المثل، واستعماله بمعنى (الكفيّ) بالياء خطأ ينبغي اليقظة له.
١٢- وقولهم: (وعدا عن ذلك فإن الأمر كيت وكيت) صوابه (وعدا ذلك) و (ما عدا ذلك) بإسقاط حرف الجر (عن).
١٣- وقولهم: (فلان لا يهتم لهذا الأمر قط) صوابه (أبداً) أو (عوض) إذ هما لتأكيد الاستقبال، أما (قط) فلتأكيد الماضي يقال: (ما اهتم لهذا الأمر قط)... إلخ.
انتهى من جزء (أيار وحزيران سنة ١٩٢١) المجلد ١٧٣/١.
عثرات الأقلام (٣٠)
نشرت في عدد نيسان ١٩٢٧ في المجلد ١٧٢/٧
١- ((ومن عثراتها قولهم: (لا نريد أن نشور عليكم في هذه المسألة) صوابه (نشير) من أشار ولم يرد (شار عليه) ثلاثياً بهذا المعنى.
٢- ومنها قولهم: (فكتمت عنهم ما كان يجوش في خاطري) صوابه (يجيش) من جاش جيشاناً، وهو لم يرد بهذا المعنى إلا يائياً.
٣- ومنها قولهم: (سافر إلى باريز وعهد إلى فلان زمام الأعمال) صوابه: (عهد إليه في زمام الأعمال)، على أن كلمة (الزمام) لا تتناسب هنا فالأصح حذفها ويقال: (عهد إليه في أعماله) أو يقال: (سلمه زمام عمله) أو (ألقى إليه بزمام أعماله).
٤- ومنها قولهم: (أولاده يتناغون جوعاً) لا يوجد (تناغى) بهذا المعنى، وإنما هو (يتضاغون) جوعاً أو (يتضورون جوعاً).
٥- ومنها قولهم: (وله خط دقيق الحرف بالكاد لا تقرؤه) وبعضهم يقول: (بالكاد تقرؤه) من دون حرف النفي، وكلاهما خطأ: إذ المراد من الجملة أن قراءة الخط صعبة لا تسهل على الإنسان إلا بعد تعب وجهد. فإذا كان معنى (كاد) القرب كان فعلاً ماضياً ولا يصح إدخال لام التعريف عليه، وإن كان معناها التعب والإلحاح وجب أن يقال: (بالكد) بتشديد الدال كما يقولون أحياناً. ومهما يكن فإن الجملة غير صحيحة التركيب، والصواب أن يقال مكانها (خطه دقيق لا يكاد يقرأ) أو (لا تكاد تقرؤه) أو (لا يتبينه الطرف) أو (قلما تتيسر قراءته) أو (لا يقرأ بسهولة) أو (يقرأ بالكد والتعب) أو غير ذلك)).
عثرات الأفمام
محاضرة نسجها الشيخ عبد القادر المغربي على غرار (عثرات الأقلام) وألقاها في شباط سنة ١٩٢٤ ثم نشرها بعد (١٩) سنة في المجلة (٩٧/١٨) نجتزئ منها ما يلي:
الألفاظ التي تعثر بها الأفمام كثيرة، وهي تختلف باختلاف الحركة والسكون والتخفيف والتشديد، فالكلمة يكون أولها مفتوحاً في فصيح اللغة فيضمه الناس أو يكسرونه خطأ، أو يكون أولها مضموماً فيفتحونه أو يكسرونه، أو مكسوراً فيضمونه أو يفتحونه، أو يكون وسطه متحركاً فيسكنونه، أو ساكناً فيحركونه، أو مشدداً فيخففونه، أو مخففاً فيشددونه. كل

ذلك يفعلونه على خلاف الفصيح المعروف لدى أهل اللسان. فأقسام الكلمات التي تعثر بها الأفمام إذن عشرة... إلخ.
القسم الأول: ما كان أوله مفتوحاً فتعثر به الأفمام وتضمه:
بَحيرا – الراهب بفتح أوله وليس ثانيه وهم يقولون: بحيرا على هيأة التصغير.
بَكرة – يقولون: (جاؤوا على بكرة أبيهم) بضم الباء، وصوابه (بكرة) بفتحها.
ثَقب – في الحائط صوابه فتح أوله، وهم يقولون: (ثقب) بالضم.
جَراءة – مصدر جرؤ بفتح أوله، والناس يقولون: (جراءة) بضم الجيم.. [أين؟].
جَوعان – بفتح أوله على وزن سكران، والناس يضمون جيمه ويقولون: [جوعان].
حَزيران – بفتح أوله وكسر ثانيه، وهم يقولون: (حزيران) بضم أوله وفتح ثانيه على هيأة التصغير.
حَنجرة – الحلقوم بفتح الحاء والجيم، والناس يضمون ويقولون: (حنجرة).
حوران – بفتح الحاء، والناس يقولون (حوران) بضمها.
أبو العَلاء المعري - بفتح العين، وهم يضمونها، بل يضمون ميم (المعري) أحياناً [أين؟].
الغني – الشيخ عبد الغنى بفتح الغين، والناس يقولون: (عبد الغني) بضمها [أين؟]..... إلخ)).
إلى آخر ما درج في هذا القسم، وهو يؤيد ما قلنا سابقاً من أن بعضهم نزل بالمجمع إلى مستوى التعليم الابتدائي، وأكثر هذه التصحيحات مما يعانيه المعلمون الابتدائيون أول تعليم الصبيان مبادئ القراءة، وإن كنت لم أسمع قط عامياً ولا خاصياً يقول (عبد الغنى) بضم الغين، فلعل الشيخ سمعه في طرابلس من منحرف اللسان.
مصطلحات طلبتها من المجمع مديرية الشرطة
أقر المجمع في جلسته في ٢٢/١/٢٥ بعد المذاكرة المصطلحات التالية للمسميات بين قوسين :
الطراز: (النيشان) شارة الرتب.
وشاح: (قوردون) يعلق على الكتف من تحت الإبط
منكبية: (إيلبوليت) ما على الكتف من الكسوة العسكرية
كمة: (قالباق)
ران: (كه تر) لفافة جلد للرجلين
سوقاء: (جزمة)
موق، أو خف: (بوتين)
حذاء: (كندرة)
مكعب: (كندرة)
فروج: (سترة) قباء فيه شق من خلف
محزقة: (بنطلون)
سراويل ضيقة: (بنطلون)
رداء: (جاكيت)
برنس: (كبوت برأس)

دثار: (كبوت بلا رأس)
مهمز: (مهموز) حديدة في مؤخرة خف الرائض
معطف: (بله رين)
جامعة: (كلبشه) سوار حديد في أيدي المسجونين
نكل، كبل: (بارمق بند) آلة تربط إبهام المسجونين
إضبارة: (دوسيه)
هاتف: (تلفون)
محرس: (قولا أدكه ريت) كوخ خشبي صغير للخفير
مفرق: (سنترال تلفون)
واصلة، إصبع: (نيس) أداة معدانية في التلفون كالإصبع تصل بين سلكين
إبزيم: (طوفه) حلقة معدنية تربط طرفي الزنار الجلدي
محارة: (ميكروفون التليفون) لشبهها بمحارة الأدلة
جلجل: (زيل) جرس التلفون
روسم: (كليشه)

ألفاظ عربية لمعان زراعية

تمكُّنٌ في علم الزراعة، واختصاص فيه من فرنسة، وخبرة في زراعة الشام ومصطلحات فلاحيها وطرقهم في زراعتهم، وطول مدارسة للمعاجم العربية وكتب الفلاحة عند العرب، ومعرفة بالمصطلحات الزراعية بالفرنسية واللاتينية، وهيام بإحياء فصح العربية ونشرها، ودؤوب على العلم امتد عشرات السنين وما زال.. كل أولئك عمل عمله في إنتاج الأمير مصطفى الشهابي الذي نقدم نماذج صغيرة منه:

مطلع أولى مقالاته المتسلسلة بهذا العنوان قبل ٣٦ سنة نشر آخر عام ١٩٢٥ في المجلد ٥٥٨/٥ ((رغب إلي بعض خريجي المدارس الزراعية أن أستخرج لهم من المعاجم العربية أو من كتب السلف الفنية ألفاظاً زراعية صحيحة يمكن الرجوع إليها إما في ترجمة ألفاظ أعجمية وإما في الدلالة على معان لكلمات زراعية، فنزلت عند رغبتهم واستخلصت إلى اليوم بضع مئات(١) من كلمات لا تخرج في معناها عن أغراض الفنون الزراعية، وعقدت النية متى تمت على صوغها رسالة مرتبة على حروف المعجم. غير أنه لما كان إتمامها متوقفاً على مرور زمن لا أعرف مقداره لاح لي أن أنشر بعضها في مجلة المجمع العلمي الموقر بدمشق الشام:

إذا طال الزرع واستأسد من فرط العناصر الغذائية في التراب، لاسيما (النتروجين) منها يقول فلاحو بلادنا إنه (هاف) ويقول الفرنسيون: (ila verse)، واستعمل المصريون كلمة (ترقيد) لمصدر هذا الفعل، وأخذتها عنهم في كتابي (الزراعة العلمية الحديثة)، والصحيح هو أن نستعمل كلمة (قصف الزرع قصفاً) إذ جاء في كتب اللغة أن معناه: طال حتى انحنى من طوله. ودواء الزرع الذي يستأسد أي يطول على هذا الشكل قطع رؤوسه، وهو بالفرنسية (ssimage) وبالعربية: (شرنف الزرع وشريفه) أي قطع شرفانه وهو ورقه إذا طال وصار مضراً به.

ويعرف بستانيو الشام أن من الأشجار ما يبكر بحمله وآخر يتأخر فيسمون الأول (بكيرى) والثاني (لقيس) وبالفرنسية (Hatif) و (Tardif) ؛ فالعرب سموا الأول الشجر أو الثمر أو الزرع (المبكار) والثاني (المئخار) جمعه مآخير.
ويطلق بساتنة الغوطتين كلمة (عدان) على حظ بقولهم أو أشجارهم من الشرب، وهو بالعربية (السقى والقلد) بكسر السين والقاف في اللفظتين، يقال: (كم سقي أرضك؟ وهل استوفت أرضك قِلْدها من الماء؟) و (القَلْد) بفتح القاف مصدر (تقالدوا الماء) أي تنابوه، يقال (كيف قلد شجركم؟) فيقال: (يشرب في كل عَشْر مرة).
* * * *
آخر فقرة من المقالة التاسعة المنشورة في المجلد (٧٦٦/١٠) الصادر في كانون الأول سنة ١٩٣٠.
((وفي شمالي الشام صنف من الضأن يسمونه (العوسي والعواسي) وهو أكثر الأصناف انتشاراً، ويظهر أنه قديم، فقد ورد في الأمهات أن (العوس) ضرب من الغنم وأنها الكباش البيض، وأن الكبش العوسي منسوب إليها.
وأشهر عروق الضأن في العالم الصنف المسمى (Merinos) وشهرته منبعثة عن جودة صوفه وغزارته، وهو يغطي حتى جبين النعجة وخديها ويبلغ رأس منخرها أحياناً. والصوفة متينة مرنة جداً وربما دقت فلم يزد ثخنها على (١٠-١٥/١٠٠) من المليمتر.
والذي يهمنا ذكره مما يكاد يكون مجهولاً لا يعرفه إلا نفر قليلون من علماء الدواجن، أن هذا العرق من الضأن ينسب إلى بني مرين المغاربة المشهورين. ذلك أنه عرق المغرب الأصلي، جودة العرب بعد نقله إلى الأندلس منذ سطعت أنوار مدينتهم فيها، واستعملوا صوفه في صناعة المنسوجات الصوفية الدقيقة التي استفاضت شهرتها في أنحاء أوروبة وإفريقية والشرق العربي، ثم احتفظ به الإسبانيون بعد العرب فسموه (مرينوس) نسبة إلى بني مرين. وهو اليوم أكثر عروق الضأن انتشاراً، ولا تكاد دولة من الدول المهمة تخلو منه، وهو يعد بالملايين في كل منها. ومن صوفه تصنع نسج الجوخ الدقيقة الحوك)).
رسالة الكرم
لسليم الجندي
بدئ بنشرها متسلسلة من سنة ١٩٢٩ في المجلد التاسع وتمت في المجلد العاشر فقرات من التمهيد ونماذج من المصطلحات.
« سألني بعض الأدباء في دمشق عما يرادف كلمة (يبرق) (١). من العربي الفصيح وكنت لا أعرف لها مرادفاً. فرغبت إليه أن يمهلني في الجواب حيناً من الدهر ثم طفقت أتصفح كتاب القاموس المحيط للفيروزأبدي حتى ظفرت بضالتي التي أنشدها وأعلمت السائل بها.
وقد عثرت خلال البحث عنها على كلمات فصيحة تتعلق بالكرم يتداول الناس غيرها من عامي وبخيل، فارتاحت نفسي إلى متابعة البحث والإستقرار وتدوين ما يقع إلي في هذا النوع في رسالة مستقلة تقلب على الباحث كل قصي وتذلل وكل أبي... فاطلعت على نسخة من (البلغة في شذور اللغة)، [وفيها كتاب النخل والكرم المنسوب إلى الأصمعي] فألفيّها غزيرة المادة لكنها مشتتة المباحث خالية من الترتيب الذي يقرب الوقوف على مسائلها..

فعارضتها بما جمعته واصطفيت منها ما لم أعثر عليه من قبل، ثم استصفيت ما في المخصص لابن سيده وأضفت ذلك كله إلى الرسالة حتى اشتملت على كثير من المباحث الطريفة والأسماء النادرة، وأفردت لكل نوع من أجزاء الكرم مبحثاً مستقلاً أثبت فيه كل ما وقع لي من الأقسام والأسماء والأوصاف التي تتعلق به وتلائمه.. إلى غير ذلك مما يجده الباحث في غيرها من الكتب المطولة والأصول العظيمة... ولم آل جهداً في التمحيص والتحقيق في المسائل التي نقلتها والأصول التي أخذت عنها على الرغم مما كنت أجده من التحريف والتصحيف والخطأ في الأصول التي نقلت عنها ولا سيما كتاب الكرم المنسوب للأصمعي فإن فيه كثيراً من الكلمات التي اشتبهت على الناسخ والناشر فتصرفا فيها على ما خيل شرحاً وضبطاً وتأويلاً.

وكذلك رأيت في لسان العرب، وتاج العروس، ومبادئ اللغة للإسكافي، والمخصص لابن سيده، ضروباً من عبث النسخ والطبع... ورأيت من المفيد جداً أن أبين شيئاً مما عثرت عليه من الغلط في هذه الكتب ليأمن الباحثون.. إلخ.

موضع الكرم

٤٦٦/١٠ – الفردوس – بالكسر : الموضع تكون فيه الكروم، مذكر، وقد يؤنث. قال في اللسان : « والعرب تسمي الموضع الذي فيه الكرم فردوساً ». وأهل الشام يقولون الكروم والبساتين : الفراديس. ويقال كرم مفردس أي معرش.

الجنة – الحديقة ذات الشجر والنخل – والجمع : جنان. وقال أبو علي في التذكرة : « لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فحديقة وليست بجنة... إلخ ».

الحائط : الجدار، وللبستان من النخل إذا كان عليه حائط أي جدار، جمعه حوائط. وجاء في الحديث : « على أهل الحوائط حفزها بالنهار » يعني البساتين وهو عام فيها... يقال : حوّط كرمه تحويطاً بني حوله حائط.. إلخ.

الوشيع والحظيرة

الوشيع : حظيرة الشجر حول الكرم والبستان، الجمع وشائع. ويقال وشعوا على كرمهم توشيعاً : حظروا عليه بالشجر. ووشع كرمه جعل له وشيعاً، وهو أن يبنى جداره بقصب أو سعف يشبك الجدار به وهو التوشيع... إلخ.

الحفر والركايا

٤٦٨/١٠ الشَّرْبة : بتحريك كالحويض يحفر حول الشجر ويملأ ماء.. فتروى منه... وشَرَّب الأرض والنخل جعل له شربات.

الفقر : ركايا محفور بعضها إلى جنب بعض وينفذ بعضها إلى بعض.. إلخ.

رسالة الطرق

لسليم الجندي

لم يبدأ بنشرها إلا سنة ١٩٤٣ في مجلة المجمع (٤١١/١٨).

فقرات من المقدمة ونماذج من المصطلحات.

«... يضيق ذرع الواحد عن صرف وقت قليل في التنقيب عن كلمة يحي بها الدارس من لغته، ويسد خلتها على الاستعانة بغيرها، فيستسيغ العامي ويستسهل استعمال الداخيل حتى

لا يتعب نفسه في البحث عن لفظ صحيح يعبر به عن مراده. فأفضى ذلك إلى أن طفى سيل العامية والدخيل على ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب حتى كاد يذهب بالبقية الباقية من الفصيح.
وهذا يوجب على كل غيور على هذه اللغة أن يمهد للناس السبيل ويقرب البعيد ويذلل الأبي حتى يسهل عليهم تناول ما يطلبون.
ولعل بعض المتقدمين من العلماء فطن لجلالة لهذا الأمر فوضع فريق منهم رسالة أو كتاباً في موضوع خاص كالخيل والإبل والشاء والبازي والحمام والعقارب والحيات والدلو والبكرة والسرج واللجام والعود والملاهي والميسر والقداح والأثواب والسحاب والمطر والرياح والنخل والكرم والأرضين والمياه والجبال والبحار وما شاكل ذلك... ولكن كل واحد من هؤلاء لم يستوف القول في غرض من الأغراض ولم يجمع كل ما له تعلق به، فربما نقب الباحث في كتاب منها عن طلبته فلم يوفق للعثور عليه... ورأيت أن الحضارة الحاضرة تقضي بأن تكون الأمصار والمدن والأرياف بمثابة مدينة واحدة، ولا يكون ذلك إلا بواسطة الطرق، لأنها من البلدان بمنزلة الشرايين والأوردة من الجسم إذ يتوقف عليها تنظيم العمران وربط الأمصار وإحكام الأواصر التجارية والمدنية. وهي لا تكون على نمط واحد، وإنما تختلف باختلاف الأمكنة كالسهول والحزون والجبال والأودية. وقد وضع المتقدمون لكل واحد اسماً بحسب موضعه وصفته.
ومن الغريب أني لم أوفق للعثور على كتاب أو رسالة للمتقدمين تختص بهذا الغرض على كثرة بحثي وسؤالي... فأجمعت الرأي على وضع رسالة في الطرق أجمع فيها ما تهيأ لي الوقوف عليه من الألفاظ الدالة على أنواعها وأجزائها وأحوالها وما كان منها من سهل أو جبل أو رمل أو واد أو نحو ذلك.. ورتبتها على حروف الهجاء... وقفيت على آثار ذ١لك بذكر طرق الماء والأودية والمسايل... إلخ.
حرف الهمزة
أم الطريق : معظمها إذا كان طريقاً عظيماً وحوله طرق صغار، فالأعظم أم الطريق.
الإمام : الطريق الواسع، لأنه يؤم ويتبع، وبه فسر قوله تعالى : [الحجر ١٥/٧٩]. والإمام : الصقع من الطريق والأرض.
والأمة : الطريقة، وأمة الطريق معظمه كأمه.
الأنبوب : كعُصفور : الطريق يقال ألزم الأنبوب. وأنبوب الجبل طريق فيه، هذلية.
حرف الباء
التباشير : طرائق ضوء الصبح في الليل، وطرائق تراها على وجه الأرض من الرياح.
بنيات الطريق : بالضم والتصغير، هي الطرق الصغار التي تتشعب من الجادة، وهي الترهات وفي التهذيب : تنشعب من الطريق الأعظم.
البهرجة : أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها... ويقال : بهرج بهم إذا أخذ بهم في غير المحجة، والبهرج التعريج من الاستواء إلى غير الاستواء.
باحة الطريق : وسطه، وفي الحديث : « ليس للنساء من باحة الطريق شيء ».
البوص : البعد، والبائص : البعيد، وطريق بائص : بعيد وشاق... إلخ.

وفي هاتين الرسالتين من الصبر على العناء والدلالة على الإحاطة والغيرة مع سعة العلم وإخلاص القصد والغيرة على العربية والنهوض بها وبأبنائها ما لا يخفى.
الكلمات غير القاموسية(١)
اقتراح تقدم به الشيخ عبد القادر المغربي يستفتي إخوانه في مسائله ويشير إليهم بالفتوى التي يريدها ! وأكثرها مبتوت فيه عند أهل العلم والجد، نشره في أول سنة ١٩٢٨ في المجلد (٢٩/٨) وتلقى عليه (١٨) جواباً لخصها هو سنة ١٩٣٢ ونشرها في جزء (إيلول – تشرين الأول) في المجلد (٥٢١/١٢ و ٥٧٧).
«.... أعني بالكلمات غير القاموسية كلمات تستنكف من إيداعها قواميسنا العربية، لكننا مع هذا لا نستكف من التكلم بها وإيداعها كتاباتنا أحياناً... (ويتبقى هذه الكلمات) مرذولة سيئة السمعة ما دامت لا تذكر في معاجمنا العربية وما دان كتابنا المجيدون يأنفون من استعمالها خشية أن ينسب إليهم قصور أو توصم كتاباتهم بلوثة العجمة. وكل ما أريده من أفاضلنا ألا ينظروا إلى الكلمات غير القاموسية نظرة ازدراء : ولا يحرموا استعمالها على السواء، بل أقترح عليهم أن يصنفوها ثم يميزوا بين أصنافها، فصنف منها يعلن مجمعنا العلمي الفتوى بجواز استعماله، بل بلزوم ذكره في معاجمنا اللغوية الحديثة أيضاً، وصنف منها يعلن عدم جواز استعماله أصلاً، ثم يبين السبب من الأمرين الجواز وعدم الجواز.
وها أنذا مذ الساعة أصنف هذه الكلمات تصنيفاً أولياً يدرك الذهن منه ما الكلمات (غير القاموسية) التي ينبغي استعمالها، وما الكلمات التي يجب اطراحها وإهمالها :
١- الصنف الأول من الكلمات غير القاموسية : كلمات عربية قحة لم تذكرها المعاجم ولكنها وردت في كلام فصحاء العرب الذين يحتج بأقوالهم مثل فعل (تبدى) بمعنى ظهر، لم تذكره المعاجم بهذا المعنى وإنما ذكرته بمعنى (سكن البادية)، لكنه ورد في بيت شعر لعمرو بن معديكرب من قصيدته الدالية المذكورة في ديوان الحماسة، والبيت هو قوله :
وبدتْ لميسُ كأنَّها بدرُ السَّماء إذا تبدَّى
فما رأيكم أيها السادة في هذه الكلمة (غير القاموسية) ؟ هل يجوز لما إهمالها بعد أن جاءت في شعر هذا العربي الصميم ؟ لكن لماذا لم تذكرها المعاجم ؟ هذا شيء آخر لا يتسع الوقت للبحث فيه. ولا أظن أن زملائي أعضاء المجمع العلمي يخالفونني في وجوب الإسراع إلى إعلان الفتوى بجواز استعمال كلمة (تبدى) وما أشبهها.
٢- الصنف الثاني من الكلمات غير القاموسية : كلمات عربية خالصة لم تذكرها المعاجم، لكنها وردت في كلام فصحاء العرب الإسلاميين الذين لا يحتج بأقوالهم : وهذا كفعل (أقص الخبر) رباعياً بمعنى (قصه) ثلاثياً، لم تذكره المعاجم لكنه جاء في كلام الإمام الطبري المشهور ببلاغة عبارته إذ قال في تاريخه (جزء ٢ ص ١٨٤) من الطبعة الأوروبية : « فأتيته فأقصصت قصته ».
وأظن أن السادة أعضاء المجمع يوافقونني أيضاً على إعطاء الفتوى بجواز استعمال هذا الصنف من الكلمات (غير القاموسية). ويمكن أن نعد من هذا النوع إقرار العلامة اليازجي لكلمة (فخيم) مع أن علماء اللغة لم يذكروا إلا (فخم) واستعمال الإمام الشيخ محمد عبده لكلمة (صدفة) في خطبة شرحه لنهج البلاغة مكان كلمة (مصادفة).

٣- الصنف الثالث : كلمات عربية المادة، ومع هذا لا يعرفها العرب، أو يعرفونها في معان أخر. وهي كلمات اصطلاحية فنية أو إدارية كقولهم (هيأة المحكمة)، (تشكيل المحاكم) ؛ (انعقدت الجلسة)، (تعريفة الرسوم)، (ميزانية)، (كمية)، (كيفية) في نظير ذلك. وهذه الكلمات (غير القاموسية) أرجو من رفقائي أعضاء المجمع أن يجوزوا استعمالها، ولا سيما أنها كلمات اصطلاحية كما قلنا، ولكل قوم اصطلاحهم.
٤- الصنف الرابع : كلمات عربية المادة ولدها المتأخرون من أهل الأمصار الإسلامية، لا يعرفها العرب الأولون، ولم ينطق بها الفحول مثل فعل (خابروه) بمعنى راسله، وفعل (تفرج) على الشيء، و (احتار) في أمره و (تنزه) في البستان وهكذا. وأنا أعترف بأنني سألقى صعوبة في حمل زملائي أعضاء المجمع العلمي على إعطاء فتوى بجواز هذا الضرب من الكلمات غير القاموسية.
٥- الصنف الخامس : كلمات دخيلة أعجمية الأصل منها ما هو ثقيل على اللسان نحو (أوتوموبيل) و (بيرصوناليته)، ومنها ما هو خفيف في السمع مثل (فلم) و (بالون)، وأنا على يقين أن أعضاء المجمع لا يجوزون استعمال كلا القسمين الثقيل والخفيف. وإنما هم يوجبون العدول عنهما إلى كلمات عربية تقوم مقامها أو تعريبهما بكلمات ذات صبغة عربية كما قالوا (مناورة) في تعريب (Mancevre) وأنا أوافقهم في الكلمات الثقيلة، أما الخفيفة مثل (فلم وبالون) فأرتاح إلى القول بجواز استعمالها كما هي.
٦- أساليب أو تراكيب أعجمية تسربت إلى لغتنا مترجمة على اللغات الأوروبية، وهي مما لا يعرفه العرب الأقدمون، وهذا كقولهم (ذر الرماد في العيون، عاش ستة عشر ربيعاً – وضع المسألة على بساط البحث – لا جديد تحت الشمس – ساد الأمن في البلاد، في نظير ذلك) وكل هذا مما استفاض بيننا وتعاورته أقلامنا ولا أظن أن أحداً ينازع في جواز استعماله اللهم إلا الذين أصيبوا بالوسواس اللغوي .
٧- الصنف السابع من الكلمات غير القاموسية : كلمات عربية لا يستعملها أحد من الفصحاء، بل يتحاشون النطق بها لعمري، وهو ما نسميه (العامي) وهذا كثير لا يجهله أحد مثل كلمة (بدي أذهب، جيب الكتاب – لحشه على الأرض – تعريش على الشجرة – تحركش بفلان)، إلى غير ذلك، وهذا لا يجوز استعماله بالطبع، بل يجب العمل على تقليص ظله من بيننا تدريجاً وتعويد أبنائنا استعمال غيره من الفصيح الذي يصلح أن يقوم مقامه.
هذا ما خطر لي أيها السادة السادة في تصنيف الكلمات (غير القاموسية) ويمكن تصور أصناف أخرى غيرها إذ ليس القصد من هذا الاقتراح الاستقصاء وبلوغ الغاية، وإنما القصد الإشارة والتلميح إلى ما يجب على مجمعنا العلمي عمله من التسامح وإعطاء الفتوى في الكلمات التي عمت بها البلوى.
الاقتراح تنقصه العلمية وتنسيقه شكلي، فالصنفان الخامس والسابع يجمعهما عنوان (الدخيل)، والصنف السادس لا علاقة له بالعنوان فهو تراكيب وصور بيانية تختلف في استجادتها الأذواق وما دخل اللغوي في بحثهما فكلماتهما كلها معجمية، وكذلك أكثر أمثلة الصنف الثالث، والصنف الثاني لا لزوم له البتة لقيام الصحيح مقامه، وزج اسم اليازجي ومحمد عبده لم أجد له مسوغاً غير كسب محبيهما في استفتاء خطابي، والصنف الأول لا يحتاج

عليه استفتاء فما ورد عن فصيح سليم السليقة في عصور الاحتجاج مقبول يقاس عليه، أقول هذا مع ضعف انطباق الشاهد الذي أتى به لاحتمال أن يكون الشاعر أراد بـ (تبدى) ظهوره في البادية وهو معنى ذكرته المعاجم، وذلك أجمل وأقوى للتشبيه ومع هذا لا أناقش في المثال.
أجب على هذا الاستفتاء ثمانية عشر عضواً من بلدان مختلفة في الشام (سورية ولبنان وفلسطين) والعراق ومصر، وأكثر هؤلاء عبروا عن العبث في استجداء فتوى لكلمات في اللغة الصحيحة ما يقوم مقامها، وكأنهم يقولون : علة الجاهل أن يتعلم، وأن الضرورة تقضي بتحري ما نحتاج إليه من مصطلحات في العلوم وأسماء لمسميات حضارية جديدة إلا أن الأجوبة فصلت على قالب الأسئلة فأتت مثلها في الغالب واستطاع الشيخ المستقي أن يلخص الأجوبة بأنها مالت إلى جواز الأصناف الستة الأول مع شروط وتحفظات.
لم يكن من الاستفتاء والفتاوى جدوى عند المحصلين، غير لفظ الأنظار وشغل المجلة خمس سنين بنشر أجوبة ترد تابعاً ثم تلخيصها من قبل المستفتي ونشر ذلك على أنه نتيجة استفتاء الأعلام في البلاد العربية، وهي (مظاهرة) لا بأس بها لتثبيت ميزانية المجمع العلمي لدى الحكومة.
ولم أستغرب ما استغرب غيري من أن فئتين في المجمع هما أحق بالكلام في هذا الاستفتاء مراتبه مر الكرام كأنه لغو (١)، فئة ذوي الاختصاص العلمي كالأمير مصطفى الشهابي، والدكتور مرشد خاطر، والدكتور أسعد الحكيم، وفئة اللغويين والأدباء كالأساتذة سليم الجندي، وعبد القادر المبارك، وفارس الخوري، وشفيق جبري، ومسعود الكواكبي، ثم أستغرب ذلك لأنه هو الأول، أما الفتوى الحقيقة فقد صدرت عملاً من الأساتذة والمدرسين في الجامعات، بل من أرباب الصحف والمجلات بله الأدباء والكتاب والشعراء. بأن طرحت كل الكلمات التي أراد الشيخ عبد القادر المغربي الفتوى بجوازها، فلا يقول أحد اليوم (أقص) ولا (فخيم) ولا (أوتوموبيل) ولا (بالون) ولا (احتار) بل إن المجمع نفسه خطأ قبل الاستفتاء بسنوات استعمل (صدفة) بدل (مصادفة) وجعلها من عثرات الأقلام وهذا حكم الزمن للغة أمة عزمت على المضي قدماً في الطريق الصحيح القوي مهما كدت وتعبت، رأيته بنفسها عن مباآت التواكل والخمول.

تشرح الدراجة (١)

للأستاذ عز الدين التنوخي

مقتطفات من المقدمة :

«... ولا أد على ذلك (الشعور بالحاجة إلى مصطلحات عربية لمسميات الحياة والطبيعة) في مصر من ظهور مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، وما تناولته من أبحاث لغوية ممتعة، وأوضاع جديدة لمسميات حديثة، من الصغار أن يتراطن العرب بأسمائها الأعجمية.
وعجيب أن تنتقد هذه الأوضاع بقسوة... مثال ذلك كلمة (الإرزيز) التي اقترح وضعها للدلالة على (التلفون) ولها وجه صحيح، فإذا لم نجد في لغتنا غيرها تحتم علينا استعمالها والتمسك بها.
هذا واللفظة الغريبة الحوشية إذا ما صقلها اللسان، وألفتا الآذان، استعذبها ولا محالة الإنسان، فتلهج بها الألسنة وتتشنف بها المسامع، ويتردد ذكرها في الأندية والمجامع، ومع

ذلك فليست لفظة (إرزيز) بأثقل من لفظة (إبريز) ولا (طربال) (٢) بأغرب من غربال مثلاً.
وهؤلاء هم الأتراك لما بعثوا بنهضتهم الأخيرة من مراقدهم، بعثوا رواد اللغة منهم إلى بلادهم التترية الأصلية علهم يفوزون بمفردات يستبدلونها، مهما كانت ثقيلة وغريبة، بالأسماء العربية مهما كانت خفيفة ومأنوسة ولطيفة....
إن ما هو شعبي عام (من مسميات الحضارة الحديثة) الذي ينطق بأسمائه الشعب بأسره يوشك إذا تمادى التسامح وغفى الطرف عنه أن تنقلب به اللغة العربية أعجمية لا تكاد تبين، ويرجع به العرب الأقحاح في تراطنهم أشباه الأعاجم والمستعربين.
ومن قبيل النوع العام الاستعمال... عجلة « البسكليت » ذات الدولابين، التي نعمت قبل غيرها باسم عربي لها وهو (الدراجة).... غير أن هذه الآلة المفيدة التي لا يسمع الجمهور العامل أن يستغني عنها لم تلق من العناية ما تستحق فظلت أجزاؤها أعجمية أسماؤها....
وها نحن أولاء ننشر... على سبيل الاقتراح « تشريح الدراجة » (٣) ليبدي القراء آراءهم فيها... إلخ.

١- البدن le cadre
٢- الدولاب الموجه La roue dirctrice
٣- الدولاب المتحرك La roue motrice
٤- الفراش الكبير Le grand pinon
٥- الفراش الصغير (فراش الحركة) Le petit pignon
٦- السلسلة La chaine
٧- الركاب (أو المدوس أو الدواسة أو الزند) La pedale
٨- الموجه (أو المقوم، أو المدور أو المقبض) La poignee
٩- السرج La selle
١٠- الملقط La fourche
١١- الأسياخ (أو الأصابع أو الأشعة) Les rayons
١٢- الإطار La jante
١٣- المطاط البراني L'enveloppe
المطاط الجواني، المنفوخة La chambre a air
١٤- السدادة (أو الصمام) La valve
١٥- المكبح Le frein
عتلته levier du frein
كافنة La palette du frein

وهناك أيضاً أدوات فرعية كالمصباح والمولد (أي الدينامو) و (رف الدولاب) و (كيس العدة) وأشباهها ما يسهل تسميته على المعلم والمتعلم ».

الفصل الرابع

العربية في الجامعة السورية (معهد الطب ومعهد الحقوق)

تقدم لك في شيء عن تأسيس الجامعة السورية وقصة نشأتها، والروح القوية العالية التي غمرت العاملين من أساتذتها في تعريب التعليم الجامعي والنهوض به بعزم لا يكل حتى استوى قائماً على رجليه.

ولا بأس في أن أترك للمرحوم الأستاذ محمد كرد علي يصف حال اللغة العربية فيها أول نشأتها على ما في وصفه من بعض التحامل، لما وجد في نفسه حين أقصي عن تدريس الأدب في مدرسة الحقوق دون حق ،(١) قال :

«... وما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق، ولا شأن للفصحى فيهما إلا قليلاً، لأن معظم المدرسين من الطبقة التي تخرجت من مدارس الترك... وهذه الطبقة لا تقيم وزناً، ولا تكتب جملة مسبوكة، ولا تكاد تلفظ كلمة صحيحة. ومن الغريب أن توسد هذه الأعمال العلمية الجليلة إلى أناس هم أتراك في تربيتهم وأفكارهم ومنازعهم في صميم بلاد العرب وفي جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية. ويرجى إدخال الإصلاح المنشود إلى هاتين المدرستين العاليتين إذا ودت مناصب التعليم فيهما إلى كفاة يحسنون العربية إحسانهم العلم الذي يدرسونه، وأن تصقل أماليهم بأيديهم صقلاً متنقناً بحيث تصدر دروسهم عم علم أتقنوه وتمثلوه وهضموه وصار ملكة لهم.. إلخ ». (٢)

لقد آلت الأمور إلى ما رجا الأستاذ تماماً، والذي أراد به طعن خصومه أول هذا الكلام وهو موضع إعجابي بهم، لقد أخذ هؤلاء المتخرجون من مدارس الأتراك أنفسهم بتعلم العربية على شيخوختهم بعزم دائب وصبر طويل حميد (١)، وتكانفوا على تعريب التعليم بما بلغه وسعهم وكان إلى جانبهم زملاء أقوياء في العربية يساعدونهم، فلم تمض سنوات حتى أخذ العبء عن كاهل أولئك الشيوخ سواعد قوية مضت إلى الهدف القديم صعداً، وحتى أصحبت عربية العلم في الجامعة مثلاً يحتذى.

وأول ما وضع في طريقهم من عقبات هو أقواها دون ريب، لقد رمى الاحتلال بسلاح التشكيك في صلاح العربية للغة العلم إلى صنائعه في مختلف الميادين في المدارس والصحف والإدارات :

كيف تصلح لغة البداة للتعبير عن مكتشفات القرن العشرين ومخترعاته (٢)؟

إن اللغة التي نبغ من أبنائها هذا العصر مئات العلماء الفطاحل في الطب والحقوق والهندسة والآليات الميكانيكية و... هي الصالحة للعلوم الحديثة فمن عندنا من هؤلاء العالميين نحن ؟

ألا يعوق تدريس الطب مثلاً باللغة العربية المتخرجين عن متابعة ما يجد من تقدم عند الأجانب (١)؟ ألا تضيق على هؤلاء الطلاب الآفاق العلمية المتسعة للمتعلم بلغة أجنبية ؟

لغة سيبويه لا تصلح صلاح لغات لا؟وزيه وباستور وكوخ و... إلخ ما هنالك من أسئلة ألقيت وتفاصيل تودي بحجج أقوى الأنصار الجدلين لولا أن هناك إيماناً قوياً بالعربية لا يتزعزع، حملته صدور الرعيل الأول من أساتذة الجامعة الذين لم يبالوا بما يثار حولهم من غبار ولا جدال ولا تهكم ولا تثبيط.. مضوا يبصرون مواطئ أقدامهم إلى هدفهم النبيل عاملين جادين يسلمهم فتح إلى فتح. أراد الاحتلال أن يوقر في الصدور أن التعليم العالي

بالعربية خرافة، فأثبتت عزيمة هؤلاء الأساتذة أن عجز العربية المدعى خرافة أي خرافة وأضحكوا بعملهم الناجح جماهير الناس من محاولة الفرنسيين القديمة.

أربعون عاماً ونيّف تشرح فيها أحداث النظريات العلمية في فنون الطب وتوصف أدق الأجهزة على منابر الجامعة السورية بلغة فصحة سليمة سهلة ميسرة، وكذلك الأمر في مدرسة الحقوق تلقى فيها العلوم القانونية على اختلافها بهذه اللغة الفصحى العالية. والذين عايشوا النهضة يذكرون عدداً غير قليل من أساتذة هذين المعهدين خطباء وكتاباً وأدباء إلى جانب اختصاصهم أطباء ومحامين وعلماء، بل إن ملكة العربية نمت في طلابهم من لغة العلم التي يتلقونه بها، ظهر ذلك للناس في النضال السياسي الذي خاضوه أيام الاحتلال فكنت تسمع من خطبائهم وهتافاتهم في مظاهراتهم كل مثير معجب بلغة صافية سليمة واضحة.

وصفت في محاضرة سبقت عمل كل أستاذ في فنه من وضع مصطلحات هذا الفن باللغة العربية غير مقتصر على اجتهاده بل مستعيناً ومسترشداً بمن يظن فيه اطلاعاً وكفاية، وأن أغلبهم تم له مع السنين معجم عربي خاص بفنه. وفي الجامعة مطبعة مستقلة تطبع للأساتيذ مؤلفاتهم التي يحتاج إليها الطلاب في الدراسة.

بين يدي الآن (فهرس مطبوعات جامعة دمشق بين سنتي ١٩٣٢ – ١٩٥٧م) أقدم لك منه فكرة عاجلة عن الإنتاج العربي لإحدى الكليات القديمة وهي كلية الطب، وعملها أجل الأعمال، فقد نيفت مطبوعاتها (في مطبعة الجامعة فقط) على السبعين بعضها في مجلد وكثير منها في مجلدات جاوز مؤلفوها الأربعين أستاذاً. ويضم هذا الإنتاج :

١- المؤلفات الطبية في علم الغرائز. (الفسيولوجيا)، وأمراض الأطفال والمساء والأمراض العصبية والعقلية والهضمية، والكيمياء الحيوية، والكيمياء الصيدلانية والكيمياء العضوية والأمراض الجراحية، وفن التمريض، وفن الجراثيم، وفن الصحة والطب الوقائي، وأمراض القلب والأوعية والكلية، وعلم الأمراض الباطنية، والأمراض الطفيلية والإنتانية، وأمراض جهاز التنفس والأنبوب الهضمي وجهاز البول والدم وأمراض التغذية والغدد الصمم والتسممات، وفسلفة الطب (أو علم الأمراض العام) والأعراض والتشخيص، وعلم النسج، وأمراض الجلد وأمراض العين وطب الأسنان. والطب الشرعي والطب الاجتماعي، وفن التوليد، وعلم الكيمياء، وعلم السموم، وعلم الأدوية.

هذا وكثير من هذه المؤلفات ينتهي بمعجم للمصطلحات العربية وما يقابلها بالفرنسية أو الإنكليزية وبالعكس مما استقرت عليه مواضعات هذه الكلية وانتشرت في جزيرة العرب والأردن والعراق وغيرها على أيدي خريجها. (١)

٢- مؤلفات في موضوعات طبية عامة وأكثر من عرف نشاطه في هذا الميدان الدكتور شوكة موفق الشطي فله :

١- تاريخ الطب عند العرب وعند الأمم التي نقل عنها العرب (في عدة أجزاء).
٢- اللباب في الإشباب
٣- علم آداب الطب
٤- علم الوراثة
٥- الرياضيات المسنونة

٦- نظرات في ابن القيم
٧- في التتن والدخان
٨- في القهوة والشاي
٩- في المسكرات
٣- المحاضرات العامة : ألقى منها عدداً أساتذةُ الطب في موضوعات طبية صالحة لجمهور المثقفين، ونشر بعضها في المجلدات السنوية التي تصدرها الجامعة كل عام بعنوان (المحاضرات العامة). وهي نماذج جيدة للغة العلم الميسرة الواضحة السليمة.
٤- المعاجم : بعد أن أسهم كل أستاذ مختص بوضع مصطلحات فنه بالعربية، وأتم خالف عمل سالف، واستقرت هذه الأوضاع، أفرد بعضهم مصطلحات فنه في معجم خاص كما فعل الدكتور حسني سبح في (معجم الألفاظ والمصطلحات) الذي طبعه سنة ١٩٣٥ في (٦٠) صفحة، وفي (معجم الألفاظ والمصطلحات الواردة في أمراض جهاز التنفس) الذي أخرجه سنة ١٩٣٧ في ٢٧ صفحة، وكما فعل الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي حين طبع (مصطلحات علمية) على حدة سنة ١٩٣٦ في ٤٢ صفحة في طبعتها الأولى، وفي ١٨٥ صفحة في طبعتها السابعة بعد عشرين سنة (عام ١٩٥٦)، متابعة منهم للعلم في تقدمه وتطوره واتساعه وقياماً بما في أعناقهم للغتهم ولأمتهم.
ثم سمت همم الطامحين من الرعيل الأول المؤمن بلغته وعلمه ووطنه، فأرادوا أن يكون للغة العربية ما لغيرها من كبريات اللغات الحية : معجم شامل للألفاظ الطبية على اختلاف فنونها فعمدوا إلى (معجم المصطلحات الطبية) بالفرنسية لـ (كليرڤل)(١) فعكف على ترجمته ثلاثة من أجلاء أساتذة الطب وهم : أحمد حمدي الخياط، ومحمد صلاح الدين الكواكبي، ومرشد خاطر، وامتد دأبهم سنين حتى أنجزوه ودفعوه إلى مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٦ فتم طبعه في (٩٦٠) صفحة.
للأستاذين الجليلين الدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور مرشد خاطر مؤلف أضخم من المتقدم في المفردات الطبية أنجزاه في نحو ست سنوات، وهو معلمة طبية على حروف المعجم شرحا فيه كل مفردة من مفردات الطب ول مصطلح، وكل علَم من أعلامه، شرحاً موجزاً فجاء في نحو أربعة أضعاف الأول، وهو ينتظر الطبع.
٥- جاوزت آثار غيره هؤلاء العلماء الأبرار بعلمهم ولغتهم وأمتهم محيطهم الخاص في المعهد الطبي العربي، إلى الميادين العامة ميادين الجماهير، ووجدوا أن ما ورثوا هم عن الأتراك من ركة التعبير وخطأ الاصطلاح وعجمة التركيب في أمور الصحة والطب والعلم سرت في سائر المتعلمين، ثم انتقلت منهم إلى صغار التلاميذ المبتدئين في المدارس، فرأوا من الخير القضاء على العجمة في مهدها كما عملوا على القضاء عليها في معهدهم، فتطوع المرحوم الدكتور محمد جميل الخاني لتوسيع الاستفادة من جهوده وجهود زملائه، وعزم على نشر سلسلة من المقالات في مجلة المجمع العلمي العربي نشرت أولاها سنة ١٩٢٤ بعنوان (اللغة العلمية) وتتبع فيها ما شاع من الخطأ على ألسنة العامة والمتعلمين من أوضاع العهد التركي، وأرشد إلى الصحيح فيه. ودلته التجربة والدارسة على انتظام هذه الأخطاء في ضربين :

ضرب صحيح الوضع في الأصل إلا أن الناس ينطقونه خطأ جرياً على نطق الترك أو العامة، وضرب خاطئ من أصل الوضع، إما في إطلاق اللفظ على غير معناه، وإما في ركة التركيب أو عجمته وأدرج كل ضرب على حدة، فجعل الأول تحت عنوان (تثقيف الألفاظ). والثاني تحت عنوان (تلئيم الاصطلاحات)، وسندرج نموذجاً منها لفائدته التاريخية، آخر الكلام على الجامعة السورية فيرى القارئ أنه أفيد بكثير مما كان ينشره المجمع العلمي تحت عنوان (عثرات الأقلام) و (عثرات الأفمام) إذ كان موضوعياً يلمه نهج علمي صحيح، وواقعية غير متكلفه وتتبع ممحص.

ولا غرابة في ذلك فالدكتور الخاني من الرعيل الأول أصحاب الرسالة العربية العلمية، وكتابه (القطوف الينيعة في علم الطبيعة) « وما زال يعتبر مرجعاً ممتازاً حتى يومنا هذا » (١) وقد « خدم اللغة العربية ولا سيما لغة الطب خدمة كبرى » (١).

وتجلت خدمته للغة العربية في الميدان العام بما تقدم لك من اهتمامه بتصحيح الأخطاء الشائعة وبمعجم ألفه في اللغة العربية سماه (الدر المتراصف في اللغة والمترادف) لم أره أنا، وإنما قرأت في وصفه للدكتور الشطي أنه « يبلغ عشرة أجزاء وصل فيه إلى حرف العين، ولا يزال مخطوطاً وهو مجموع من المعاجم الكثيرة بأسلوب لم يسبق إليه ». وأن مؤلفه « انتقل إلى الرفيق الأعلى وفي قلبه حسرة على عدم تمكنه من إنجاز المعجم المذكور وطبعه ونشره وتعميم النفع منه، إذ كلفه كثيراً من الجهد الذي أضناه ومن المال الذي أنفقه » (١).

هذا بعض إسهام أساتيذ المعهد الطبي في نشر الفصحى وخدمتها في الميدان العام.

٥- أنشأ فريق من هؤلاء الأساتذة على رأسهم النطاسي العام الدكتور مرشد خاطر مجلة العهد الطبي العربي التي أخذ المعهد على عهدته إصدارها لغايات ثلاث :

٦- « أولاها (١) خدمة اللغة العربية الشريفة التي بلغت بفضل علمائها وأدبائها الأقدمين شأواً بعيداً في العلوم والآداب لم تبلغه لغة من اللغات الأوروبية الحية... غير أن هذه اللغة العزيزة أصابها من الهون ما أصاب العرب أنفسهم بعد أن دالت دولتهم... فنامت نومها العميق عن العلم قروناً عديدة ؛ وإذا هي الآن بعد أن أفاقت من سباتها ترى وادياً عميقاً يفصل جبل العلم القديم الذي ركزت في أعلى قمته علمها، عن جبل العلم الحديث الأشم الذي قام يناطح السماء بذروته ؛ فلا عجب إذا عانى أبناؤها الحاضرون التعب الشديد في وصل العلم القديم بالحديث، ونحت أوضاع جديدة لمسميات لا يحصرها عد، أوجدها العلم الحديث، ولم تكن معروفة قبله. ولما كان يصعب على الفرد أن يقوم بأعباء ما يترتب على المجموع القيام به، عني معهدنا الطبي بوضع أداة وصل بين الطب العربي القديم والطب الحديث، وقام كل أستاذ من أساتذته بما يعود إلى فرعه فعرب وألف ووضع أساساً يشيد عليه من يأتي بعده البناء الطبي العربي الذي يجب أن يضاهي برونقه وجماله سائر الأبنية الأجنبية الأخرى.

وثانيها خدمة الطب والأطباء : إن للطب في البلاد العربية ميداناً فسيحاً، وللأقطار العربية أمراضاً خاصة تظهر فيها ويقل ظهورها في سواها، فإذا دونت المشاهدات النادرة وجمعت ونقد الأطباء ما يرونه شاذاً فيها ونبهوا إلى ما هو جديد منها خدم الأطباء والطب الخدمة الجلى وأضافوا.. جوهرة جديدة صاغتها يد العرب وصقلها ذكاؤهم....... وإن مجلة كهذه

عربية اللغة تسهل مطالعتها على قرائها أكثر من المجلات الأجنبية، وفضلاً عن ذلك فليس للطبيب مهما كان متضلعاً من اللغات الأجنبية أن يجد وقتاً كافياً لمطالعة المجلات والجرائد على اختلاف أنواعها فإذا وجد خلاصتها سهل عليه تناولها.
وثالثتها خدمة الشعب : إن الشعب... يجد في هذه المجلة لذة لعقله وفائدة لصناعته، لأنها لا تقتصر في أبحاثها على الطب والصيدلة فحسب ولكنها تتناول أيضاً الموضوعات الصحية التي يسهل فهمها، وتعم فائدتها إذا حفظت واتبعت، والموضوعات الكيميائية الصناعية التي تبحث في الصناعات المختلفة، وتبين الطرق الحديثة في تحسينها، وتنقل إلى المولعين بها كل مستحدث ؛ وموضوعات الطب الشرعي، ولا يخفى ما لهذا الفرع من الفائدة الكبرى لطبقات المحامين والقضاة والرؤساء الروحيين، لأنه جزء مكمل لدروسهم الحقوقية والدينية ».
هذا وقد صدر من هذه المجلة (٢١) مجلداً بين سنتي (١٩٢٤ – ١٩٤٧) حافلة بالبحوث النافعة وآلاف المصطلحات العربية الواضحة. وحرام أن تحتجب بإحالة رئيس تحريرها على التعاقد، وكان الأمل فيمن خلفه من الأساتذة الشبان أن يمضوا بهذا المجد الناطق بسواعد أقوى وعزيمة أمضى.
قامت هذه المجلة بخدمة المختصين وجمهرة المتعلمين على السواء، يجد فيها المختص أحدث ما وصل إليه العلم في فرع من فروع الطب مشروحاً بقلم أستاذ الفرع المتخصص المتتبع، كما يجد فيها المتعلم أنفع ما يحتاج إليه من معلومات صحية طبية مما يعود على ثقافته وعلى حياته بالخير المحقق.
بين يدي على سبيل المثال المجلد الثاني من هذه المجلة صدر قبل سبعة وثلاثين عاماً (سنة ١٩٢٥) فيه بحث طبي تاريخي عن سير الجراحة منذ نشأتها حتى يومنا الحاضر) للدكتور « لوسركل » أستاذ قسم السريريات الجراحية في معهد الطب بدمشق، مترجم بقلم فقيد العلم واللغة الدكتور مرشد خاطر، وهو موضوع خاص عام، ثم بحث في (المستحدثات الطبية) للدكتور مرشد خاطر أستاذ الأمراض الجراحية وسريرياتها، وهو موضوع خاص للجراحين يعرض تجارب عالمية قريبة العهد في الجراحة، فبحث في (النوم) للدكتور أحمد منيف العائدي أستاذ الغريزة (الفسيولوجيا)، فبحث للدكتور أحمد برجاوي من بيروت في (حمى الفأر Sodoku) موضوع خاص يفهمه عامة المتعلمين، ثم نجد بحثاً خاصاً عاماً للدكتور أحمد حمدي الخياط أستاذ في الجراثيم وعلم الصحة في (الأسرة) قصره على (مهد الطفل). ثم نجد بحثاً في (السمن) للصيدلي عبد الوهاب القنواتي، وهو بحث علمي عام ينفع كل إنسان وينبه إلى تركيبه الكيماوي والعناصر التي يغشه بها تجاره. ثم بحث متسلسل عن (تاريخ الطب عند العرب) للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف عضو المجمع العملي العربي. وخاتمة العدد جزء من بحث متسلسل للصيدلي صلاح الدين مسعود الكواكبي عنوانه (أحاديث اليوم عن عجائب الراديوم).
وتمضي سنوات المجلة تتابع في انتظام تغذي علماء الطب على اختلاف فروعهم بما يجد في فروعهم من تقدم، ولا تهمل القراءة عامة من بحوث مقربة لقضايا الصحة والطب، كل ذلك باستقراء وتتبع لما يحدث في ميدان العلم، بحيث أصبحت المجلة وثيقة علمية لا

يستغني عنها طبيب عالم، دع عناية أكثر كتابها بدرس ما قدم العرب في تاريخهم لعلوم الطب والصيدلة من خدمات (١).
أما الناحية اللغوية منها – وهو ما يعنينا هنا خاصة – فتستدعي كل إعجاب. وأنت إذ صفحت معي هذا المجلد الثاني راعك تكاتف هؤلاء العلماء بلغتهم علمهم بطبهم على حرث كتب الطب العربية القديمة، وعلى فلي معاجم اللغة ليخرجوا بعد طول الجهد بخير المصطلحات العربية سلامة ووضوحاً ودلالة على المطلوب، ثم تجد إلى جانب ذلك اهتماماً بما يصل إليه أحدهم ثم تتبعاً له ومناقشة حوله، والخير في أن نمضي معاً في صفحات هذا المجلد نقع على ضروب من رحيقها اللغوي نستمتع مكبرين هذه الجهود الصامتة المخلصة للعلم وللعربية معاً :
١- نفتح الصفحة (٢٢٧) على عنوان (لغة العلم) فإذا الدكتور أمين المعلوف مدير الأمور الطبية في الجيش العراقي يناقش (الزميل المحقق الدكتور أحمد حمدي الخياط) في بعض المصطلحات، نمضي في القراءة فنعرف أن الدكتور الخياط نشر كتاباً في فنه ووضع له المصطلحات على الطريقة التي عرفت، فنقد الدكتور المعلوف بعضها فعقب الخياط على نقده يشكر له عنايته، ويسلم له بعض نقده، ويناقشه في بعض، فيناقش المعلوف هنا ما توقف فيه زميله، ونمضي ثانية في القراءة فنعجب بإخلاص الرجلين في بذل الجهد حين نجد الاحتكام لم يقتصر على المعاجم العربية وأوضاع علماء العرب الأقدمين، بل اتسع فجلب إلى الميدان المعاجم الفرنسية والإنكليزية والألمانية، ثم يرى أن الأحكم الرجوع إلى اللاتينية لتغاير اللفظ في اللغات الثلاث الأوربية. ونجد هؤلاء العلماء اللغوين من العراق والشام ومصر وساحل الشام قد انضموا في أسرة واحدة يخدمون العلم واللغة لم يكتلهم غير هذا الغرض.
فإذا جعلنا بصرنا يثب ليحط على المصطلحات فحسب، راعنا إيمان كتاب المجلة بالعربية. هذا بحث لأستاذ فرنسي في ص٥١٣ عنوانه (فتق مغبى عَرْطَل) يستغربه المرء فيحيله الرقم حذاء العنوان إلى أسفل الصفحة ليجد (العرطل : الضخم والفاحش الطول، وهو ترجمة geant) ولا شك أن الكلمة الفرنسية في غير هذا المقام غير تلك الترجمة، لكن دقة الحس اللغوي للمعرب الدكتور مرشد خاطر أحيت الكلمة الغريبة وجعلتها موقفة مأنوسة في هذه البيئة الخاصة بها. وسألحق بهذا البحث آخر هذه الكلمة نموذجاً للغة المجلة العلمية الرائعة.
وهذا بحث في (ص٥٣٣) عنوانه (عامل النُكاف المرضى جرثومة من نوع المتمعجات) فيحيلنا رقم إلى أسفل الصفحة فنقرأ :
« النكاف ترجمة Oreillos الفرنسية، وقد كان يترجمها الترك بـ (الورم النكفي) وتدعوها العامة بـ (أبي كعب) : مع أن النكاف لغة ورم في نكفتي البعير.. إلخ فهو إذن يفيد المعنى المراد، والمنكوف : المصاب بالنكاف. – المتعجمات : Spirochete »
واحكم أنت على ما خدما به لغة العلم من قوة وجمال وما أبعدا عنها من ثقل وعجمة واستهجان.
وحين يضطر أحدهم إلى استعمال كلمة أعجمية فعلينا أن نحدس كم أنفق من وقت وجهد ليجد مصطلحاً عربياً فلم يتح له ما يرضيه، فإذا قرأت في بحث للدكتور الخاني كلمة (

البروستات) فلا تستغرب الحاشية القائلة « نحافظ على هذا اللفظ (التهاب البروستات) ريثما نجد له مقابلاً بالعربية – ص ٤٤٩ » ؛ لا تستغرب لأن للقوم هدفاً نبيلاً أقسموا ألا ينسوه لحظة من اللحظات نحو أمتهم في لغتها وعلمها معاً.
ويلفت نظرنا باهتمام عناية المجلة حين تصف الكتب الحديثة المهداة إليها في الطب بلغة هذه الكتب، المشرف على هذا الوصف من الموهوبين في العربية ووضع المصطلحات لا تفوته الإشارة إلى ما يكلف وضع المصطلح وصب العلم في القالب العربي من عنايته وجهد وتعب، يقول مرشد خاطر في كلامه على (دروس فن الجراثيم) لزميله الخياط : «.. واستكبرنا همة واضعه وجلده وانكبابه على التحري والتدقيق لأن الكتابة في فرع حديث كهذا لم يعرف أسلافنا العرب له اسماً، صعبة كل الصعوبة. وإيجاد أوضاع لائقة لمسميات عديدة جاء بها الفن ونحتها من اللغة العربية يستدعيان همة لا تعرف الكلال، ولعمري يحق لنا أن نقول إن وضع هذا الكتاب جرأة أدبية لا يقدم عليها إلا القليلون وخدمة كبيرة للغة العربية والناطقين بها نشكر عليها المؤلف عظيم الشكر، فمن الأوضاع التي نحتها الأستاذ الكلمات الآتية... إلخ - ص ١٢٦ ». ويقول مرشد خاطر في تعريف بكتاب (الكيمياء غير العضوية لعبد الوهاب القنواني) : « أما لغة الكتاب العلمية فمضبوطة، أحيا المؤلف منها ما عرفه العرب، وعرب الاصطلاحات الأجنبية، ولم يتعرض إلا لترجمة القليل منها... ص ٢٥٦ ».
وغني عن البيان الإشارة إلى اللغة المشرقة لهذه المجلة في غير ما قدمت من عربية المصطلحات، وحسبك منها سهولتها وسلاستها وسلامتها، تقرأ الفصل المترجم مثلاً للدكتور مرشد خاطر (١)فتقطع أنه كتب في عهد السلامة بالعربية ابتداء لولا إشارة المترجم إلى الأصل الذي ترجم عنه.
إن المعهد الطبي العربي ومجلته قلعتان من قلاع العربية، وإن الذين قاموا عليهما كانوا هم واللغة الفصحى كما قال القائل :

(رضيعي) لبان ثدي أمٍّ تقاسما   بأسحم داج : عوض لا نتفرق

وبهذا لا يكون شيء من المبالغة قط في قول الدكتور الشطي حين أرخ لهذا المعهد العربي لغة وروحاً فقال : « إن رجال المعهد الطبي العربي بمجلتهم ومحاضراتهم ومؤلفاتهم ومقالاتهم قاموا بنهضة لغوية تبعها انتصار للغة العربية في عالم العرب وبلاده الشاسعة » (٢).
إن الجامعة السورية باعثة اللغة العربية، ولئن كان ثالوث (الكلية الأميركية) ؟انديك، وبوست، وورتبات له فضل غير منكور في خدمة اللغة آخر القرن التاسع عشر، عن هذا الفضل قضى عليه روح التبشير والاستعمار الأمريكيين حين قلبوا لغة التعليم فيها إلى الإنكليزية. فبعث الله ثالوثاً أقوى عزيمة وإخلاصاً وتفانياً في بلاد الشام في القرن العشرين. عنيت به دعائم النهضة العربية اللغوية في المعهد الطبي العربي للأساتذة الأجلاء أحمد حمدي الخياط، ومحمد جميل الخاني، ومرشد خاطر فقد كتب الله لعملهم المنظم المستمر حياة وانتشاراً من الشام إلى سائر الأقطار العربية، فلنا اليوم بفضلهم وفضل زملائهم وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم لغة علمية عربية سليمة واضحة هذا ما يعنينا من نشاط المعهد الطبي في خدمة لغتنا، ولم نعرض للناحية العلمية لأنها ليست موضوعنا ولا اختصاصنا،

وإن كنا نعلم أن ما أسهم أساتيذه فيه من البحوث المبتكرة في الأمراض المستوطنة كالبرداء، والزحار، وتشمعات الكبد والتهابات الأميبية، وأشكال الأفرنجي العصبي والتهابات الأعصاب العديدة التالية للمعالجة المصلية وما إلى ذلك من البحوث الكثيرة » (١) قد تناقلته مجلات الغرب الطبية.

* * *

اكتفيت بالكلام عن اللغة العربية في المعهد الطبي دون بقية الكليات، لأن الطب والعلوم عامة هي التي انصب عليه تشكيك المشككين في صلاح العربية للتعبير عن متطلباتها. أما علوم الحقوق والتأليف فيها ووضع مصطلحاتها فقد جرى على القانون الذي سار عليه أساتيذ الطب والقول فيها وفي مجلتها يشبه القول في لغة المعهد الطبي وتآليفه ومجلته والأمر هنا أيسر وكذلك قل في الكليات المستجدة بعد الفترة التي نؤرخ لها : كليات العلوم والهندسة والتجارة أما كلية الآداب وكلية الشريعة فالكلام على عروبتهما من الفضول (٢).
وهناك مؤسسات يصح أن تلحق بالمعاهد العليا وإن لم يكن فيها تدريس.وهي دار الآثار العامة. إذ عنيت بالناحية اللغوية وسلامة مصطلحاتها، فمجلاتها ونشراتها مما تخدم الفصحى كما تخدم الثقافة العامة بدمشق استطعت أن أشير إلى ما قصدت بخدمة الفصحى، فقد نشرت بين الناس عدداً من المؤلفات الميسرة تعرف ببعض الآثار التاريخية في سورية، وهي كثيرة مشهورة تلذ معرفتها الناس، ولها مجلة دورية تصدر بانتظام مرتين كل سنة، وقد صدر منها حتى الآن عشر مجلدات، من أهدافها (تعميم الثقافة الأثرية في البلاد السورية)، وعليها شبان يرجى منهم أن يتم على أيديهم ما تم على أيدي أساتذة الطب لو تفرغوا إليه وقصدوه، فالمصطلحات التي يتداولونها في وصف الآثار يعزوها شيء من التحري والتثبت من سلامتها وشيء من الصقل، فلو أخرجوا بها جميعاً جريدة ذاكروا بها ذوي الملكات في وضع المصطلحات السليمة ثم أحيوها بالاستعمال بعد الانفاق عليها، مع عناية أيضاً بسلامة ما ينشر لغة وأسلوباً استطاعوا أن يخدموا خدمة جلّى في وقت يسير إذ أن معجمهم الفني على كل حال صغير إذ قيس إلى مصطلحات الطب مثلاً.
أما الجيش السوري فقد عرفت أن مصطلحاته عربت منذ الحكم العربي سنة (١٩٢٠)، لكن هذه المصطلحات لم تعد كافية إذ جد أضعافها في هذه السنين الأربعين، كما أنه مهامه جميعاً عهدت إلى ضباط نشؤوا على قوة في العربية لساناً وروحاً، فتألفت لجنة من العلماء اللغويين المطلعين على اللغات الأجنبية، وعرض عليها قوائم المصطلحات لكل سلاح من الأسلحة، فعكفت اللجنة على عملها بضع سنين، وأضيف إليها حين بحث قائمة كل سلاح خبير فني من ضباط هذا السلاح يشرح لهم المصطلح أو الآلة بأجزائها وعمل كل جزء، حتى إذا أنهوا عملهم وانتقلوا إلى مصطلحات سلاح آخر وافاهم منه ضابط خبير به، وقد أعجب غير واحد من أعضاء اللجنة اللغوية بقوة هؤلاء الشباب في اللغة العربية وشكروا لي غيرتهم وإخلاصهم (١).
اتخذت اللجنة (المعجم العسكري الكندي) أساساً لعملها الذي نجز في العام الماضي وتم طبعه (فرنسياً عربياً) وبالعكس، حاوياً ٣٥٠٠٠ ألف مصطلح. لن يستعمل غيرها في إدارات الجيش، وهذا عمل – في خدمة العربية ونشرها – غير قليل.

وعلى ذكر هذا المعجم الذي عززت فيه العربية نذكر القارئ بالمعاجم اللغوية الميسرة التي صدرت في ساحل الشام في القرن الماضي وهذا القرن، وربما كان أكثرها رواجاً (المنجد) على ما به، فقد كان طبعها في أسلوب ميسر داعية إلى نشرها بين الناس، وبذلك كثر المقبلون على مراجعة المعاجم.

وقد أحسن كذلك الذين طبعوا مختار الصحاح والمصباح المنير في مصر طبعة جيدة مشوقة، كما أحسن الذين أخرجوا من مختار الصحاح طبعة جيبية للطلاب بدمشق، مما وسع نشره وحبب مراجعته.

فإذا أضفت هذا إلى ما تقدم لك من النشاط المعجمي في مختلف الاختصاصات كالمعجم الزراعي للشهابي والمعجمات الطبية لأساتذة المعهد الطبي العربي (٢) والمعجم العسكري المشار إليه آنفاً عرفت أن اللغة العربية رحبت معركتها في ميادين عدة، وأن هذا الربح حافز للعاملين في بقية الميادين على الاقتداء بسابقيهم، وأنه لن يمضي وقت طويل حتى تصبح اللغة العربية في مصاف اللغات العالمية المتسعة لجميع حاجات الحضارة المادية والفكرية.

الفصل الخامس

في عوامل أخرى

إلى جانب الآثار المجيدة التي مرت بك في إحياء الفصحى حتى الآن ينبغي ألا نغفل عوامل جانبية كانت تدعم الروح العربية القوية وتمكن لها في نفوس الجماهير بعد أن تربعت الفصحى متمكنة في دور الحكومة والمؤسسات العلمية والندوات السياسية نذكر منها :

١- الحفلات العامة والمظاهرات التي يدعى إليها الجمهور أو يحضرها بحافز وجداني، فقد كان يستمع في الأولى، إلى خطباء أبيناء أو شعراء مطبوعين يثيرون النفوس ويحمسونها ويشحنونها تمجيداً للعرب أو إضراماً للنضال سلبياً وإيجابياً، وما أكثر هذه المواسم تقيمها الحكومة أو يتداعى إليها الناس في الأحياء عند الأزمات السياسية أو أيام الانتخاب أو المقاطعات... إلخ ؛ فقد ألف العامة حتى الآميون سماع الفصحى وفهمها بل تذوقها. ولا أنسى حفلة أقيمت في ساحة الشهداء بدمشق ذكرى الشهبندر وزكي الخطيب ومن شعرائها فارس الخوري، وكانت عيني وأنا فتى إلى العامة من مرتدي الأزياء البلدية وإلى القرويين، فما يكاد الخطيب يحط على جملة حماسية تمجيداً للوطن أو حملة على المحتل حتى تراهم يغلون تأثراً وهتافاً وتصفيقاً. أما المواسم الدينية فمن فضول القول الإشارة إلى التزام الفصحى فيها وتتبع الجمهور بقلوبهم كل ما يقال... هذا وذاك مهد للفصحى في أسماع العامة والأميين حتى ألفوها وصار بعضهم يتكلم بها محسناً إلى حد ما، وإن جهل القراءة والكتابة. ويلحق بذلك المؤتمرات العامة التي يتنادى إليها المحامون والأطباء والمهندسون، فهي – وإن كانت خاصة بهم – يُعرض فيها موضوعات ميسرة للجمهور كما أنهم يعنون بتعريب كل مصطلحاتهم ويدعون إلى توحيدها في الأقطار العربة. ولا ننسى أثر حفلات التأبين للمشهورين ومواسم الشعر وما إليها، حيث يستمتع عامة الناس بتذوق الكلام البليغ.

٢- أثر الصحافة في نشر الفصحى، وهو أثر ملموس فإن الصحف اليومية السياسية يقرؤها عامة الناس ويفهمها كل من استمع إلى قارئها من الأميين دون شرح. بل إن أثر

الصحافة لم يقتصر على تأليف الناس على الفصحى، بل ارتفع بهم إلى مستوى أدبي إن صح التعبير. فجريدة المقتبس لصاحبها المرحوم محمد كرد علي كانت أيام الأتراك مدرسة موجهة موعية منورة للعامة والخاصة، وخلف صاحبها أخوه المرحوم أحمد كرد علي، ثن نجيب الريس، وهو كاتب حماسي بليغ، كان يشفي صدور العامة والخاصة في حملاته على الفرنسيين ومواليهم، واسم عارف النكدي في فترة إشرافه على جريدة الأيام ملء الأسماع ولا ينسى أحد ازدحام العامة والخاصة والشبان والطلاب على باب (جريدة الأيام) في انتظار إنجاز الطبع حتى إذا صدرت الباعة تخاطف الناس النسخ ليقرؤوا افتتاحية عارف النكدي. وأسماء يوسف العيسى الصحفي المنطقي وصاحب (ألف باء) ومعروف الأرنؤوط الصحفي الأديب صاحب (فتى العرب) وجبران التويني الصحفي البيروتي وعبد القادر المظفر الصحفي الفلسطيني من المعارف المشتهرة على الألسن. وقل قريباً من ذلك في المجلات المنتشرة حينئذ.

كل ذلك كان له أثر سريع في غرس الملكة العربية في نفوس الناس عامة (١). أما المجلات الرفيعة الهدف كالميزان ومجلة المجمع العلمي ومجلة التمدن الإسلامي، ومجلة الرابطة الأدبية في دمشق، فقد انحصر أثرها في البيئات الخاصة، وعنيت جميعاً بتهذيب اللغة ونقدها، مما عاد بالخير على مستواها عند المتعلمين على اختلاف آثارها سعة وعمقاً.

٣- سهر الحكومة أحياناً على المظهر العربي في البلاد تلبية لإلحاح الجماهير، فعلى أثر فورة من فورات النضال حطم الأهلون كل اللافتات المكتوبة بالفرنسية على بعض المخازن والدكاكين والمصارف (البنوك) وسائر المؤسسات الأجنبية، فاضطر ذلك إلى تشريع يوجب أن تكون كل لافتة مكتوبة بالعربية، وإن كتب فيها شيء بالفرنسية فينبغي ألا يزيد حجمه على الكتابة العربية في اللوحة نفسها. وعمم السيد حسن الحكيم أحد رؤساء الوزارات بلاغاً بوجوب البدء بالتاريخ العربي (الهجري) في جميع الأوراق الرسمية والإذاعات.

واستجابة الحكومة لما يلح عليه الأهلون أسفرت عن إجبار المدارس الأجنبية على تدريس العربية أولاً، وبعد فترة من الزمن التزم مناهج التدريس الحكومية، كما أسفرت عن تعريب لغة المصارف والشركات الأجنبية.

ويذكر هنا افتنان المعلنين في إعلانهم لفتاً للأنظار والتزامهم الفصحى فيما يثبت عند العامة الجمل الصحيحة.

٤- الإذعات العربية على اختلاف محطاتها ومصادرها : أسهمت في نشر الفصحى وتمكينها في النفوس مكملة عمل الصحف، بل إن تأثير هذه أوسع لوجودها في كل دار يستمع إليها الذكور والإناث، الصغار والكبار كل يوم أكثر من مرة. وأكثر إذاعتها كانت بلغة سليمة في الجملة، وبعضها القليل يسمو بالسامعين إلى مستوى رفيع على حين كان بعضها ينحط بضعف لغته أو لحن تلاوته. لكن آثارها في الجملة واسعة في خدمة اللغة العربية. وقد لمس ذلك المعلمون الابتدائيون فقد انخفض عناؤهم في إفهام طلابهم معاني النصوص لمبادرة أذهانهم إلى المقصود، وذلك دون شك من فضل العناية بلغة الإذاعة.

* * *

وبعد فهذه وقفات وئيدة على أهم العوامل في نهضة اللغة العربية الحاضرة في بلاد الشام، ولئن كان حظ (سورية) من التفاصيل أكثر من حظ بقية أجزاء الشام الإدارية (لبنان، الأردن، فلسطين) إن ذلك لا يعني شيئاً من الحكم العام الذي ينتظم هذه الأجزاء جميعاً، ولعل كون (سورية) قلب العالم العربي بحق من جهة، وعيشي في هذه التفاصيل بحيث كانت مراحلها المتسلسلة مراحل حياتي شاهدتها وعشت فيها جزءاً جزءاً أوجبا على أن أنحو هذا النحو الذي رأيت، وحق على كل من عايش طوراً أن يؤرخ له كما عاينه، ومن تمحيص هذه المعاينات على اختلافها يسهل الوصول إلى الحق ولولاها لضاع كثير من التاريخ الصحيح.

ملحق النصوص

نماذج ونصوص

اللغة العلمية (١)

للدكتور محمد جميل الخاني

أستاذ علمي الأمراض الجلدية والزهرية وعلم الطبيعة العام في الجامعة السورية

« أتى على اصطلاحات العلوم والفنون ولا سيما الطبية منها حين من الدهر وهي تتخبط في دياجي الإبهام.. فاعتراها التشويش والتحريف، واستولت عليها الأغلاط والتصحيف، حتى أصبح اللفظ يوضع لغير ما سمي به، فانتشر الالتباس في الألفاظ وسرت الفوضى في الأسماء، فأصبح كل ما يسمّى الشيء بما تهواه نفسه، مما أدى إلى توالي العقبات في سبيل التفاهم وسد في وجوه مريدي العلوم أبواب السهولة والإقبال... حتى لا يكاد الإنسان ينتهي من قراءة صفحة إلا ويمر عليه من المصطلحات أنواع وألوان من عربية وفرنسية ولاتينية ويونانية وغير ذلك.

ولما كنا قد أخذنا علومنا عن الترك سرت إلينا بالطبع هذه الفوضى اللغوية، وأصبح الإنسان يتردد في كلامه مع غيره في حديث علمي خوفاً من أن يتفوه بألفاظ لا يفقهها سامعه، وكان كل منا يظن نفسه متقناً لمصطلحات العلوم. ولما تبين لنا أننا نخبط خبط عشواء أسفنا لذلك، ووددنا أن نثقف ما اعوج من أساليب لغتنا، ولذلك أحببنا أن نبين للقراء هذه الأغلاط ليشاركونا في الانتباه إلى ما انطبع في أدمغتنا من الكلمات غير الصحيحة، ونستبدل بها صحيحها خدمة للعلم واللغة.. إلخ.

تثقيف الألفاظ

١- من الأغلاط الفادحة لفظهم (منكب ومغبن ومهبل ومأبض) على وزن (مفعل) (١) بكسر الميم وفتح العين وذلك خطأ، والصحيح أن هذه الأسماء على وزن (مفعل) بفتح الميم وكسر العين. وأما (مرافق) فإنه يصح فيه الوجهان (أي بكسر الميم وفتحها ومرفق) وأما (معصم) فإنها لا تلفظ إلا بكسر الميم وفتح الصاد.

و (مبيض) لفظة مولده لا يعثر عليها في المعاجم، وهي إما أن تعتبر اسم آلة أو اسم مكان، والوجه الثاني أرجح لأن أسماء الآلات سماعية كما في (شرح الشافعية للعصام) إذ قال : « هذا الوزن سماعي ليس بقياس » ويعني به وزن اسم الآلة. ونفي القياس صريح في حاشية الجار بردى على شرح الشافعية لعبد الله.

وإذا اعتبرت اسم مكان كان لفظها (مبيض) وكسر الباء لأنها مشتقة من (باض يبيض) وهو فعل صحيح الآخر مكسور العين في مضارعه فيكون اسم مكانه (مبيض) على وزن مفعل بفتح الميم وكسر الميم وبعد إعلاله بنقل حركة الياء إلى ما قبلها وتسكينها يصبح (مبيض) (٢).

٢- ومنها قولهم (خنجره) (٣) وهي من المضحكات، والغلط الأول فيها لفظ الحرف الأول (خاء) وصحيحه (حاء)، والثاني لفظ الثالث كحرف مزيج من تاء وشين، وهو حرف أعجمي [تركي] لا وجود له في الأحرف العربية. وصحيح هذه الكلمة (حنجرة) بفتح الحاء والجيم أو (حنجور) بضم الاثنين.

(تلثيم المصطلحات)

١- ومن الألفاظ التي لا تنبطق على مدلولها أصلاً إطلاقهم كلمة (وعاء) على كل مجرى يسير فيه دم أو بلغم، والحقيقة أن كلمة (وعاء) تطلق على كل ظرف يوعى فيه الشيء، أي يحفظ، ولا تختص بما يسير فيه الدم ؛ على أن كلمة (عرق) هي التي تدل على المعنى المطلوب، لأن في كتب اللغة : (العروق من البدن أوردته التي يجري فيها الدم) فيفهم من ذلك أن العرب سموا مجاري الدم عروقاً ولم يسموها أوعية.

ومنشأ الخطأ هو أنه عند ما ترجمت كتب التشريح من الفرنسية فتش على مقابل (Vaisseau) فوجد : وعاء. فليت شعري إذا كان لا يوجد في اللغة الفرنسية كلمة مخصوصة لمجرى الدم هل نكون مضطرين لترجمة لغتهم على علاتها ونبذ لغتنا وراء ظهورنا ؟ والخلاصة أنه يجب ترك لفظ (الأوعية الدموية) وأن يقال بدلاً منه (عروق الدم) وهو لفظ عربي فصيح.

٢- ومنها تسميتهم الخلط الأبيض الذي يسير من عروق مخصوصة له بـ (اللنفا) المعربة عن الألسنة الأجنبية، على أنه لا حاجة لذلك التعريب لأن مقابلها بالعربية هو (البلغم) أحد الأخلاط الأربعة المشهورة، فيجب أن يقال لمجاريه (عروق البلغم) لا (الأوعية اللنافوية) كما يقولون.

٣- ومنها قولهم : (أوعية شعرية) اسماً للعروق الصغار، وهو خطأ فادح، لأنه يفهم من نسبتها إلى (الشعر) أنها مكونة منه، ولا يفهم أن القصد تشبيهها في الدقة مع أن العرب سمت هذه المجاري بـ (العروق الدقاق) فيجب استعمال هذا اللفظ الصحيح وترك ذلك اللفظ الذي ليس من العربية في شيء.

٤- ومنها قولهم (الغدة تحت الفكية) و (العضلة فوق الفكية) و (النسيج تحت الجلدي) و (الأمراض طرق البولية) وما أشبه من التراكيب التي لا يمكن جوازها بوجه من الوجوه، لأنه لم يذكر أحدهم صحة دخول ياء النسب على أحد جزأي الإضافة مع بقاء الجزء الآخر، بل قالوا : إنها إذا دخلت على المضاف [في مثل هذا] حذف المضاف إليه والعكس بالعكس، حسب قواعد مبينة عندهم.

والصحيح أن يقال (الغدة تحت الفك) وتقديرها (الغدة الكائنة تحت الفك) بحذف الكائنة لأنها متعلق عام، أو أن يقال (غدة تحت الفك) بالإضافة، وقس عليها أشباهها. وأما (الأمراض طرق البولية) (١)، فالأصح أن يجعل منها إضافة يقال (أمراض طرق البول) أو (أمراض مسالك البول) ومثلها ما يشبهها.

فتى مغبني عَرْطل(١)

للحكيم (لوسركل) أستاذ السريريات الخارجية

ترجمة الدكتور مرشد خاطر

تسمحون لي بعد أن ذكرت بعض المجلات الجراحية فتوقاً ضخمة ورسمت رسومها أن أقدم لمجلتكم رسمين يمثلان مريضاً عمره (٣١) سنة، ومهنه لحاد، كان مصاباً بفتنق مغبني أيسر غير قابل الرد، أجريت عمليته في حزيران المنصرم (سنة ١٩٢٥)، وقد رغبت في نشر هذه الحادثة لأن هذا الفتق غريب بحجمه ومحتوياته وطريقة إجرائه :

أما حجمه فهو ضخم جداً ولم أصادف له شبيهاً مع أنني مارست الجراحة منذ مدة طويلة فهو خليق بأن يدعى « عَرْطلاً » لأنه لا يقل حجماً عن الفتوق التي سميت بهذا الاسم ونشرتها المجلات الجراحية، ولعله يفوقها حجماً وهذه هي مقاييسه :

طوله من العانة حتى قطب الفتق السفلي ٤٥ سنتيمتراً

محيطه عند جذره ٣٥ سنتيمتراً

في أغلظ مكان منه ٦٥ سنتيمتراً

ويخيل للناظر إليه كما يبين الرسم الأول أنه «ورم فيلي » فهو يتجاوز الركبة في حالة الوقوف، وأما حين استلقاء المريض على ظهره فإنه ينبسط على فخذي المريض ويقصر سانتيمتراً واحداً أو ساتيمترين، إلا أنه يزداد حينئذ عرضه بقدر

ما ينقص طوله. وكانت تبدو على الصفن أوردة متوسعة توسعاً كبيراً. أما محتوياته فكانت : القسم الأكبر من المعي الدقيقة والأعور الذي كان كثيفاً متوسعاً يصحبه الذيل الدودي، وقسم كبير من القولون.

أما العملية الجراحية فقد تم إجراؤها كما يلي :

بعد أن خدر المريض تخديراً قطنياً بحقن أربعة سانتيمترات (ستوفايين) جعل في وضعة مائلة، وشق الجلد لا يختلف عن الشق العادي إلا بكونه أطول منه وذلك من مقتضيات الحالة الحاضرة. وبعد أن فتح الكيس الفتقي وفكت بعض الالتصاقات بدأت بإعادة المعي الدقيقة إلى الجوف البطني من وراء القولون. وقد اضطررت إلى قطع المنحرفة الصغيرة لكي أتمكن من إعادة الأعور والقولون اللذين كانا متوسعين وكثيفين لأن ردهما كان الزمن الأشد صعوبة من أزمنة العلمية. ولم أتعرض للذيل الدودي مع أنه كان كثيفاً بعض الكثافة أسوة بالأعور.

وبعد أن تم الرد ظهر الصفن كأنه جوف كبير قد فقد مرانته، ولم يكن بد من قطع قسم كبير منه، وكان قطعه شاقاً متعباً. وكان الكيس الفتقي ملتصقاً به أشد الالتصاق، والخصية اليسرى الضامرة مدفونة في جداره فلم أتعرض لتفريقه وإنما اكتفيت بتفريق جذره وربطه وسد الفوهة البطنية، ثم قطعت القسم الكبير من الصفن ووجدت صعوبة كبيرة في قطع النزف الذي كان غزيراً.

أما الأيام التي تلت العملية فقد كانت شديدة، لأن المريض أصيب بعد (٤٨) ساعة بذات الرئة اليمنى، ولأن الجرح تمزقت قطبه فابتعدت شفتاه إحدهما عن الأخرى، ولأن جذمور الكيس الفتقي الذي كان قد ربط كفم الكيس أصيب الموات ؛ غير أن هذه الأعراض الموضعية تحسنت جميعها بعد إجراء حقن (سيانور الزئبق) وكان يجب أن يحقن بها

المريض قبل العملية لو كان انتبه إلى الندبة القديمة التي كانت موجودة على قضيبه. ومهما يكن فقد شفي المريض شفاءً تاماً وعاد إلى مهنته بعد مرور شهرين. وقد رأيته ثانية منذ بضعة أيام فرأيت جدار قناته المغبنية متوسعاً بعض التوسع كما يبين الرسم الثاني غير أنه لا يحتاج إلى عملية ثانية.
وبهذه المناسبة أوجه أنظار الزملاء الكرام إلى توسع أوردة الصفن التي كان مصاباً بها هذا المريض والتي اضطرتني إلى صرف وقت طويل في أثناء العملية توصلاً إلى قطع النزف ؛ فقد روى لي زميل حادثة مريض كان مصاباً بفتق عرطل، فعالجه أحد الدجالين بالكي السطحي، ويظهر أن الكي أصاب وريداً فبزله وكانت النتيجة أن نزف دم المريض فمات.
مجلة المعهد الطبي العربي ص ٥١٢ ــ ٥١٦ من جزء تشرين الثاني ١٩٢٥.

الباب الرابع

مشكلات مزعومة

سلطت على الشرف العربي منذ أكثر من مئة عام، أضواء كاشفة قوية، وهو يغط في نوم عميق، فعاين الغرب جهلاً جاهلاً في شعوبه وغفلة في حكوماته، وأقطاراً وافرة الخيرات والغلات، غنية بالثروات المعدنية، فتحلب ريق الاستعمار وهو أضرى ما كان تحفزاً للافتراس، فأخذ يمد شباكه، ويحكم خططه ليستأثر بخيرات الشرق، ويجعل من سكانه عمالاً يقادون دون وعي منهم، وكان أشد ما يحرص عليه إبقاء سحب الغفلة والبلادة مخيمة على البلاد العربية، حتى لا تدرك نفسها، ولا تحس بوجودها بله إدراك ما حولها.
لم يفت الدول الغربية الطامعة في الاستيلاء على البلاد العربية أن في الشرق قوتين مخيفتين صدئتا مما تراكم عليهما من قشور وأتربة، فإذا تنبه الشرق إليهما وأزال الركام عنهما وأحياها بالاستفادة منهما فقد خابت آمال الاستعمار خيبة الأب، وهما الإسلام، ووحدة هذه الأمة التي لا تشعر الآن حتى بوجودها. فكان لا بد من رسم الخطط في ميادين شتى لإبعاد هذا المارد النائم عن اليقظة، فإذا استيقظ بحكم الزمن الذي لا يقاوم، حيل بينه وبين الالتفات نحو مصار خيره وقوته ليستمتع الغريب بالاستئثار بخيراته أطول زمن. ولا يعنينا هنا إغراق بلادنا بالبضائع الكمالية وما تبعه من ابتزاز اقتصادنا حتى صرنا المقوّي الأول لعدونا علينا، ولا سهره على تطويق الدول بالديون فالرقابات فالاحتلال لحماية مصالحه، كما لا نعرض لكدحه الدائب في بذر الشقاق الدائم بين حكومات الشرق العربي وإماراته ثم بين فئات الشعب الواحد حتى صارت كل فئة أو طائفة تكره أختها وتتربص بها الدوائر ، وأن يأتي الأجنبي فيحتل ليذيقها الهوان، وتكون هي ساعده الأيمن في شفاء غلها من أختها ؛ فكان لروسية طائفة تعمل لمصالحها، ولإنكلترا طائفة تمهد لها الاحتلال، ولفرنسة طائفة ولإيطالية طائفة وهكذا.
لا نعرض لهذا وإنما لميدانين تضافرت قوى هذه الدول المتنافسة كلها على العمل فيها، وجندت ما استطاعت من علماء مختصين وأموال ولجان وصحافة ومؤسسات لتكسب فيها المعركة، وهما ميدان التبشير الديني وميدان التهديم اللغوي. ولعل هذا التقسيم شكلي والغاية

من الميدانين واحدة هي تجريد الشعوب من قوتها النافخة فيها الحياة باستمرار، وموضوعنا الآن الميدان الثاني أي التهديم اللغوي.
لا أستطيع القول : إن الغرب هزم على طول الخط بعد جهود استمرت أكثر من مئة عام، فإن مجنديه من أهل البلاد أنفسهم، وإن كانوا قلة، لا يزالون يحملون سلاحاً خلفاً عن سلف، وإن السلاح الذي وضعه في أيدينا لننتحر به ما زال قوم يلوحون به بدل أن يرموه في وجوه أصحابه، على رغم مئة عام تنبه بعدها النائم ووعي الغافل، وما زالت هذه المشكلات الخرافية التي زعم أنها في لغتنا يصرخ بها ناعق من هنا وناعق من هناك، وكان الحزم ألا يبالي بهم ولا بردها أحد حتى تموت على أفواه زاعميها، لكن هذا لم يكن، ولبث أفراد يزعمون للعربية صعوبات ويعمون عن أشد منها بكثير في لغات أسيادهم الذين جندوهم لتهديم العربية، وإذن لا بد لنا من كلمة عن كل من هذه المشكلات المزعومة الثلاث وهي :
١- تباين العامية والفصحى ٢- الحرف العربي ٣- القواعد والإعراب
ومع علمي أن هذا الهجوم تنفق عليه ميزانيات ضخمة من إدارات استعمارية وتبشيرية ما فتئت تتدفق، وأن النزعات العدائية التي تبث سراً وعلناً لم تحقق الغاية منها، وأن المخططين أنفسهم أصبحوا في يأس من القضاء على العربية ووحدة شعوبها الروحية.
مع هذا كله أعد لهم نجاحاً أن استطاعوا أن يعيقوا القافلة عن السير أزماناً متفرقة غير قصيرة، وأن يشغلوا الركب عن هدفه بفتن وعوائق ومجادلات صلي بنارها أفاضل كثيرون من غير مجنديهم، وليس هذا بالقليل.

-١-

تباين العامية والفصحى

العربية الفصحى لغة جامعة يقرؤها اليوم ويكتبها ويستمع إليها نحو ثمانين مليوناً من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، يصغي الكويتي في أقصى الشرق العربي إلى إذاعة الرباط في أقصى الغرب كما يصغي إلى إذاعة الكويت نفسها، ويفهم الرباطي المغربي إذاعة الكويت المشرقية فهمه لإذاعته المغربية. بل إن المسلم الصيني المتعلم أو البخاري ليدخل المغرب العربي فيفهم عن علمائه ويفهمون عنه بهذه العربية الفصحى التي اتسع انتشارها منذ ثلاثة عشر قرناً فكانت إلى اليوم أقرب إلى اللغة العالمية، وليس ببعيد اليوم الذي تصبح فيه فعلاً إحدى اللغات العالمية.
هذا الواقع الملموس هو الذي كان شجى التبشير والاستعمار منذ مئة عام، فحرصا على إضعافه، وأعدا لزلزلة عقائد أهله فيه، بالدعوة إلى حركة رجعية انحطاطية، هي إحياء العاميات المحلية في كل بلد، والكتابة بها، وإهمال الفصحى مرة واحدة، إذ كان في تعلمها جهد وليس في العامية جهد، فإذا نجحت هذه الدسيسة حل محل اللغة الواحدة عشرات من العاميات المحلية، وتبعثرت هذه الأمة الواحدة إلى عشرات الشعوب، وحينئذ يسهل على دول الغرب ازدراد هذه اللقم الصغيرة فيما بينها، وإذن ملكوا البلاد بأهلها وخيراتها ؛ فدارت معاملهم ومصانعهم بمواد الشرق الخامية، ومحيَ من الوجود اسم الأمة العربية ليحل محلها عشرات الشعوب وعشرات اللغات (المالطية). وشجع القوم على المضي في خططهم وتمويلها أن التجربة نجحت إلى حد غير بعيد في جزيرة مالطة، حيث نصرها الاستعمار الإيطالي من مئات السنين ثم حمّل لهجتها العامية أحمالاً من اللغة الإيطالية،

وتسلمها الاحتلال الإنكليزي فأتم ما بدأ به زميله فقسر أهلها عن الكتابة باللاتينية فصرت الآن تصغي إلى المالطيين في حوارهم فلا تعرف بادئ الأمر أنهم عرب، وتظن أنهم صنف من اللاتين، فإذا حققت ما يلفظون عرفت أنها لغة عربية، بعدت بها الدار والأزمان، فلم يبق من عربيتهم غير الرائحة واللون وبهذا خسر الآن ربع مليون عربي أواصرهم مع أبناء عمومتهم وأصبحوا شعباً ضائعاً بين الشعوب. ومع أن قياس البلاد العربية الواحدة المتجاورة على جزيرة صغيرة ألقيت بين البلاد اللاتينية قياس فاسد كفساد قياس ربع مليون فريسة للتبشير والاستعمار على ثمانين مليوناً فيهم أشد المناعة على التبشير والاستعمار، مع هذا لم ييأس الغرب ورضي من الغنيمة بالتهديم والتعويق، فأفاد من الغفلة المستحكمة في الشعوب العربية، ومما بث من الشقاق الطائفي والعداوة والبغضاء ففجّر بين الفينة والفينة ألغامه في الدعوة إلى العامية فلم يخل تفجيرها من أضرار.

* * *

حين ينفرط عقد دولة من الدول العظمى إلى دويلات في عصور انحطاطها، يتبع ذلك تقطع الأواصر بينها بالتدريج في السياسة والاقتصاد، بحيث تصبح كل دويلة شعباً مستقلاً يباعد الزمن بينه وبين أشقائه، ويقل تبعاً لذلك الاتصال الفكري والاجتماعي، وتنطوي كل منها على نفسها في بيئتها الضيقة، ويتولد في هذا التفكك الاجتماعي تفكك فكري ثم تفكك لغوي منحدر، وهذا هو منشأ اللهجات العامية المحلية تتجلى أعراضاً مرضية لا تعرفها الأمة في صحتها وقوتها ووحدتها.

دعا الدعاة إلى العاميات المحلية في بلادنا منذ مطلع هذا القرن، وكانت الحجج التي أدلوا بها هي الحجج التي نسمعه اليوم مرددة مملولة ممجوجة، لم تتغير ولم تتبدل :

يجب أن نكتب للناس باللغة التي يتداولونها في السوق.

إن الفصحة لغة ثانية غير لغة التخاطب، ولا يتوصل إليها بعد دراسة ومرانة.

العامية سهلة والفصحى صعبة، فإذا ألفنا بالأولى نشرنا الثقافة في ميدان متسع ولم نحرم غير المتعلمين.

العامية لغة الحياة في الأسواق والمنازل والفصحى لغة الكتب على الرفوف، والحياة تفرض قانونها على رغم الأنوف.

إن تلميذ المدرسة في البلاد العربية يلاقي في ازدواج اللغة بين منزله ومدرسته ما لا يلاقيه زميله الأوربي... إلخ.

ويطيب لي أن أترك للحياة نفسها رد هذه المزاعم، وقد ادعى الزاعمون مراعاة قانونها، وقد ردت علهم فعلاً، إذ تطورت هي بأهلها نحو الأكمل الأرقى، وبقوا هم على جمودهم يرددون ما قال سابقوهم قبل ستين سنة وإليك البيان :

كان يرد الكتاب بالبريد قبل سبعين سنة على صاحبه فيطوف على أهل الحي كله فلا يجد من يقرؤه، ويتخاطف التجار من يحسن الأعمال الأربعة في الحساب ويشار إليه بالبنان : هذا يعرف (الهندي) يريدون الحساب، فأدلى حينئذ دعاة العامية من عملاء التبشير والاستعمار أو المخدوعين من ضحاياهما بالحجج السابقة، أما اليوم، بعد سبعين سنة حين لم

يكد يبقى في الأمصار والقرى طفل لم يتعلم القراءة والكتابة بالفصحى، فلا يزال الدعاة ينعقون بالأقوال نفسها غافلين عن المدى البعيد الذي قطعته البلاد في العلم والعمران.
أيام كان السفر على الدواب فلا طرق ولا مواصلات ولا سيارات ولا طيارات، كان الأمي الدمشقي إذا لقي الأمي البيروتي (بين البلدين مئة كيلومتر) قبل سبعين سنة تفاهما بصعوبة إذ كانت لكل عامية منهما مفرداتها وأساليبها ونبراتها، بل إني أذكر محادثة بيني وبين رجل في الثمانين مضى على انقطاعه عن دمشق خمسون سنة فاتني معرفة عدد من كلماته العامية كانت حية قبل خمسين سنة، ثم حلت محلها مع الزمن فصاح لا غبار عليها، واستحييت أن أسأله عنها، أما اليوم فتحدث إلى كل أمي في دمشق فستجد في حديثه عن السياسية أو الغلاء أو الحوادث الخارجية المفردات نفسها التي تسمعها من المذيع أو الكاتب أو الخطيب، وتقرأ لهذا الأمي الجريدة أو يسمع الخطبة فلا يفوته منها شيء، لقد خطا الزمن بهؤلاء الأميين العوام نحو الفصحى خطوات فساحاً تدور رؤوس أولئك الرجعيين الجامدين دعاة العامية من سعتها، ومع هذا يصطنعون الرفق بهذا العامي الذي يضحك من حججهم ويأنف من تصورهم فيه التخلف وبلادة الذهن.
أرأيت كيف ردت الحياة أفصح رد على الرجعية اللغوية المأجورة التي ادعت نصرة قانون الحياة، ثم حاولت بجهدها أن تعود بالأمة سبعين سنة القهقرى إلى أزمان الجهل والغفلة والنوم والجمود.
وأعود الآن إلى دعوى انفرادنا بازدواج اللغة دون الأمم الراقية وشفقتهم المصطنعة على طفلنا في المدرسة من ازدواج لا يلقاه زميله الأوروبي لأسأل : هل هذا صحيح ؟ لقد كان يقبل هذا القول على عواهنه قبل سبعين سنة، أما اليوم وبعد أن خالط الأمم الغربية عشرات الألوف من العرب دراسة وتجارة وسياحة، فيبعث هذا القول الرثاء لقائليه إذ كانوا لا يضحكون إلا على أنفسهم.
أي لغة غربية لا ازدواج فيها بين لغة الأزقة ولغة المتعلمين ؟ آلألمانية ؟ آلفرنسية ؟ آلإنكليزية ؟ لا شيء من ذلك البتة والذي يعرف الفرنسية أو الإنكليزية في قراها يدرك فارقاً يذكر بالفارق بين فصحانا وعامياتنا، بل إن الفرنسية الفصحى لم تكن لغة الشعب الفرنسي الدارجة، وإن الفرنسيين كانوا يجهلون هذه اللغة الجديدة التي انتشرت بواسطة وسائل التثقيف والوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهذا المنطق الفرنسي هو غير المنطق الذي طلع به علينا دعاة العامية في لبنان، فهم يريدون أن يجعلوا من العامية لغة جديدة، أما في فرنسة فقد أزيلت اللغات العامية، وأقيمت مقامها الفصحى... ولا يزال الباريسي حتى اليوم لا يفهم لأول وهلة المواطن الفرنسي الذي يسكن في ليموزان ( ) أو يتكلم لهجته ولغته المحكية المعروفة بالباتوا ( ) (١).
والألمانية تنحو هذا النحو بتغليب فصاحا على اللهجات الدارجة فقد جاء في (الرسالة) (٢) التي تصدرها إدارة الصحافة والإعلام لحكومة ألمانية الاتحادية « أن اللغة الألمانية الشعبية – وتدعى بلات – هي من والوجهة اللغوية التاريخية أقدم من لغة الكتابة أي التي أصبحت اللغة الفصحى الشاملة – وتدعى (هوخ) أي الرفيعة – واللغة الشعبية تمت بالنسب إلى اللغة الهولندية وإلى اللغة الأنكلوسكونية السابقة التي تطورت فيما بعد فأنتجت اللغة الإنكليزية ».

وهكذا نجد أن دعاوي أنصار العامية لا يؤيدها واقع ما، بل أن الواقع والحقائق تؤيد عكسها، فهذه الأمم الراقية وجدت من دواعي المحافظة على وحدتها واطراد رقيها الحضاري إنشاء لغة فصحى جامعة، ونحن حبانا الله فصحى قوية راقية قد جمعتنا فعلاً في وحدة روحية مضى عليها أربعة عشر قرناً نتمنى الأمم الراقية أن تحظى ببعضها، فلما لم يكن لها فصحى سعت هي سعياً حثيثاً فخلقت فصحى مفتعلة، ومضت بها إلى الأمام، ووجد في بلادنا من يدعو إلى تفكيك هذه الوحدة، وطرح تلك الفصحى لنتشبه – زعموا – بالأمم الراقية. وقد عرفت شأن الأمم الراقية الآن.

هبط مصر مطلع هذا القرن عدو لدود من أعداء العرب ولغتهم وهو المستر (وليم ويلكوكس) ولم يكن الوعي يومئذ في مصر بالقوي، والمحتلون بأيديهم القوة والمال، والحكام المتسلطون ينفذون رغبات الاحتلال، فحشد المستر (ويلكوكس) كل ما استطاع من قوة، ونزل إلى الميادين يدعو إلى العامية والكتابة بها، وجعلها اللغة الرسمية، كتب في ذلك وخطب وحشر الأعوان والصحافة المأجورة، كل ذلك مباغتة دون أن يستعد أهل البلاد لمقاومته، ثم بدأ أهل الرأي يرجعون إلى أنفسهم ويردون عليه، لكن حملاته المركزة المباغتة كادت تكسب له المعركة لولا لطف الله، إليه أشار الشاعر الكبير حافظ إبراهيم رحمه الله، في قصيدته المشهورة (على لسان اللغة العربية) وقد نظمها حول سنة ١٩٠٨ بقوله :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادي بوأدي في ربيع حياتي

وكان للاحتلال الإنكليزي بمصر صحف مأجورة، لم تن في نصرة رأيه، ثم تتابع دعاة العامية في فترات متقطعة يجهرون بها، ويلقون بعض التأييد من أفراد أولعوا بكل شذوذ يأتي من الغرب، ويكفل لهم بعض الظهور واللمعان فترة ما. ثم كانت تظهر هذه الدعوة على أقلام بعض أدعياء التجديد، يغرون بها الشبان على مقاعد الدرس، وتموت بعد أيام شأنها شأن كل هزل لا تعبأ به الحياة.

ولم تخل الشام من مثل ذلك، فكانت هناك مراكز أجنبية تغذي هذه الدعوة وتمدها وتهيء لها المال والمنابر والرجال والنشرات، وعمل الفرنسيون في الخفاء ثم ظهر لهم عقمها، فطووها من داخل الشام (حكومة سورية) بعد أن ضحك عليها، وركزوها في ساحله (حكومة لبنان الكبير) حيث أفادتهم جهودهم السابقة في خلق الكره الطائفي، ثم إذكائه باستمرار، واستعانت به فأعانها على تهديم اللغة العربية الفصحى والتشكيك فيها والدعوة إلى العامية اللبنانية.

وأذكر أن أحد رؤساء البلديات في دمشق أيام الاحتلال الفرنسي جاء على لسانه خطأ كلمة (اللغة السورية) فأوسعته الصحف الفكاهية تهكماً وتنكيتاً وتصدت له الصحف اليومية، فلم تنبس بها شفته بعدها قط.

ولا عجب فروح الشام عربية قوية، تتغالى في كل ما يحفظ على الأمة وحدتها الجامعة، والعربية الفصحى من أول العوامل، وقد عرفت في المحاضرة الأولى جهودهم الخطرة في المحافظة على اللغة العربية، بل أن الصرخة في تنقية اللغة من الألفاظ العامية قديمة (١)، وعلى كل يبدو لنا استرحنا منها في داخل الشام، وبقيت في ساحله تزعج الآمنين المطمئنين على أوطانهم ولغتهم واستقلالهم.

من مباءات هذه الدعوة خلية في الجامعة الأميركية تعلن وتسر، وتلف وتدور، تدعي التيسير والدراسة الخالصة وتبسيط القواعد، فإذا قرأت هذه المحاولات عرفت أن الغرض ليس دراسة اللهجات وإنما العمل على ترسيخها وتوسيع الشقة بينها هي أنفسها، ثم بينها وبين اللغة الفصحى، وأن تبسيط القواعد ليس المقصود، ولكن بلبلتها، ثم هدمها لتبني على شكل النحو الفرنسي، وما وجدته في هذه الجامعة تجده في بعض المؤسسات الأجنبية الإكليريكية، وقد أنفق في فترات مختلفة على طبع الكتب الآتية، ويكفي إثبات أسمائها مع أسماء مؤلفيها لتعرف الحافز والنزعة والجهات التي خُدمت بها :

١- محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها.
٢- نحو عربية ميسرة (كلاهما لأنيس فريحة الأستاذ بالقسم العربي **!** من الجامعة الأميركية **!!**)
٣- التحفة العامية في قصة فينانوس (بالعامية والحرف العربي)لشكري الخوري.
٤- في متلوهلكتاب ؟ للخوري مارون غصن.

وهناك محاولات طبعت بالعامية والحرف اللاتيني مثل :

١- قواعد اللجة اللبنانية – السورية (**!!**) للأب رافائيل نخلة، بالفرنسية، وقد كتبت النصوص العربية بالحرف اللاتيني.
٢- يارا : بقلم سعيد عقل، شعر بالعامية وبالحرف اللاتيني (١).

تنبه لهذا الخطر غير واحد في لبنان، لأنه تقمص ثوباً طائفياً، وأفاد من الوضع الشاذ للحكم هناك، وغذته موارد أجنبية لا رقابة عليها، بل يكاد الرقباء يسيرون بوحي هذه الموارد، وخير أن أدلكم على آخر ما قرأت لهذا الفريق الواعي : رسالة للدكتور سعيد شهاب الدين عنوانها يقولون، عارف بدخائل هذه الفئة وقد تكفل بتزييف ما أسموه بالحجج، ودل على حقيقة مصادرهم بحيث لا يبقى ذرة من شك في أن التعصب الطائفي والارتباط بالأجنبي هما باعثا هذا المرض في لبنان، والرسالة بحث هادئ يستقصي عروق العلة من جذورها، ويخرج قارئها بالحقائق التالية على هذا الترتيب :

١- الأقليات العنصرية والطائفية والإجرامية من العوامل في نمو الأمراض اللغوية، ومثل لذلك باليهود الذين اصطنعوا لهجة (اليدش Yidich) في ألمانية، وبلهجة الأرغو (Argot) الفرنسية لهجة المجرمين والنشالين والمشعوذين في الأصل – ص ٩.
٢- اللهجات اللبنانية نتيجة التقسيمات السياسية في الوطن العربي ونتيجة المحاولات الانفصالية التي أثارتها الأقليات العنصرية والطائفية – ص١٠.
٣- تثبت المقابلة بين اللغات أن الاتجاه العامي اتجاه هابط تقهقري، أما تطور الفصحى فهو الخلق الواعي والتطور الصاعد. ص ١٤.
٤- محاولة إيجاد عامية مشتركة من العاميات توقع في مآزق ومتناقضات – ص١٨.
٥- الزمن الذي كانت تعتمد فيه (ألفباء) معينة لنشر ديانة معينة ولّى إلى غير رجعة – ص٢٠.
٦- أي لهجة من اللهجات اللبنانية الكثيرة تريدون أن نقبل بها : الزحلاوية أم البيروتية أم الطرابلسية أم الجنوبية أم البقاعية أم حسب الأحياء والوديان الكثيرة في لبنان ؟ ولغة آي

تجمع بشري تريدون أن تعتمدوا : لغة الفلاحين أم لغة (البورجوازيين) أم لغة المحاشش والسجون... ؟ وكلها لهجات غير مكتوبة – ص٢٤.

٧- الواقع أن عقول دعاة العامية هي التي جمدها الاستعمار في قوالب طائفية وسيرهم ضمنها حتى يحاربوا الاتجاه الوطني العربي – ص ٣٠.

٨- لم يستفد هؤلاء الدعاة (والمراد مستأجروهم الأجانب طبعاً) من عبر التاريخ في مثل المحاولات الأثيمة لتتريك العرب وفرنسة المغرب العربي وسورية ولبنان – ص ٣٣.

هذا وليس في بقية أجزاء الشام (بفلسطين والأردن) أثر يذكر لمثل هذه النزعات التي توشك أن تصبح في لبنان نفسه بعد انتشار الوعي المتحرر من النفوذ الأجنبي أهكومة يتندر بها الصبيان.

* * *

وبعد فم يورد دعاة العامية شبهم لم تدحض، وهم أنفسهم لا يعتقدون ما يدعون أمام الناس، ففي ثقافتهم وسلامة عقوهم ما يستبعد معه ألا يعرفوا البديهيات التي يعرفها الصغار، وإلا فهل هناك قياس بين العامية والفصحى في مجتمع يعيش في حضارة العلوم والفنون، ونحن لا نظن بأحد مما ينحط في بلادة الذهن أن يقابل بين عامية تتغير كل بضعة كيلومترات، لا مساك يمسكها ولا قاعدة تبنى عليها ولا أدب فيها ولا علم، وفصحى حملت تراث الحضارات آلاف السنين وكانت قواعدها من الأصالة بحيث تقرأ على الناس اليوم خطب ابن أبي طالب وشعر المتنبي فلا تلبث أن ترى آثار البلاغة فاعلة فيهم فعلها، لقد فهموا وتذوقوا وترنموا كما فعل أسلافهم قبل ثلاثة عشر قرناً لما سمعوا خطب الأول، وكما فعل سامعو شعر المتنبي قبل ألف عام.

لا سبيل إذن إلى مقابلة، بل لا سبيل إلى مقاربة فكيف يكون سبيل إلى مفاضلة ؟ إنها دعوة يجب أن يبحث عن دواعيها في غير ميدان العلم واللغة، في ميدان التبشير والاستعمار اللذين جندا الطائفية الذميمة لتهديم صرح الأمة العربية الواحدة، فلما أخفقت المحاولة لم يسحب القواد المستهترون جنودهم من الميدان بل أبقوهم يعيقون البناة عن البناء و :

إذا لم تكل إبلُ فمعزى

ولا أرى لأحد من أهل الضل والغيرة أن يشتغل برد كيد الكائدين من دعاة العامية، فإن ذلك يثبت لهم وجوداً وهو الأمر الذي يبغونه ومن معاشهم، لندعهم ينعقون ولنمض في سبيلنا المرسومة نتمم ما بدأته أجيالنا قبلنا، ولنأخذ القدوة من أرقى أمم الحضارة التي تعتز بوجودها اللغوي الرفيع وتتمسك به على ما فيه من عوج وعقبات وصعوبات و (لامنطقية)، ولم نسمع أحداً ضاق بشذوذ في نطق أو رسم أو التواء في قاعدة، فإذا خطر لمتحلل أن يرد كلمة شاذة إلى قياس هب الرأي العام بمجالسه وندواته وصحافته ومجامعه ينافح التحلل، ويذوذ عن قدس اللغة كل من حاول مسه ولومساً خفيفاً. هذه اللغة الألمانية وقد عرفت عامياتها التي ساقها وعي الألمان نحو الزوال (١)، ليحل الفصحى في كل سوق ودار ومزرعة، الفصحى الجامعة التي يتكلمها الأمان والنمسويون وثلثا أهل سويسرا « أما العاميات الدوارج (في ألمانية) فهي لا تعد ولا تحصى، وهذه العاميات محرم عليها أن تدخل المدرسة كيفما كانت من الابتدائية إلى الجامعة، ومحرم عليها أن تدخل المحكمة والبريد وإدارات الحكومة الأخرى والنوادي الأدبية والصحافة والإذاعة (٢).

وفي المدن لا تستعمل إلا في النكت المضحكة، أما في القرى و [عند] الفلاحين فيما بينهم فإنهم يتكلون باللغات العامية في مزارعهم وأسواقهم، ولكنهم كلهم قادرون على التكلم بالفصحى، فكلهم متعلمون ليس بينهم أمي واحد » (١).
ولا عجب فهذه الأمم من أرقى البشر اليوم حضارة ووعياً فلا يعيش في بيئاتها القوية النظيفة مثل الطفيليات الوبيلة التي استطاع التبشير والاستعمار بثها في بيئتنا بعد تفكير وتقدير، ولقد عاشت زمناً ما تحاول قانوناً غير قانون الله في بقاء الأصلح، وما كان لها لتعيث ولا لدعايتها أن تجد متنفساً لو أن لنا من الوعي بعض ما للألمان أو غيرهم من الأمم التي أرادت بعزيمة وإصرار أن يكون لها وجود حضاري وسيادة قومية.
بل ما لي أذهب بعيداً ولا أضرب المثل بعدو مجاور عرف طريق الحياة والقوة فسلكه، وحلق بإصراره وقوة وعيه لغة لم يكن لها وجود ملحوظ قبل خمسين سنة، والعاقل من استفاد من عدوه ولم يعم عن حسناته. هؤلاء اليهود كانوا مطلع هذا القرن مبعثرين في القارات الخمس تتكلم جالياتهم لغات لا حصر لها، عرف علماؤهم أن لا سبيل إلى جمع كلمتهم إلا بلغة جامعة، فأخذوا أنفسهم جيلاً بعد جيل بإحياء العبرية القديمة الميتة يتعلمونها إلى جانب لغة الشعب الذي ينزلون بلاده، فكان صنيعهم هذا الذي بدا للناس حينئذ نوعاً من الجمود والجنون وإضاعة الوقت هو الذي خلف منهم أمة ودولة جامعة انتزعت مقراً وسكناً من أعز بلاد الناس، الناس الذين حباهم الله لغة جامعة لا مثيل لها في قوتها ورسوخها في الزمن والمكان بين جميع لغات الأرض، وليس في الأمر عجيب لقد آمن اليهود بأهدافهم وبلغتهم الميتة فأحيوها، ولم يدعوا فرصة لمشكك أو مستهزئ أو مزهد فيها فنجحوا، وتهاونا بلغتنا الحية القوية فأهملنا السهر عليها وصيانتها، فتدسس إليها اللصوص والعابثون فخسرنا من حيث نجح اليهود، فاقتطعوا من أرضنا التي نمنا عنها أعز جزء منها و (عبرنوه) وأعيننا تنظر وتدمع ولا نملك للخطر قوة تدفعه. هذا حكم الحياة، ألم تكن صحافتنا ومنابر جامعاتنا ومجامعنا أحياناً أوكار التشكيك في لغتنا أعز ما يدعم وحدتنا ويشد بناءنا القومي ؟ فلم لا يطمع فينا أذل الناس إذن، وقد تركنا العابثين المأجورين يعبثون بأقدس ما تفديه أمة واعية ؟ إن اللغة هي الرباط الذي يمسك وحدة الأمة، فإذا أصابه وهىً تبعثرت الأجزاء ولك يعد هناك أمة.
أنشأ اليهود بإحيائهم لغتهم الميتة دولة من العدم، وأضعنا (١) بإغضائنا عن عبث العابثين بلغتنا أمة من الوجود، ولقد تنبأ مؤرخ بما وقعنا فيه قبل أربعين عاماً ولم يبن نبوءته إلا على الحفاظ على اللغة، قال المرحوم الأستاذ محمد كرد علي في خطط الشام :
« احتفل الصهيونيون سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤ – ١٩٢٥م) بإنشاء جامعتهم العبرية في القدس يعلمون العلوم بالعبرانية، ولا تمضي خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مراقدها (٢) كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الأميركية والمذهب الإنجيلي من الجامعة الأميركية، وانتشرت المدنية الفرنسية والكثلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية » كان هذا قبل ٣٧ سنة أما نحن فما زال فينا من يتساءل على ملأ منا : أنكتب بالفصحى أم بالعامية ؟!!
ملحق
وثائق ونصوص

نص من جريدة تصدر في طنجة يظهر آثار التهديم اللغوي
الأجنبي في هذه المنطقة قبل ٣٥ عاماً

« زيارة الكعبة المعظمة على كل مسلم ومسلمة لو عندهم استطاعة صحية ومالية، ومن مناسك الحج سبع مرات طواف حول الكعبة كل عام. في المحل المقدس المذكور يجتمع ٢٠٠٠٠٠ من المؤمنين والمؤمنات هم الحجاج الكرام، لابسين كلهم كسوة بيضاء، وسامعين الخطبة لمفتي الأنام في جبل عرفات، لبيك اللهم لبيك، الكعبة مبنية من طرف إبراهيم خليل الله، ولكن بمرور الدهر والأزمان وبتأثير سيلان وأمطار قد خربت مراراً، ولكن تصلحت من موادها القديمة وأحجارها الابتدائية، وحجر الأسود موضوعة بيد المبارك المحمدية ؟.

ونظراً للتواريخ القديمة إن ماء زمزم خرجت من ضربة قدم سيدنا إسماعيل. ومن المعاني والمعالي... زيارة بيت الله المقدس. أهم المادة هي اجتماع مسلمين العالم في كل سنة في الأراضي المقدسة الحجازية بتأييد الولا والمخالصة بين عالم الإسلامي ».

« انتهى وأشهد أن لا إله إلا الله » ص٢٧ من (تحت راية القرآن) للرافعي.

قدم له بقوله :

« ألا فليقرؤوا هذه البلاغة الجديدة التي أنقلها بحروفها عن صحيفة عربية إسلامية تصدر في طنجة، وليتأملوا أكان فيهم من يكتب اليوم أبلغ منها بعد أربعين سنة ونيف من الاحتلال الإنجليزي والآخر الأوربي في زيغ الطباع وفسادها لولا تلك النفوس الشرقية العربية الكبيرة، التي كانت في هذا السبيل كنفوس الأنبياء قائمة على أنها حمى للحق وشعار ودعوة إليه وجهاد من دونه ؟ ».

- طبع « تحت راية القرآن » طبعته الأولى قبل ٣٥ عاماً، والصفحة المشار إليها في طبعته الثالثة سنة ١٩٥٣.

ولو بقي الرافعي حياً إلى الآن لقرت عينه زوال الكابوس الاستعماري عن لغة الصحف في طنجة وبعودة اللغة العربية الفصحى المشرقة إليها.

كوكتيل لغوي

« لم يريد هؤلاء الدعاة أن تصبح « اللغة اللبنانية » التي يبشرون بها كاللغة المالطية لا شأن لها رغم أنها كتبت بالحرف اللاتيني ؟

لم يريد هؤلاء أن تصبح كالمالطيين الذين نسوا أن اللغة التي يتكلمونها هي عربية بتراكيبها وروحها ؟ وأذكر أنني عندما زرت هذهالجزيرة وسمعني المالطيون أتحدث بالعربية بادروني بالسؤال : « بتعرف مالطن ؟ » فكان جوابي : « بل إن لغتكم هي في أصلها عربية ».

لم يريد دعاة العامية أن يجعلوا من لبنان شخصية لغوية، فتصبح لغتنا مثل المالطية. أي عبارة عن كوكتيل لغوي ؟

إليكم مثلاً : « الساعة ثمانية دكوارتور وإسى تسمعوا الانفرماسيوتى » وترجمتها العربية : « الساعة الثامنة والربع، والآن تسمعون الأخبار ».

(ويلفظ المالطيون كلمة « إسى » أي الآن، كما يلفظها أهالي الجنوب في لبنان). ص ٢٦-٢٧ من رسالة (دعاة العامية هم أعداء القومية العربية) للدكتور سعيد شهاب الدين (مطبعة منيمنة الحديثة ببيروت – ١٩٦١).
- اعتراف المستشرق الكبير « ماسينيون » :
« لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا، لقد دمرنا كل ما هو خاص بهم، فدرمنا فلسفاتهم ولغاتهم وأدبهم. والشرقيون ليسوا من السذج حتى يعتقدوا بكرم أخلاقنا وقد تحققوا بالشواهد أننا نرغب أن نبقيهم ضعفاء ». مجلة الوعي الإسلامي : العدد ١٢، ص٧٥.

-٢-

الحرف العربي والحرف اللاتيني
« إن علماء الغرب الأوربيين يذهبون إلى أن الحروف العربية والأوروبية نشأت من أصل واحد هو الكتابة الفينيقية القديمة التي استنبطت في أواخر الألف الثاني قبل ميلاد المسيح ؛ وهو مذهب شائع في أوروبة ومصرح بأن الكتابتين العربية والأوروبية صنوان. فإن اليونانيين أخذوا حروف الكتابة عن قدماء الفينيقيين ثم أدخلوها أوروبة بعد أن أحدثوا فيها تغييرين مهمين : أحدهما تغير وجهة الكتابة إذ شرعوا يكتبون من الشمال إلى اليمين لا من اليمين إلى الشمال كما كان الفينيقيون يكتبون ؛ والثاني زيادة الحركات على الحروف وجعلها حروفاً مستقلة بذاتها مثل A– E – I – O وغيرها. وعلى هذين الأصلين اليونانيين نشأت الحروف الأوروبية كلها جمعاء (اللاتينية والروسية وغيرها).
وأما الكتابة العربية فقد احتفظت لذاتها بالخصائص الأصلية الشرقية إذ يبدأ بها من اليمين إلى الشمال، ولا تعتبر فيها الحركات حروفاً منفردة برأسها، فضلاً عن أن حروفها بقين على جمال أصلها القديم البسيط البارع - ولم تتحول إلى نقوش دميمة متنادة مشتبهة فعلى مذهب الأوروبيين إذن تكون حروفهم صنواً مشوهاً للحروف العربية المحتفظة بأصلها الكريم » (١).
طبيعي أن المستشرقين في أول القرن العشرين وما قبله وجدوا صعوبة في تعلم العربية وكتابتها لم يجدوا مثلها حين تعلموا اللغات المجاورة للغاتهم لا في النطق ولا في الكتابة، لتشابه الحروف اللاتينية في اللغات الأوروبية، ولم تستغن الدول المستعمرة عن أناس من رعاياها يزاولون لغات الأقطار المطموع بها منذ القرن الماضي، فمن هنا بدأت الشكوى من بعض هؤلاء المستشرقين والإنكليز منهم خاصة حتى قال أحدهم سنة ١٨٦٤ عندما بدأ يتعلمها في مصر : « إنني أوثر أن أجتاز إفريقية كلها ماشياً من الإسكندرية إلى رأس الرجاء الصالح على أن أشرع ثانية في تعلم اللغة العربية » (١).
ويقول يوحنا أهنتين كرسكو : « الإنكليز مشهورون بعدم استطاعتهم تعلم لغات الأجانب إلا بمشقة مبرحة، وهو السبب الذي يحملهم على أن يحجموا عن تعلم لغات غيرهم من الشعوب ويتقاضوا أن يتعلم العالم كله لغتهم ويعرفها ».
هذه الشكاوي لم تبق في مولدها (بيئات الأجانب) حيث يجب أن تبقى وتكون حينئذ طبيعية، فكل من يحاول تعلم لغة أجنبية يعاني صعوباتها إذا كان الحرف فيها وفي لغته الأصلية واحداً، فكيف إذا اختلفت الكتابتان !

لكن الغرور الاستعماري زين لأصحابه الخروج على القانون الطبيعي ذلك، وهو أن يتذرع محلول تعلم العربية منهم بما يغني من جهد صابر حتى يألف حروفها وطريقة كتابتها، وهم نفر لا يبلغون العشرات في كل دولة، فحاولوا معتمدين على ما عند دولهم من قوى ومال ودعاية أن يجعلوا مئتي مليون من الشعوب العربية والإسلامية يقلبون كتابتهم من اليمين إلى الشمال ومن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، ليخففوا عن أولئك العشرات من مجند التبشير والاستعمار بعض الصعوبة في تعلم اللغة العربية. فإذا كان هذا منهم صلفاً فإن الإذعان له من بعض زعماء الشعوب يدل على قابلية للعبودية لا حد لها.

تقولون إن هذا منطق فائل بل مضحك، لكن هذا هو الذي وقع ولم ييأس الاستعمار بما أوتي من صلف وتسلط وقوة من محاولته مدة ستين سنة يغرر بمن لا خلاق له منا، ويمهد له بأساليبه الخفية وييسر له منابر يدعو من عليها إلى ما لقنوه إياه، ثم تكون بلبلة وتموت المحاولة، ونقول ذهب إلى غير رجعة ؛ فلا تمضي سنوات حتى تظهر في قطر آخر بمظهر جديد، وهكذا دواليك. والغريب في الأمر أن هؤلاء الدعاة الأجانب ومن حملوه دعوتهم، يدعون للغة العربية صعوبات ما منها واحدة إلا وفي لغاتهم الأجنبية مثلها أو أشد منها، يعلمونها هم حق العلم، لكن لغاتهم على عجرها وبجرها مقدسة لا تمس لأنها لغات دول قوية ذات أساطيل ومدمرات، ولغتنا لغة شعوب مغلوب على أمها فعليها أن تزول تدريجياً من الحياة دعامة بعد دعامة حتى ينهار البناء كله.

هذه الدعوة كالدعوة إلى العامية خاسرة نظرياً كما هي عملياً، وأصحابها يعرفون هذا ولكن هدفهم إيقاع البلبلة وشغل هذه الشعوب فترة عن مصالحها والمضي في تقدمها، وقد بلغوا بعض ما أرادوا ؛ وإلا فلا مجال إلى جمع العربية وهي لغة سامية باللغات الهندية الأوروبية لا في النطق ولا في الكتابة ولا في البيئة والمنشأ، والعجيب من ذلك أن هؤلاء الدعاة لم يقصدوا العبرية وهي لغة سامية ميتة وأغلب أهلها في بيئات أوروبية. وأمريكية ببعض ما قصدوا العربية من شرور، فإن كان في الحرف اللاتيني خير لنا كما يعمون فلم لم يبشروا به بين اليهود الذين أنشؤوا لهم دولة في أرض غيرهم فأحيوا حروفهم العبرية الميتة ولم يستخدموا الحروف اللاتينية ؟ الجواب ظاهر : إن هذه الدول الاستعمارية أرادت للصهيونية القوة والحياة وأرادت للعرب الفشل والموت فصرفت عنها كل ما رمتنا به من المهدمات.

وعلى كلٍّ وجد الأجانب منا من استأجروه ليردد هذه الخرافات والأوهام ؛ بل أكثر من ذلك، ظفروا بمن تطوع غير مأجور – غالباً – من الجيل الذي تعبّد للقوة من حيث لا يشعر، وخسر إيمانه بنفسه بمقدار ما آمن بذوي القبعات والأساطيل، فعاداتهم عنده خير من عاداتنا ولغتهم أكمل وحرفهم أجمل ورطانتهم أوقع وأحلى جرساً، ودياناتهم محترمة مسلمة لا تمس أحكامها ولا طقوسها وعقائدها بشيء من نقد أو تساؤل !... إلخ. وعلى أخلاقنا ولغتنا وأدياننا كل ما يخطر بالبال من انتقاص.

استجاب إذن للحرف اللاتيني أناس في ساحل الشام وفي مصر وفي المغرب في فترات متقطعة، وسأقتصر على ما عرفت من ذلك في الشام أيام الاحتلال الفرنسي، وفي الساحل فقط بعد الاحتلال.

تولت جريدة (لاسيري) الفرنسية في بيروت سنة ١٩٢٢ أول الاحتلال الفرنسي الدعوة إلى الحرف اللاتيني، ولا ننسى أن فرنسة جعلت من جزء الشام الشمالي خمس دول (دولة حلب، ودولة دمشق، ودولة العلويين، ودولة جبل الدروز، ودولة لبنان الكبير) وهذه الدول الخمس كانت نصف ولاية أيام الحكم التركي، ثم جهدت على تضخيم الفروق بين الطوائف وتكتيل بعضها على بعض، ولم يبق شجىً في حلقها إلا هذه الوحدة المعنوية الرابطة بين الأقطار العربية من الكويت إلى الرباط وتتجلى في شيئين الإسلام واللغة، فأخرت أمر الإسلام ظاهراً لا باطناً، وحاولت تفكيك اللغة ظاهراً وباطناً بما بثت من دعايات للعامية وللحرف اللاتيني.

فلما نشرت لاسيري دعوتها إلى الحرف اللاتيني وضربت له أمثلة من شعوب أعجمية حاولت هذه المحاولة في أذربيجان وأنقرة، عربت جريدة ألف باء الدمشقية مقالها في (١٩٢٢/١٢/١٩) وطلبت إلى المجمع العلمي العربي بدمشق رأيه في الموضوع، فعهد المجمع بالجواب إلى أحد أعضائه الأستاذ إلياس القدسي الذي درس الموضوع وعرض لتفاصيله ثم انتهي إلى رفضه رفضاً باتاً، ولم تحاول الدعاية السيئة محاولة سافرة داخل الشام فيما بعد. ولهذا الرد قيمته التاريخية فقد كان قبل أربعين عاماً والاحتلال العسكري الفرنسي على أشده في الشام ساحلاً وداخلاً، وله دلالته الظاهرة على إفلاس الدعوة إذ كانت الحجج قبل أربعين عاماً هي هي التي يرددها نفر قليل من الكتاب الآن، وإليك أهم ما ورد في مقاله من أفكار (١):

١- الأذربيجانية والتركية والأرمنية إلخ فروع من الأسرة الهندية الأوروبية (السنسكريتية) فضرب المثل بها جمع للمتباعدن كل التباعد، أما المعقول جداً فأن يقترح للغات السامية كلها أن تكتب بحروف عربية لأن اللغة العربية أتت بعدهن مصلحة ومتممة لما سبقها من فروع.

٢- صرح الاقتراح بأنه استهدف أمرين التسهيل على الأوروبيين تعلم العربية، والثاني على المستشرقين والعوام أيضاً تعلم العامية كتابة. وقد أجاب عن الأول بأن كل لغة أوروبية اصطلح مستشرقوها على كتابة العربية برموز لا تشبه رموز غيرها من اللغات فلو ضبطت بالحروف اللاتينية لوقعت البلبلة ومثل لذلك بالحرف (ش) فإن تصويره عند الفرنسيين يكون بحرفين معاً (CH) وهذان يقرآن بالإنكليزية تارة (شيناً) وتارة (تشيناً) وتارة (كافاً) ولا سبيل إلى ضبط ذلك بالدقة.

أما الثاني فإن العامية إذا كتبت بالأحرف العربية قرأها كل ذي لهجة بلهجته فالصورة واحدة وطرق الأداء تختلف بالعشرات بل بالمئات فلهجة حمص في النطق لا تشبه لهجة حلب ولهجة طرابلس الشام لا تشبه لهجة صيدا وكلتاهما لا تشبهان لهجة القلمون، ومع هذا فيتفاهم الجميع كتابة لأن الصورة واحدة، فلو عملنا بالاقتراح وصورناها بالحرف اللاتيني لوجب أن تكتب بصور شتى على عدد اللهجات، ولن يمضي زمن طويل حتى تتباعد هذه اللهجات لتصبح لغات متباينة وهذا تصعيب لا تسهيل، والذي يمسك كل هذه اللهجات الآن في وحدة : تصويرها جميعاً بالحرف الذي نصور به الفصحى الجامعة.

٣- الحروف اللاتينية غير ثابتة اللفظ « لأن الشعوب التي تفرعت لغاتها عن اللاتينية كالفرنسيين والإنكليز والأسبان والإيطاليين والبرتغاليين والفلامان والرومان والدانماركيين

والأسوجيين والنتروجيين.. كل منها يلفظ الحروف مختلفة عن لفظ اللغات الأخرى لها » و « تأتينا رسالة بالفصحى من مراكش أو الهند فنقرؤها كما كتبها وكما لفظها مرسلها، ونقرأ شعراً من شعر الجاهلية (قبل ١٥٠٠ سنة) فتلفظ كلماته كما لفظها قائله. أما اللغة العامية فلا يضبط لفظ كلماتها لا اللاتينية ولا سواها، وأقرب الطرق لضبطها حروفنا العربية وشكلها ».

٤- للحروف العربية ميزة ليست في الحروف اللاتينية ولا في حروف اللغات السامية نفسها « إن حروف هذه اللغات مفككة بعضها عن بعض كأنها مسمارية بينما الكلمات العربية يلتصق حروفها بعضها ببعض، وهذا الالتصاق يجعلها كتلة واحدة يشملها النظر بالحال كأنها كتابة اختزال.. فالكتب العربية والجرائد سطورها بعيدة بعضها عن بعض فلا تضر النظر، أما سطور اللغات الأوروبية فإنها قريبة بعضها من بعض وأكثر الحروف قائمة ومتشابهة، وهذا ما يضر النظر، ويجعل أولئك القوم يستعينون بالنظارات لأن أكثرهم يصبحون قصيري النظر بهذا السبب ».

٥- « إن اللغة ألفاظها وكتابها تحفظ معانيها وقومية المتكلمين بها.. فهل يجوز أن نترك الكنوز المحررة بها لنرضي بعض المستشرقين.. وهل يقبل الأجانب أن نعرض عليهم ترك حروفهم واتخاذ حروفنا لتضبط ألفاظهم بها أو أي لغة مموجة كاللغة الإنكليزية مع أن حروفها لاتينية..

والاختلاف بلفظ الكلمات لا نراه في لغتها العامية (فحسب) بل يشمل هذا التموج الإنكليزية الفصحى ».

بعد سنتين من هذا الصوت الناشز في (لاسيري) أثلج الصدور في الشام مقال أرسله مستشرق فنلندي (١) إلى مجلة المجمع العلمي العربي (٤٨٣/٤ تشرين الثاني ١٩٢٤) عنوانه : « نفي أوهام الأوروبيين في صعوبة تعلم العربية » أوصى بقراءته كاملاً فقد حوى مقابلة موضوعية بين اللغة العربية واللغات الأوروبية أدباً ولغة وصرفاً ونحواً ونطقاً وكتابة، وعلى مقاله عدا علميته ومنهجيته سمات الإحاطة وعمق الدرس وجمال الدرس وجمال الإنصاف، وهو الذي سمى المشاكل المزعومة للغة العربية بالأوهام الهرمة. فقد ذهب إلى « أن تحصيل اللغة العربية أسهل على الطالب الأوروبي من تحصيل غيرها من لغات العالم » وأنه يصر « كل الإصرار على أن آراء الأوروبيين نتائج أوهام هرمة وبوادر خيالات شائخة » ويعيننا الآن من بحثه قضية الكتابة وضبطها فقد قدم لها بمذهب الأوروبيين في نشأة الكتابتين العربية والأوروبية، وقد مر بك أول هذا الفصل ثم أدلى بالحكم الآتي :

« وأما تعلم الحروف العربية وكتابتها فأسهل من تعلم الحروف الأوروبية وكتابتها، لأننا لو نظرنا بلا تخرب لرأينا أن وجهة الكتابة من اليمين إلى الشمال تتحرك بها الأصابع على هذا المنوال (eeeeee) هي الأصح لأنها لا تتعب اليد مثل وجهة الكتابة من الشمال إلى اليمين التي تتحرك بها الأصابع علة هذه الطريقة ( ) وما على المرتاب بصحة ما نقول إلا أن يعمد إلى الاختبار الذاتي فتتجلى له الحقيقة الراهنة. فمن اشتكى من صعوبة الحروف العربية برْهن على عدم رغبته في أن يعنى بتعلمها ليس إلا. أما الذي يشرع فيه بنشاط

فيشعر في أقرب الأوقات أنها جذابة جداً، ويتحقق أن الكلمة العربية تتصور على القرطاس بسرعة مدهشة بعكس كلمات اللغات الأوروبية.
وأهم من خاصة الكتابة العربية خاصة ضبطها وهي معرفة المتعلم ضبط حروف الكلمة بالحركات من غير أن ترسم معها، ولقد طالما استشهد الأوروبيون على صعوبتها وهوّلوا بها على الراغب في تعلم لغة العرب متناسين أن لغاتهم لا تخلوا من صعوبات أشق عليه من هذه الخاصة المضبوطة بالقواعد الراهنة :
وإذا كنت في ريب مما نقول فعليك باللغة الإنكليزية مصداقاً لقولنا فإنه لا مناص لك إذا رغبت في تعلمها من أن تعرف لفظ كل كلمة فيها وكتابتها على حدة، وإلا فلست بقارئها ما حييت. وإذا أنت عرفت جيداً جميع الحروف الإنكليزية فلا تتوهمن أنك قادر على قراءة الكلمات المركبة منها ؛ أفلا تعاجل يا ترى صعوبة معرفة الكلمات الإنكليزية قراءة وكتابة صعوبة لفظ الحركات العربية التي تعرف بأصول قياسية عامة ثابتة ؟؟..
ولنزدك برهاناً على أن تعلم اللغة العربية ليس أصعب من تعلم لغات أوروبة، فنذكر لك اللغة الروسية وننبئك بأنه لا مفر لك إذا أردت أن تحسن قراءتها من معرفة محل النبرة في كل كلمة منها، وهي لا تستقر على حال في الكلمات الجامدة المختلفة، بل في الكلمات المشتقة من الكلمة الواحدة بعينها ولا ترسم في الكتابة أبداً.... إن الأوروبي يقدر أن يتعلم العربية بعناء أخف من العناء الذي يجشمه إياه تقلب هوى كتابة الكلمات الإنكليزية أو ضبط النبرة الروسية.
وعرض هذا المستشرق إلى مقابلة أجراها (مرغليوث) بين اللغة العربية والإنكليزية فقال : « وليس لنا من وسيلة البتة غير هذه الأوهام (الأوروبية) أو بالأحرى (الإنكليزية) إلى فهم كلام (مرغليوث) في جامعة لندن في صيف سنة ١٩١١ فإنه قرأ حينئذ بياناً عن اللغة التي يجب أن تكون شائعة لتفاهم شعوب العالم كله أجمع، واستخرج منه وجوب اتخاذ اللغة الإنكليزية واسطة لإدراك هذه الغاية، وأتى في جملة براهينه بمقابلة بين الإنكليزية والعربية قال فيها :
« إنه لو تساوى عدد المتكلمين باللغة العربية وعدد المتكلمين باللغة الإنكليزية لوجب تفضيل الإنكليزية على العربية لأن فيها استعمال الحركات والحروف الكبيرة مثل : (D – C – B – A) إلى آخره والحروف الصغيرة أيضاً مثل : (a – b – c – d – e – f) إلخ وهو مزية تجعل الصحيفة الإنكليزية أوضح من العربية وأبين » فيعقب عليه المستشرق الفنلندي بقوله :
« نعم نعم أيها الأستاذ اللوذع الفطن، إن صحيفتك الإنكليزية أوضح وأبين لجيل الإنكليز وللأوروبيين أيضاً، وأما للعرب والفرس والهنود والترك فالصحيفة العربية أظهر وأجلى. وإن أبين إلا المكابرة فعليك برجل صيني مثلاً لا ضلع له مع أحد منا، وهو يفتيك في حقيقة الأمر فتتحقق حينئذ أية الصحيفتين أوضح وأجلى ».
وتستريح الشام إلا ساحلها من هذه الأبواق حتى الآن فيما علمت ؛ لكن مساعي طي الخفاء تبذل فلا ترجع بغير الخيبة، ولا تثنى أصحابها خيبتهم عن المعاودة ثانية وثالثة، هدف نصبوه بين أعينهم. جعلوه دينهم وديدنهم، أن يناصبوا العرب والعربية العداء سراً وعلناً ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، يودون ألا يفارقوا الدنيا حتى يكحلوا عيونهم بمثل ما صنعوا في

أذربيجان وتركية ونيجيرا أخيراً، من مشاهدة أحرفهم اللاتينية تنساب في صحف البلاد العربية ومجلاتها وسائر مطبوعاتها. ولقد حضرت أنا نفسي مسعى من هذا الدبيب الخفي قبيل الحرب العالمية الثانية، كنت والأستاذ المرحوم محمد كرد علي في حديقة داره، فإننا لنتذاكر بعض الأمور، وإذا بالأستاذ يقف ويتجه نحو باب الحديقة ليستقبل زائراً طاعناً في السن يتقدم بخطى ثقيلة جداً ينقلها بصعوبة وبطء، وكلما رفع رجلاً وحطها تقلقل كل عظم في بدنه، وبعد دقيقتين قطع العشرين متراً بين الباب والمجلس فقدمه لي الأستاذ بقوله (مرغليوث) وعرفه بي فهز رأسه هز العارف. لم يطل مجلسه أكثر من صنف ساعة عرفت فيه أن حكومته (٢) أوفدته بمهمة من لندن ليبيت ليلة في دمشق وثانية في القدس ليحط الثالثة في مطار طهران على موعد مع الشاه. وعجبت : أما تجد حكومته غير هذا الشيخ المخلع الفاني ليقوم بمهامها ويدعم إمبراطوريتها، ثم زال عجبي حين رأيته يهجم على موضوعه دون تلبث، فيناقش الأستاذ كرد علي، ما الذي أبطأ بالبلاد العربية عن الاقتداء بتركية في اتخاذ الحروف اللاتينية ؟ ولم أضاعوا على أنفسهم هذا الرقي الباهر ؟. فأجابه الأستاذ بلطف وصدر واسع – على قلة صبره على سماع مثل هذه الدسائس – مشيراً إلى خطأ هذه الفكرة، وأن وراءها أضراراً على العرب لا تحصى، وأن الأتراك أنفسهم أضاعوا مركزهم في الشرق بتبديل حروفهم.. فمارى مرغليوث في كل ما سمع، وقال : إن أمله وطيد في أن يذو الشاه حذو (أتاتورك)، وأن العرب لا يحملهم على تغيير كتاباتهم إلا حاكم قوي مثل أتاتورك أو الشاه (بهلوى). وأنه مسافر إلى طهران لدراسة أسباب تأخر الشاه عن المبادرة إلى فرض الأحرف اللاتينية ».

انصرف مرغليوث وقد ترك في نفسي إيماناً لا يتزعزع بأن العربية حقاً مصدر مخيف من مصادر قوتنا، وأن أعداءنا قدروها حق قدرها حين جندوا غلبها ما جندوا من علم وقوة ودهاء. وأن علينا أن نتمسك بها تمسك الغريق بجبال الغريق النجاة فلا عصام لأمتنا ولا نظام لها إلا بها. وأكبرت في الوقت نفسه عزيمة الغرب وإصراره على تهديم هذه القوة منذ عهد الصليبيين إلى عهد ترومن وتشرشل وديغول، ما ملوا ولا يئسوا ولا تزحزحوا عن دينهم هذا قيد شعرة.

قلت إننا في الشام قد استرحنا من أصوات الناعقين هؤلاء إلا في الساحل، الساحل الذي شهد من أبطال الحفاظ على اللغة في القرن الماضي ما لم يشهد مثلهم الداخل. وكان يجب أن يكون هذا محط العجب لولا ظهور السبب. فالعرب في ساحل الشام (لبنان بلغة الإدارة) كالعرب في داخله دماً وأصولاً وآمالاً وآلاماً. لكن حملة ذكية خبيثة قامت بها دول الغرب الطامعة في بلادنا خلقت في الساحل جواً قلقاً موبوءاً حتى اليوم، فقد سهرت هذه الدول على خلق اضطرابات دموية أسبغت عليها الطابع الطائفي سنة ١٨٦٠، وهبت – بزعمها – لنصر نصارى الشام، وذعرت تركية فأسرعت لاسترضائها ولبت كل مطالبها، ومنذ ذلك الوقت حتى الآن والغرب يحث بإرسالياته وبعثاته السياسية ومدارسه التبشيرية ومؤسساته التي ينفق عليها بسخاء، تنفخ في أهل الساحل روح الكراهية فيما بينهم، وتعبئ عناصر الشر وترضع الوليد بهذا السم الزعاف، حتى ينشأ كل ناشئ على بغض غير طائفته وبغض كل ما يتصل بها، وكان في جملة ما ألقوا إلى بعض الفئات القليلة المنوَّمة أن العربية الفصحى وكتابتها شيء يجب أن يزال، لأنه يصلنا بالشعوب الإسلامية. لم يتلق هذه الدعوة

أحد بالقبول في لبنان ممن يعتد به في القرن الماضي ومطلع هذا القرن، فلما احتلت فرنسة سنة ١٩١٩ ساحل الشام نظمت هذه الدعوة وحمتها وغذتها وشحنت جوّ ما أسمته بلبنان فتسممت بها خلايا قليلة، فما زال الاحتلال شبحاً لا روحاً، بقيت هذه الخلايا تجد ما يمد في حياتها بضع سنوات. والطريف حقاً أن نجد الشكوى من هذا التعصب الصليبي البغيض في بيئات الغرب العلمية نفسها، فقد اعترفت بوجوده وضرره صراحة دون غمغمة، ففي المقالة التي عربها الأرشمندريت توما ديبو المعلوف لمجلة العلمي العربي سنة (١٩٢٤) (١)ما ينص على أن عداوة الغرب للغة العربية آت من عداوته للإسلام، حتى اضطر المستشرق الأستاذ يوحنا أهتنين كرسكو الفنلندي إلى أن ينبههم إلى أن اللغة العربية لا تستلزم الإسلام، فقد جاء في فاتحة مقاله :
« إذا رغبنا في أن تنتشر اللغة العربية الشريفة في أوروبة وجب علينا أن ننفي بعض أوهام الأوروبيين التي تحول بينهم وبين الإقبال على تعلمها. فأهم هذه الأوهام هو : وهمهم في أن اللغة العربية مرتبطة كل الارتباط بالإسلام حتى أنه لا يليق بالمسيحي أن يُعنى بها !! ».

وليس بعد هذه الشهادة بيان، ومع ذلك فقد عاثت إرساليات الغرب وعملاؤه في ساحل الشام تهدم مكانة اللغة العربية في نصارى الساحل، طوراً عن طريق السياسة بتكريه السكان بكل ما يصلهم بإخوانهم المجاورين، وطوراً عن توهين العروة الوثقى عروة اللغة بالدعوة إلى العامية مرة وإلى الحرف اللاتيني مرة ؛ فإذا كان الأوروبيون قبل أربعين عاماً بحاجة إلى واحد منهم يعرفهم خطأهم، أفيكون عرب لبنان اليوم بحاجة إلى من يعرفهم الدسيسة في إبعادهم عن الفصحى بحجة التعصب الطائفي ؟
وأي كان فنحن نسجل هنا الخطوط تسجيلاً تاريخياً بحتاً، إن هذه الدعوة التي ولدت ميتة في داخل الشام وجدت في الساحل الهواء الذي تتنفسه ولو هواء مخلخلاً وفي بيئات ضيقة قليلة أجنبية قلباً وقالباً أو قلباً فقط. فقد عرفت أن نشرتين صدرتا في الأعوام القريبة باللهجة العامية والحرف اللاتيني الأولى للأب رافائيل نخلة والثانية بقلم سعيد عقل. وأن رسالة عقبت عليهما وعلى الدعوة الهدامة من أساسها للدكتور سعيد شهاب الدين عنوانه (دعاة العامية هم أعداء القومية العربية)، تكلفت بحججهم الواهية تنفيذاً وإبطالاً ببراهين بديهية، اضطر صاحبها إلى أن يعرض تعريضاً بما صرح به قبله يوحنا الفنلندي الذي مر بك كلامه عن الحافز الحقيقي لكره العربية عند الغرب وهو عداء الإسلام، فقد قال صاحب الرسالة : « هم يبشرون باعتماد الحرف اللاتيني عوضاً عن الحرف العربي، ونسوا أن الزمن الذي كانت فيه بعض المجتمعات تعتمد ألفباء معينة لنشر ديانة معينة قد ولى إلى غير رجعة » (١) وينبغي ألا ننسى أبداً هذه الإشارة لما لها من شأن في الدلالة على النيات الخفية المستترة وراء التشكيك في القواعد العربية والكتابة العربية، إنها حقيقة صرح بها باحث مخلص قبله هو يوحنا الفنلندي بما لا يدع مجالاً للشك فيها.
وإذ كان هؤلاء الدعاة يشيدون باللغة الفرنسية وغيرها فقد وضع المؤلف سعيد شهاب الدين أيديهم على قصورها في الأداء بالنسبة إلى العربية حين عرض لقضية الشكل « وأن القراءة تتجه لأن تصبح في أكثر الحالات قراءة صامتة » (٢) قال :

« ثم من قال لدعاة العامية إن لغات كثيرة تملك كل الأحرف الضرورية للتعبير عن الحركات الصوتية كلها ؟ فاللغة الفرنسية مثلاً لا تملك إلا ٢٦ حرفاً للتعبير عن ٣٦ صوتاً، فلا انطباق إذن بين الصوت والرمز. ويقول غاليشيه (Galichet) إن الألفباء الفرنسي لم يوضع للغة الفرنسية. وإن التعبير الإملائي الفرنسي صعب جداً ويكاد يكون أصعب بكثير من غيره » (٣) وعرض لادعائهم أن الكتابة العربية ليست عملية اقتصادية ففندها مثبتاً العكس فكل كلمة عربية إذا كتبت باللاتينية احتاجت إلى ضعفي عدد حروفها العربية، وينتهي إلى قوله :

« ولا نقول ادعاء إذا أعلنا أن اللغة العربية بحروفها هي الأولى في العالم التي تجري بسهولة في كتابة الصحف والمجلات والنشرات اليومية والأسبوعية. فهي أكثر اختصاراً من غيرها وأوفر اقتصاداً في الوقت والمال والنظر والكتابة، وفي سهولة التبادل التجاري والفكي وغيره. وهي تؤدي النتائج من أحسن من كثير من لغات العالم. ذلك أن الكتابة الشائعة الاستعمال هي كتابة غير مشكلة، أي غير مقيدة بحركات، وأن القراءة تتجه لأن تصبح في أكثر الحالات قراءة صامتة... وهكذا يتضح أن دعاة العامية (واللاتينية) يريدون أن يعقدوا في الكتابة التي يتجه إليها العالم اليوم » (١).

أما حجتهم (أن العربية تفهم لتقرأ) فجهل، إذ أغلب لغات العالم كذلك، وهذا غاليشيه Galichet عالم اللغة الفرنسي يقول : « إن اللغة الفرنسية يجب أن تفهم حتى تقرأ، لا أن تقرأ لتفهم » تماماً كالعربية، ويصدق هذا القول أكثر ما يصدق على الإنكليزية، لأنه لا يمكننا أن نلفظ معظم الكلمات لفظاً صحيحاً إلا إذا فهمنا معناها » (٢).

بين مقال لاسيري سنة ١٩٢٢ والكلام المتقدم عن دعاة العامية واللاتينية في ساحل الشام سنة ١٩٦٠ نشاط لهذه الفتنة تركز في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٣ وهذا هو النجاح الوحيد الذي أحرزته إذ استطاعت أن تغري بدعوتها ما كان يظن أنه القلعة التي أنشئت لحماية اللغة العربية، حيث هب عبد العزيز فهمي القاضي الكبير يدعو إلى الحرف اللاتيني بقسوة وجبروت ويجبه كل من يرد عليه، والرجل شيخ هم، هو كالأستاذ لبقية الأعضاء، فاحتمى وراء إجلالهم له، واندفع يعري لغة الأمة من كل مزية، واستمر الجدل شاغلاً المجمع عن أعماله ثلاث سنين كوامل، انتهى برفض الدعوة. وكان حرياً أن يكون هذا إخفاقاً لا نجاحاً، لكننا إذا عرفنا أن غاية هذه الدسيسة إما الهدم وإما عرقلة البناء، وأنها آلت إلى الثاني أيقنا أن عدونا نجح وأن آلته إلى النجاح أعوان متطوعون منا عن سوء نية أو عن غفلة وساذجة، ولو حسبنا ما أنفقت الدولة على المجمع هذه السنين الثلاث (١) وما أضاع أعضاؤه ومتتبعوا أخباره من جهد ووقت وما شغلت الناس هذه الفتنة عن مصالحهم هالنا عظم الخسارة علينا، وغنيمة أعدائنا منا. ولولا أن الشام شغلت بأصداء هذه البلبلة في مجمع القاهرة وهمها أمرها بل غمها أيضاً ما عرضت له،ولكن البلاد العربية تعيش اليوم كالبلد الواحد، لا يلقى في حي من أحيائه بقذيفة إلا تجاوبت الأصداء في كل الأحياء.

إذا ألمَّت بوادي النيل نازلة باتت راسيات الشّام تضطربُ (٢)

هذا ما شهدته الشام من المشكلة الثانية المزعومة أمر الحرف العربي، انتهى بعد السنوات بالبديهة المقدرة لكل أمر مخالف سنة التقدم وطبيعة الأشياء، ولئن كان في كل شر ظاهر خير مستكن فيه كما يقولون، إن هذه الدسيسة أظهرتنا على ما لم نكن ننتبه إليه من مزايا

حروفنا العربية التي عشنا في جوها غافلين عن حسناتها لولا أن لفتتنا إليها تلك الهمزات، لقد جلت الغشاوات عنها، فبدت لأعيننا – كما خلقها الله – خير الكتابات جملاً واختصاراً وتطابق دلالة، وزادتنا إيماناً بأننا – حقاً – نملك كنزاً تدور أعين أعدائنا في محاجرها حاسرة أن كان في أيدينا لا في أيديهم، فإذا يئسوا من امتلاكه فلا أقل من أن يعملوا على تبديده، ولقد استجاب نفر منا إلى دعاياتهم فكان مثلهم ومثل الغرب منه، كمثل اللص والشيطان حين تآمر على انتزاع الكبش السمين من يد الناسك المغفل، فأوهماه أنه خنزير، وأنه لا يليق بناسك اصطحابه، فصدق المسكين وتركه وفازا به، في حوار طريق مشهور حكاه ابن المقفع في كليلة ودمنة.

إن هذا كاد يقع منذ خمسين سنة، لكن أمة العرب اليوم عمها وعي وبصيرة، فما هي الآن بذلك الناسك المغفل، وما دول الغرب – وإن كانت لا تزال ذاك اللص وذلك الشيطان – بمستطيعة خداعه على الطريقة نفسها، أما هؤلاء الأفراد الذين ينعق ناعقهم بين الفينة والفينة في ساحل الشام أو مصر أو القدس فمأجورهم لا يخفى على الناس، وساذجهم ومتعصبهم يعيشان القهقرى في غفلتهما قبل خمسين سنة. إنهم في الحضيض والركب كاد يبلغ ذروة الجبل.

-٣-

خرافة الصعوبة في القواعد والإعراب

هذه الشبهة هي الثالثة التي يحاول العدو ترويجها واتخاذ عملاء يشغلون بها الناس، انخدع بها قوم زمناً ثم قضى عليها شيئان : الوعي القومي، وازدياد المتكلمين منا باللغات الأجنبية نتيجة لانتشار التعليم والإقبال عليه، فعرفوا أن القواعد العربية أسهل من القواعد الفرنسية والإنكليزية وغيرهما، وأنها أكثر قواعد اللغات منطقية واطراداً، وأقلها جميعاً استثناءً وشذوذاً في القراءة والكتابة.

لما اتضح للغرب حاجته إلى غزو البلاد العربية والشرق عامة للانتفاع بما تزخر به من خيرات ومواد خام، وأعد العدة ليستغل غفلته أطول مدة، تبين له وجوب دراسة لغاته ليكون على علم بدخائل البلاد المغزوة فلا يفوته منها شيء. وانصرف نفر من الأجانب في كل دولة مستعمرة لتعلم اللغة العربية فوجدوا في قواعدها وإعرابها ومعاجمها صعوبات لم يألفوها في لغاتهم لتغاير طبيعتها – وهي لغات آرية – وطبيعة اللغة العربية السامية، فشكوا الصعوبة ولقنوها من بعدهم، فلما احتلوا بلادنا لقنوا الشكوى من تعلمها من أهل الغفلة فحملوها عنهم ومن هنا منشأ هذه الخرافة.

كانت قواعد اللغة العربية تدرس حتى منتصف القرن التاسع عشر في اكتب القديمة الصفراء المثقلة بالحواشي والشروح والتقارير والردود، فإذا أضفت إلى ذلك عقم أساليب التدريس، وأخذ الطلاب باستظهار المتون في النحو والصرف، أدركت العناء الذي كان يلقاه الصغار في تعلم قواعد اللغة العربية، هذا شأن العرب فما بالك بالأجانب الذين يتعلمون لغتنا. لكن النهضة أطلت على البلاد العربية مع طلائع التبشير والاستعمار، وتأثر في جملة ما تأثر بها أساليب التأليف وطرق التدريس، ونشأت أجيال الطلاب بعد ذلك على كتب حديثة ميسرة واضحة لا صعوبة في عباراتها ولا التواء، غنية عن الشرح والتعليق (١)، وأصبحت القواعد العربية درساً وتدريساً من أيسر الأمور. لكن الشبهة التي أثارها الأجانب

قديماً ما يزال يرددها عملاؤهم منا اليوم كما كان يرددها أسلافهم قبل مئة عام، كأن هذه النهضة بجميع آثارها البادية لم تكن ؛ تعامٍ مقصود عند أفراد، وغفلة شائعة عند آخرين قد يعيقان القوافل بعض الأحيان، وهذا هو كل المقصود من مثل هذه النزعات المريبة الهدامة.
لكن القوافل على رغمهم تسير.
أول ما عرف من محاولات الأجانب في هذا الموضوع ما حدثني به المرحوم الأستاذ سليم الجندي أيام الاحتلال الفرنسي قال : هبط المستشرق المعروف المسيو ماسينيون (٢) دمشق في أوائل سنوات الاحتلال فاتصل به – بطبيعة الحال – زملاؤه من أعضاء المجمع الذين بينه وبينهم معرفة، فألقى إليهم في جملة ما ألقى « أم إهمال الإعراب ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب، ويكون في الوقت نفسه تجديداً يليق بمؤسسة كالمجمع.. إلخ » فناقشه بعض وسكت بعض، إلا أن أحداً لم يعر هذه المقالة اهتماماً. اهـ
ولم يكن يتوقع غير هذا فقد كان المجمع يضم أبطالاً مناضلين في حراسة العربية وحمايتها، وكان ما عندهم من مناعة كافياً في جعل هذا الجهد تذروه الرياح، على عكس الأمر في ساحل الشام (لبنان) فقد وجد بعض القلوب الصاغية، لأنه يغذي في النتيجة كراهية طائفية غرستها فرنسة منذ سنة ١٨٦٠ في بعض النفوس الغافلة الجاهلة : عليكم أن تكرهوا اللغة العربية وتحاربوها وتتجنوبها ما استطعتم لأنها لغة المسلمين.
عرف الفرنسيون أن لا جدوى من هذه المحاولة في الشام الداخلية (سورية) فكفوا، وعدلوا خططهم بحيث لا تكون الحرب كفاحاً وجهاً لوجه ولكن من وراء وراء. ولم يجرؤ على ترداد هذا الهدف وهو الإيهام بصعوبة الإعراب غير صوت واحد تربص قليلاً حتى نسى أعضاء المجمع دعاية المستشرق الفرنسي، ودس في مجلة المجمع العلمي العربي على غفلة من أهلها كلاماً عنوانه (أقرب الطرق إلى نشر الفصحى) فردد ما كان ردده الأجانب على أسماع أجدادنا من تفضيل العامية، وزعم أنها « اختزال للفصحى وعدول إلى ما هو الأنسب » وأن إبدال الكلمات الفصحى والإعراب بالعامية « غير ممكن لأنه مقاومة للطبيعة » (١) انتهى إلى أنه « لا يصح التشاؤم بالعامة إلى حد إماتتها » (٢). وكل هذا الباطل يلي من كثرة الترداد الممجوج، لكن الجديد الذي أضافه الكاتب هو اللعب بالتاريخ والافتراء على حديث الرسول حين حمله على نصر هذه الدسيسة الأجنبية التبشيرية فقال :
نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن التشدق والتقعر : « وماذا عساه يكون أسلوب التكلف والتشدق المنهي عنه سوى الذي يمط به المتكلم صوته ويحرك شفاهه بحركات الإعراب ! » وهذا تطوع لتأييد الافتراء بتزييف التاريخ وتزوير المعاني على الألفاظ ومصادمة البدائه عجيب غريب. ولا أشك في أن الكاتب يعتقد عكس ما كتب إذ هو على حظ من العلم والفهم، ولكن الذوبان وقابلية التسخير للقوة المحتلة يقيسان ذراعاً كلما قاست هي إصبعاً. وأي استجابة أسرع من أن ينتهي الكاتب إلى الحكم الفاسد الآتي حين جلس مجلس القاضي من الإعراب فقال : « على أن في مراعاة قواعد النحو من إلحاق علامات الإعراب بالجمل التي تتألف منها أحاديثنا ومحاوراتنا تفريطاً في الوقت وتضييعاً له... وفي عدم مراعاتها توفيراً للوقت وحرصاً عليه » (١) !!
عرضت لهذا المثال الفريد في الشام على لأثر الدس الفرنسي التبشيري الاستعماري، لأدل على المحاولة اليائسة في الداخل (سورية) وضعف الاستجابة ؛ إذ من الحق أن أقرر هنا

أن هذا الصوت الشعوبي الهدام لم يعززه صوت ثان، وأن الأمر انتهى بإهداء وسام (اللجيون دونور) الفرنسي للكاتب، واستقر الرأي على حشد الجهود في ساحل الشام لا في داخلها منذ سنة ١٩٢٣ سنة نشر هذا المقال. على أن التاريخ يقتضينا الإشارة إلى أن هذه النزعة الهدامة عادت إلى الظهور في المجلة نفسها بعد ربع قرن، وفي ظل الاحتلال الفرنسي أيضاً، حين أسندت إدارة المجمع والمجلة إلى الكاتب السابق، فمهد لنشر مقال للخوري أسقف مارون غصن يغمز اللغة العربية ويقترح تطعيمها بألفاظ مستكرهة لا تمت بصلة إلى لغات الإنس ولا إلى لغات الجان، تشويهاً لجمالها وإشاعة للاضطراب في قواعدها، وكان عنوان المقال (النحت في اللغة العربية وسيلة لتوسيع اللغة)(٢) واستعظم كثيرون نشر مثله في مجلة تعد من حصون الفصحى، فبادروا مستنكرين، واحتمى المسؤول بستار من حرية الرأي، ولم يجد مناصاً من نشر بعد الردود عليها (١)، وكان كل الهدف فيما يظهر سِبر الجو في دمشق، فلما أنسوا التنبه كفوا إلى أجل ليطلعوا في عام تال بمقال للخور أسقف نفسه يدعو إلى الألفاظ الدخيلة فأدرجه المشرف على المجلة عملاً بحرية النشر كما زعم (٢).

هذا كل ما تحفظ الذاكرة من محاولات الهدم للفصحى وإعرابها، إخفاق الخطة في أولى خطواتها منذ اصطدمت بمناعة محصنة عند أكثر أعضاء المجمع العلمي العربي، ولم يجند نفسه لها غير واحد إما عن غفلة وإما عن وعي بما يقوم به. أما الذي بقي واستقر فرعاية لها ولإعرابها في المدارس والمحافل والأندية، حتى لأذكر أننا كنا نرجع من الحفلة أو المهرجان أو المحاضرة فئة من الطلاب الليليين في ثانوية دمشق نعلق على الموضوع وعلى ضعف المحاضر أو قوته في لغته وفي ذاكرة كل منا الهفوات التي لحن بها المحاضر أو الخطيب، نتفق في الرأي عل أكثرها ونتناقش في قليل منها مختلفين.

لم يعد خافياً حتى على الأجانب المهتمين بشؤون الثقافة العربية أن قواعد اللغة العربية من أسهل القواعد كتابة لفظاً ونحواً وصرفاً.

أما كتابتها فتصوير مطابق للفظ إلى أبعد الحدود فمدودها وحركاتها القصيرة حين يحوج الأمر إلى تصوير الحركات أكسباها إيجازاً في الحيز واقتصاداً في وقت القراءة، فما تكتبه بالحرف العربي إذا كتبته بالحرف اللاتيني يشغل مثلى حيزه العربي، ثم أنت مضطر إلى الإبطاء في القراءة فيها حتى يستوعب نظرك الحروف، وليس في الكتابة العربية حروف مركبة لأداء صوت فرد، بل كل حرف يصور صوتاً، ولكل صوت حرف خاص، وليس فيها حروف ترسم ولا تقرأ كما نعهد في اللغات الأجنبية كالإنكليزية والفرنسية (١).أما ما يهولون به من رسم الهمزة والألف المقصورة فخطبه هين جداً لا يذكر أمام بعض قواعد الرسم في اللغات الأجنبية. إذ قابلنا ذلك بما في اللغات الأجنبية من قراءة حرف (C) مثلاً سيناً مرة وكافاً أخرى، وشيناً مرة إذا ركبت مع ch) : H) وكافاً مرة بالفرنسية و (تش) إذا قرأناها بغير الفرنسية، وكذلك حروف (G - H – P – S – T) والحروف الصوتية (y – u – o – I – e – a) لها أصوات حين تتراكب غير أصواتها مفردة.

أما الإنكليزية فأعفيكم وأعفي نفسي من ذكر شذوذها واستثناءاتها حتى ليكاد يكون للحرف الواحد أصوات بعدد الكلمات التي يدخلها، وحتى قال بعضهم إن اللفظ الصحيح للكلمات الإنكليزية يكاد يكون سماعياً في كل كلمة.

أما النحو فقد دخل عرض قواعده من التسهيل في التأليف الحديث ما جعله ميسور الفهم خفيف العناء، بحيث انحصر في الكلمات المعربة أسماء وأفعالاً، والخلاصات الإعرابية التي نجدها في بعض الكتب الحديثة لا تبلغ الصفحة.
والصرف لا صعوبة في قواعده الاشتقاقية المطردة الحية في اللهجات العامية كلها، ولا سيما في الأسماء، فأوزان اسم الفاعل واسم المفعول والصفة واسم التفضيل وأسماء الآلة هي هي في العامية والفصحى.
هذا شيء أصبح ملحقاً بالبدائه، وأتكلم هنا على الضروري من القواعد لكل من تخلص من الأمية بتعلم مبادئ القراءة والكتابة، لا أعني علل النحو والصرف ولا إجراء القوالب الإعرابية في حل الجمل مما يخص المتقدمين في الدراسة أو المختصين فهذا كله غير ضروري لغيرهم.
لكن الذي أوهم الغافلين بوجود صعوبة شيئان : الأول كثرة ترديد المشككين المأجورين للصعوبة في كل حين وفي ميادين مختلفة، والدعاية المرددة المكررة المنوعة مهما تكن باطلة لا بد أن تغرس الريب في بعض الصدور. والشيء الثاني قليل من الكسل والتقصير من معلمي المدارس حين يقتصرون على الناحية في القواعد دون إحيائها بالتطبيق، فلو درجوا عملياً على أخذ أنفسهم وطلابهم بالفصحى السليمة السهلة وتجنب اللهجات العامية، كما يفعل الألمان والأمم الحية، بل كما يفعل زملاؤهم إلى جوارهم معلموا اللغات الأجنبية.. لو قاموا بما عليهم نحو أمتهم لم تجد الدعايات الباطلة متنفساً في ديارهم، فالقضية ليست قضية القواعد نفسها بل أسلوب تدريسها وكفى.
مهما يكن فقد أحس فضلاء بوجود صعوبة، واندفعوا يطبون لها فكان لها من ذلك علاج نافع منطقي هو الذي فعله الأساتذة الأجلاء (حفني ناصف ورفاقه) في مصر بتأليف هذا الموجز المركز السليم لطلاب المدارس الابتدائية. بحيث لا يحتاج غير المختص طول عمره إلى أكثر من الحلقة الأخيرة في النحو والبلاغة، وهي نحو مئة وأربعين صفحة من القطع الصغير. وفعل تقريباً منهم بعض المؤلفين في الشام قبلهم وبعدهم. هؤلاء الفضلاء عرفوا أن العلاج في تيسير التأليف وتسهيله وحسن عرضه وباتباع الأساليب الحديثة فيه. وفي التدريس معاً، وقد طبقوا المفصل بعملهم، وباختصار فطنوا إلى أن الصعوبة في الأداء القديم للقواعد المنافي للأساليب التربوية الحديثة لا في القواعد ذاتها.
لكن فضلاء آخرين انخدعوا من كثرة ترداد الدخلاء والعملاء ورجال التبشير والاستعمار، فراحوا يعالجون الأمر على أن الداء داء القواعد نفسها كما ألقى إليهم الأجانب في صحفهم المأجورة ونشراتهم ومستخدميهم، فراحوا يحاولون إجراء تيسير في القواعد نفسها بتبديل فيها وتغيير، فكان من ذلك في مصر محاولات رسمية ومشروعات متتابعة في التيسير والتبسيط (١) نشرتها وزارة المعارف المصرية وتتالى على رأسها النقد والتجريح العلميان فأزاحا ستائر الدعوى، فبدت وراءها حقائق التعسير والبلبلة لا التيسير والتنظيم، فماتت بعد مدة من ولادتها.
لقد كان انخداع بالخرافة لم تظهر حقيقته إلا بعد فترات قصيرة حيناً وطويلة حيناً آخر. ونجح أرباب الخرافة في شيء واحد هو اهتمام الناس بها فثار حولها جدل ومعارك قلمية

عوّقت الناس زمناً وشغلتهم عما ينفعهم وألهتهم عن المضي في الجد، ولا يخفى قيمة هذا على مكر العدو المتربص اليقظ.
أما في ساحل الشام فليس في الأمر انخداع، إن الذين تعرضوا لعيب اللغة العربية ونصبوا أنفسهم مصلحين لها مخادعون سخرهم الأجانب في عداوة اللغة والكيد لها، ومهدوا لهم منابر التدريس في كلياتهم وإرسالياتهم التبشيرية التعليمية، وأمدوهم بنفقات النشر والمكافآت، يقطر الكره والحقد والتشفي من أقلامهم على الأسطر حيناً وبين السطور أحياناً، فلنتركهم لما بهم يقتلهم غيظهم بطيئاً، فالطبيعة ماضية لطيتها غير عابثة بضغن ذوي الأهواء، الذين لا يشفيهم إلا أن تنقلب الأمة العربية الواحدة شعوباً بسبعين لغة كلهن غير لغة القرآن، وهيهات !

انتهى المطاف بدعايات التهويل حول صعوبة الإعراب إلى اهتمام وزارة المعارف بمصر وانحرافها في هذا التيار المصطنع فألفت لجنة من الأفاضل كلفتها بإعداد (مشروع لتيسير النحو) سنة ١٩٣٨ ونشر هذا المشروع، وليس من شأننا أن نعرض له في هذا الموضع، وسترى رأينا فيه، وفيما ألف له من كتب في ملحق هذه المحاضرة، إنما أذكر أن وزارة المعارف في سورية عممته بعد ذلك على المدرسين لأخذ رأيهم فيه، ومن هنا عرضنا لهذا المشروع المتعلق بالإعراب وقواعده، إذ كنا نؤرخ لحاضر اللغة العربية في الشام.
كانت شبه إجماع في أجوبة المدرسين السوريين على رفضه، وأن الصعوبة المشتكى منها في مصر لا تعالج بتغيير القواعد الإعرابية، وإنما بطريقها الصحيح وهو ممارسة الفصحى في المدارس تدريساً وحديثاً، واصطناع أساليب التربية الحديثة في تعليم اللغة ولا شيء بعد ذلك.
وتمضي سنوات ثم يعقد مؤتمر المجامع اللغوية العلمية العربية في دمشق بين (١٩٥٦/٩/٢٩ ــ ١٩٥٦/١٠/٤)، ويعرض عليها المشروع ذاته ويناقش كما نوقشت دعوى ازدواج اللغة العربية (الفصحى والعامية) وما يُزعم من صعوبة، وتنجح الشام في عقد الإجماع من المؤتمرين على إبعاد العامية وتمكين الفصحى، أما مشروع تيسير النحو فكان في توصيات المؤتمر أنه محتاج « إلى زيادة في البحث والتمحيص، وتأجيل النظر فيه إلى مؤتمر آخر »(١).
لكن أصحاب المشروع ذوو نفوذ بعيد في وزارة المعارف المصرية فحملوها على إقراره وعلى تأليف كتب المدارس على أساسه، وكان منهم وممن حولهم مؤلفوها، وفرض المشروع على التعليم المصري مما لا نعرض له هنا إلا من زاوية ما مس الشام خاصة من مشاركة في بيان قيمة المشروع :
فقد دعيت لجنة من وزارة التربية والتعليم أيام وحدة الشام ومصر إلى القاهرة لتشترك في لجنة عامة تخطط تطبيق المشروع والكتب المدرسية التي ألفت على أساسه على المدارس السورية، وبعد دراستها للمشروع اعتذرت عن تطبيقه لأضرار وأسباب أبانتها، وانتهى نقاش المجتمعين سنة ١٩٦٠ على أن يعقد مؤتمر عام يشترك فيه كل المعنيين بالأمر في وزارتي التربية والتعليم والجامعات من القطرين معاً.

وفي العام التالي عقد هذا المؤتمر باسم (حلقة تيسير النحو) في كلية دار العلوم بالقاهرة بين ١٩٦١/٢/٤ – ١٩٦١/٢/٩ وبعد الاستماع إلى كلمات المؤيدين والمناوئين أجمعت الكلمة على إصدار قرار برفض المشروع (١).

هذه أضخم المحاولات المتأثرة بالدعيات الشعوبية من حيث لا يشعر أصحابها، ودعمها مجمع اللغة العربية في القاهرة، وحذر منها مجمع دمشق ثم نصرتها وزارة التربية المصرية بكل ما لديها من نفوذ، انتهت بما عرفت من إخفاق، مع العلم أنه ليس أحد من أصحاب المشروع أراد هدماً لشيء من جوهر الفصحى الجامعة.

أما بعد فإن الصحافة والإذاعة والحفلات والنوادي والمدارس وما إليها كل ذلك عمل عمله في تمكين الفصحى في أسماع غير المتعلمين حتى ألفوها وحتى ارتقت لغتهم من حيث لا يشعرون، وحتى ضاقت الشقة جداً بين التي يثيرها الشعوبيون والمأجورون والمغفلون الذين يتكلمون فيما لا يحسنون، ويحاولون جهد المستميت أن يردوا عجلة الزمن إلى الوراء. أو يمحوا بجرة قلم وتأليف رسالة وعياً تغلغل من الأمة العربية في الأعماق ،أو يردوا تياراً متلاطم الأمواج عن طريقه السالك بنفخات من صدور مريضة قتلها الداء.

وقد والله نسخ هؤلاء المتجادلون في صلاح الحرف العربي وفي العامية وصعوبة الإعراب، نسخوا هزء التاريخ بالنقاش البيزانطي. إن البيزانطيين تناقشوا في التوافه والعدو على الأبواب، وتناقشنا في الباطل لندفع به الصحيح، والعدو في عقر دارنا قد احتلها دوننا، وشتتنا تحت كل كوكب، وشغلنا بهذه الأباطيل ولو كانت نتيجتها الإخفاق، أليس قد صرفنا بها عن الاهتمام بما ينفعنا سنين طوالاً، وشكك بعضاً منا في مقدساتنا زمناً أطول ؟

ملحق

كلمة الوفد السوري في التجربة التي طبقت في مدارس مصر تنفيذاً لما سمي بمشروع (تيسير النحو) وفي الكتب التي فرضت على أساسه نثبتها هنا وقد أصبحت في ذمة التاريخ :

نظرات في مشروع « تيسير النحو »

ألقيت في (٢٠ شعبان سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١/٢/٦م)، في مؤتمر
« تيسير النحو » المعقود في كلية دار العلوم في القاهرة بين (١٨ و ٢٣
شعبان)، (٤-٩ فبراير ١٩٦١)

كانت تصلنا ونحن في الشام في الثلاثين سنة الماضية، بين الفينة والفينة، ضجات مصطنعة وأصوات مريبة، تجتمع على التشكيك في صلاح اللغة العربية لحياتنا الحاضرة، وعلى الشكوى من صعوبتها. وكأن جهازاً مسيراً يبعث هذه الأصوات في كل قطر على ميعاد، وبقدر معلوم يناسبه، ثم يرصد صداها بدقة، استعداداً لجولة ثانية يصلح فيها من خططه ومظاهر دعايته، على هدى ما رصد في الجولة السابقة ».

قالوا : « إن في برامج مدارسنا حصصاً للغة العربية وحصصاً للغة الأجنبية، وإن النتائج كانت تثبت أن نسبة إتقان الطلاب للغة الأجنبية تفوق نسبة إتقانهم اللغة العربي إذا راعينا عدد الحصص لكل من اللغتين ».

وانجلت موجات التشكيك والشكوى التي كانت ترسل من أطراف متباعدة لا يخطر على البال تأثرها بمحرك واحد ؛ انجلت مع مقابلتهم تعلم اللغة الأجنبية بتعلم اللغة العربية عن الزعم الآتي :
« إن الصعوبة كامنة في اللغة العربية نفسها » ثم تراجعوا فقالوا : « إنها في نحوها وفي أحرفها وفي إعرابها ».
وكان محل هذه الدعاية صحف ومجلات، وأساتيذ وأعضاء في مؤسسات، يعزفون نغمة واحدة أراد ملحنها الإفادة من ظاهرة اجتماعية نفسية هي أن من طبيعة الجماهير وأغلب الأفراد، الاطمئنان إلى ما يكرر على الأسماع وما يروج بكثرة، وأن الذين يعتمدون لمنطق ويحررون خطواته قلة لا يستمع إليهم أحد في ضجة الدعاية المدروسة ؛ فكان أن خامر بعض النفوس المخلصة أن « آفة اللغة هذا النحو ».
وأقف هنا عند المقدمة التي أسلمت إلى هذه النتيجة امتحنها بشيئين : بواقع نعرفه كلنا، وببديهة سلم بها أهل الاختصاص وغيرهم، وأيدتها التجارب المتواترة المستعمرة.
أما البديهية فهي أن اللغات تكتسب ممارسة ومرانة، بسمعها دأباً، وقراءتها وكتابتها والتعبير بها دأباً متصلاً أيضاً، وهنا نحتكم إلى الواقع فنتساءل :
١- هل كان طفلنا في مدارسه الابتدائية والثانوية يتلقى دروسه باللغة العربية ويناقش مدرسه بها ؟ الواقع : لا.
٢- في مقابل ذلك : هل كل يسمع دروسه الإنكليزية والفرنسية ويحدثه مدرسه بهما ؟ الواقع : نعم.
فأي عجب في أن يوصل طريقان إلى هدفان متعاكسين ؟ وما علاقة النحو بضعف طالب نكبوه الطريق الصحيح فلم يمارس لغته قط ؟ إن على من أراد الطب لدائه ألا يكتم من أعراضه شيئاً، ودواؤنا أتى من جريمة إهمال اللغو العربية السهلة المتدرجة منذ السنة الأولى الابتدائية، تجدون النحو أصح كمالياً لا ضرورياً.
ولكن أصرح فنعترف أن دروس اللغة العربي نفسها – لا الحساب ولا الجغرافية – لا تدرس غالباً باللغة العربية، لا في التعليم الابتدائي ولا في التعليم الثانوي، وأخشى أن أقول : ولا في التعليم الجامعي.
سقى الله أياماً عشناها كان فيها طابع القوة يزين أغلب المتخرجين من ثانويات الشام ومعاهدها العالية في مختلف الاختصاصات، وظللنا ننعم بثمراتها حتى منتصف العقد الخامس من هذا القرن، أيام كان التشكيك في شيء من مقومات الأمة ديناً أو لغة أو تاريخاً علامة على انتظام صاحبه في الاستخبارات الأجنبية (١). ثم صار الضعف في هذه المقومات عينها يسم فيما بعد، خريجي تلكم المؤسسات نفسها، حين تسربت إلى الشام أوبئة التشكيك تشغل الناس عن الانصراف إلى النافع من أمور العلم والتعليم، وحين أولع بعض المستشارين بتغيير البرامج والمناهج والكتب المدرسية ونظم الامتحانات، إشعاراً بعهده الجديد وإرضاءً لهواه في أن يترك أثراً يذكر ؛ وقد – والله – ترك أثراً لا ننساه : انحطاطاً في مستوى التعليم والامتحانات والمدرسين وإفساداً لضمائر كثيرة أطغاها الاتجار بالكتب المدرسية.

كان النحو في مدارس الشام بخير ولمصر في ذلك فضل. ولقد تلقيته طفلاً في المرحلة الابتدائية، في سلسلة (الدروس النحوية) للمرحوم حفني ناصف ورفاقه، وأنهيتها في أول المرحلة الإعدادية، ولا يحتاج من درس جزءها الأخير (قواعد اللغة العربية) إلى زيادة في نحو ولا صرف ولا بلاغة ؛ ما عليه إلا الانصراف إلى أدبنا الصافي وتاريخنا الرائع يعب منهما ما وسعه العب ويتذوق عبقرية لغته ما أمكنه التذوق. رحم الله هؤلاء المؤلفين، لقد خطوا بالنحو المدرسي الخطوة المباركة في غير دعوى ولا ضجيج، فقدموا لبابه المحتاج إليه في ورقات قليلة، وانتفع بعملهم أجيال كثيرة. لقد أرادوا الله بعملهم فنفع بهم، وكانوا في أخلاق العلماء لم ينحطوا بعلمهم إلى استغلال، وبقي على المدرسين الخطوة التالية وهي عرض هذه المادة القليلة في دروسهم عرضاً منهجياً شيقاً متئداً، يشركون فيه تلاميذهم معظم الوقت في الأمثلة والتداريب والحديث والمناقشة، وبكلمة واحدة : إحسان أساليب التدريس. وهذا شيء ظرفه وقت الدرس لا صفحات الكتب المدرسية. إن المثل الصالح لكتاب النحو المدرسي أن يكون مذكرات لما قرر المدرس ووقر في صدر الطالب.

وبعد، لا مانع عندي البتة، لا في العقل ولا في الإمكان، أن يوفق امرؤ إلى خطوة تدفع عمل المرحومين (حفني ناصيف) ورفاقه خطوة إلى الأمام ويفيد الناس منها خيراً ؛ بل لا أستبعد أبداً أن يأتي أحد بنحو لا يمت إلى النحو الحاضر بصلة ويؤدي المقصود منه كاملاً، ثم لا يكون فيه من نحو البصرة ولا الكوفة ولا بغداد ولا الشام ولا مصر ولا المغرب ولا الأندلس رائحة ما. وإني – كما قال الأول – لا أتعبد بمذهب البصرة ولا بمذهب الكوفة، والنحو وسيلة لا غاية، فكل ما اختصر الطريق قبلته ودعوت إليه.

بهذه الروح أمعنت في مشروع الأساتذة الفضلاء أصحاب تيسير النحو منذ صدر، فحمدت فيهم حسن النية وبذل الجهد، وأشياء اختصروها في بعض الميادين كتعليم الأميين الكبار مثلاً. وودت لو بقي الباب مفتوحاً في المعاهد الاختصاصية لكل رأي جديد ومشروع آخر، حتى إذا اجتمع في السنوات العديدة مشروعات صالحة بادي الرأي، عكف أهل الشأن على دراستها والمقابلة بينها واستخلاص ما ينفع منها ، ولأمر لا أدريه أعجل بمشروع (تيسير النحو) هذا وطرح للتطبيق في قطر عربي، وسرعان ما ألفت فيه الكتب المدرسية وأخذ به جيل من الطلاب المساكين، وكان لذلك نتائج لا يحتاج التنبؤ بها إلى مزيد من ذكاء ثم تصدى بعض الأساتيذ لرصد هذه النتائج بعد أن وقعت وامتحانها في بيئة الطلاب الذين كانوا موضع تجربتها ثلاث سنين، ومن حق هؤلاء الفضلاء أن يحدثونا بما عاينوا ولمسوا (١).

أما كلمتي في المشروع فمجالها المادة الأولى من قرارات مؤتمر اللغة العربية، والتوصية الأولى من توصيات الندوة المعقودة بوزارة التربية والتعليم المركزية في شعبان ١٣٧٩هـ (فبراير ١٩٦٠م).

(أ) تنص المادة الأولى من قرارات مؤتمر المجمع على أن :

« كل رأي يؤدي إلى تغيير في جوهر اللغة وأوضاعها العامة لا تنظر إليه اللجنة ».

(ب) وتشترط التوصية الأولى للندوة على هذا المشروع شرطين :

١- ألا يمس أصلاً من أصول اللغة العربية.

٢- وألا يقطع صلة الطالب العربي بتراثه القديم.

على ضوء هاتين المادتين أمعنت ثانية في المشروع كما هو في كتابه الشارحين (تحرير النحو العربي – دار المعارف ١٩٥٨) و (النحو المنهجي – طبعة ثانية ١٩٥٩). فتبين لي أن فيه – مع تقديري له – أموراً ثلاثة :

١- إهدار لبعض اللغة من جهة، وتغييراً خفيفاً لبعض معالمها من جهة.

٢- وولوعاً بتعديل المصطلحات يؤدي إلى شيء من فوضى وقطع صلة بالتراث القديم مع إخلال بالاختصار الذي كان الداعي الأول إلى هذا المشروع فيما أحسب.

٣- وخللاً في القواعد نفسها من ناحية الإحكام.

وأنا أعارض لهذه الأمور الثلاثة ببعض الإشارة والتفصيل :

(ا) أما الإهدار وتغيير المعالم فكلنا يعلم أن النهج الصحيح والمسلم بع منذ زمن الخليل بن أحمد إلى يوم الناس هذا أن القواعد تستنبط وتؤسس على الأكثر الأشيع من اللهجات، وما سجل من غير الشائع حفظ ولم يتداول ؛ فحشر قواعد تتعلق بلغيات متروكة مُهدرة تفسد المنهج وتضعف المخطط ؛ أما إذا استبدلنا هذه اللغيات بالفصيح الشائع المتداول فقد غيرنا المعالم وأتينا بمجموعة لم ينطق بها عربي قط.

إذا صح هذا كان تجويز قول الأخفش (المشار إليه في حاشية بالصفحة ٣٦ من تحرير النحو العربي) منع كل علم من الصرف، بلبلة وفوضى وتسوية للفصحى الشائعة المستفيضة المتواترة بلغية إن ثبت لها وجود فق عوملت بما يجب لوجودها المتمتع من إهدار واستنكار، وكان إحياؤها – في غير الضرورات الشعرية – تغييراً لمعالم الفصحى إلى الآن ؛ وكان ما ذكر في أسلوب لا سيما (ص ١٩٧ من تحرير النحو العربي) تغييراً للمعالم في الأحكام والاستعمال معاً : أما الأحكام فقد رجع المشروع نصب الاسم بعدها وهو أقل الحالات وروداً حتى لقد منعه بعضهم، والأسلوب المرضي الشائع جزه كثيراً ورفعه قليلاً ؛ وأما الاستعمال فلا يلي (لا سيما) في كل ما اطلعت عليه إلا الاسم، ولذا استغربت ما ذكره المشروع من أن « الجملة الحالية والجملة الشرطية قد تليانها – ١٩٧ تحرير » وهذا شيء نراه اليوم في الدارج من كلام غير المتمكنين، ولم أر مثل هذا الاستعمال لثقة مشهور ؛ فإن لم تخنى الذاكرة كان هذا أيضاً تغييراً للمعالم، وتقويلاً للعرب ما لم يقولوا، وإتياناً بتخريج لا يصح لغة ولا استعمالاً في معنى (سيّ).

وجميع المشروع في باب (المسند والمسند إليه) أبواب (الفاعل ونائبه والمبتدأ والخبر والفعل – ٥٩ النحو المنهجي، وقرارات المجمع) اختصاراً – كما قيل – وتيسيراً على الطالب ؛ ومعلوم أن لكل من هذه الأبواب أحكاماً واستعمالات وأحوالاً موصوفة مفصلة في التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والمطابقة وعدمها، أحوالاً تجب معرفتها لفهم كلام العرب وللصيانة من اللحن ولإحلال المعاني محالها بإعطائها ما يجب لها من الألفاظ والتراكيب، ولم تذكر كل هذه الأحكام في المشروع وكتابيه ؛ فإن كان في النية إصدار ملاحق تفي ببيان ذلك وأشباهه كان تغيير التقسيمات المألوفة ومصطلحاتها تعسيراً لا تيسيراً، ولغواً من العمل، وقطعاً للصلة بالتراث القديم، وإن كان المقصود إلغاء هذه الأحكام والاستعمالات فقد ألغينا شطراً صالحاً من سنن كلام العرب لنحل محله شيئاً مجهولاً لا ندري ما يكون على مدى السنين.

ومنع المشروع دخول (لا) الناهية على صيغة مضارع المتكلم (٦٣ تحرير)، وكلنا يعلم أن قولهم : « لا أرينك هاهنا » أسلوب عربي من أفصح الكلم وأجزه، ومعناه : (لا تكن ها هنا حتى لا أراك) وعليه شواهد محفوظة.

٢- أما المصطلحات والتقسيمات الجديدة فليس فيها – إن كانت موفقة محكمة ميسرة – غير قطع الصلة بتراثنا العلمي مع الزمن ؛ لكنني فاتني إدراك اليسر والتوفيق والإحكام في مثل ما يأتي :

(أولاً) سمى المشروع الجملة الشرطية بـ (أسلوب الشرط) ثم اضطر إلى التفريق بين الأدوات الجازمة وغير الجازمة، وحالات المضارع معها جزماً وغير جزم، فلم يختصر أصحابه شيئاً، بل خرجوا على أصل التزموه هم في الأساليب حين خصوها بما لا يتغير، فألغوا إعرابها المعروف. ولا شك أن التعبير بجملة الشرط أدق من التعبير بـ (أسلوب الشرط) حتى على مصطلح أصحاب المشروع.

(ثانياً) المسلك المألوف فيما ينوب عن الحركات في المثنى والجمع السالم والممنوع من الصرف، أيسر بكثير من تقسيم المشروع للاسم المعرف إلى سبعة أقسام (١) :

١- اسم يعرب بالحركات الثلاث.
٢- واسم يرفع بالضمة وينصب ويجر بالكسرة وهو جمع المؤنث السالم.
٣- واسم يرفع بالضمة وينصب ويجر بالفتحة وهو الممنوع من الصرف.
٤- واسم يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء وهو المثنى
٥- واسم يرفع بالواو وينصب ويجر بالياء وهو جمع المذكر السالم.
٦- واسم ينصب بالفتحة ولا تظهر عليه الضمة والكسرة وهو الاسم المنقوص.
٧- واسم لا تظهر عليه حركة وهو المقصور.
٨- واسم يلازم الكسر وهو المضاف إلى ياء المتكلم.

وبهذا يحار الطالب في توابع بعض هذه الأسماء كالمقصور والمضاف إلى ياء المتكلم كيف يحركها ونحن قد ألغينا له الإعراب التقديري والمحلي المتكلفين بتجلية المعنى الملازم دائماً لحركات الإعراب.

(ثالثاً) لا شك في أن التعبير للمفعول المطلق والمفعول لأجله والمفعول فيه والحال أوجز من المصطلحات الجديدة التي أضافت إلى ما تقدم كلمة (تكملة) المترجمة فقالت :

تكملة بالمصدر لتأكيد الفعل (٧٥ تحرير) وتكملة لبيان سبب الفعل، وتكملة لبيان الزمان أو المكان وتكملة بالحال.

ومتى عرف الطالب ركني الجملة أدرك بطبيعة الحال أن الباقي زيادات. وكلمة (تكملة) مشعرة بأن الجملة ناقصة، وهي غير ناقصة باستيفائها الركنين ؛ أفلم يكن الأولون أدق اصطلاحاً حين عبروا عنها بالفَضْلة.

(رابعاً) مع مللنا مدرسين من كثرة ما نردد كلمات (فعل وفاعل ومفعول به) في إعراب مثل (ألقى الطفل ورقة) نجدها أسوغ وأخصر وأحكم وأوضح للصغار والكبار من قولنا : (مسند ومسند إليه (٢) وتكملة بالمفعول به).

٣- وأما الخلل في القواعد نفسها فقد تقدم أن الطريق الصحيح في وضع قاعدة ما مراعاة الغالب في اللغة بحيث تصدق القاعدة على الأشيع من الفصيح، ولا يذكر وجهان فيها إلا

حين يتساويان في الشيوع أو يتقاربان. أما ما ورد لمجهول أو روي من شذوذ أو انفردت به جماعة من قبيلة على رواية الله أعلم بها فيحفظ في المطولات ولا يقاس عليه، ولا يذكر في المراجع المتوسطة فما بالك في كتب مدرسية للناشئين لا يجوز أن تحتوي إلا المجمع عليه. والاستنصار بمثل هذه اللغيات الضعيفة بل المنكرة لتسلم لهم قاعدة ارتجلوها مخالف للهج المطفي في وضع قواعد لتعلم اللغة، بل هو تأسيس للغة جديدة ينكرها الاستعمال كل الإنكار.من ذلك تصغير أصحاب المشروع كلمتي (شيخ وعين) على (شيوخ وعوينة ١٠١ تحرير) وهو مخالف للسماع والقياس معاً، ولم أدر مستندهم في ذلك (١)، والمجمع عليه : (شييخ وعيينة).

ومنه نصهم على (بحريني) نسبة إلى (البحرين) والمجمع عليه في ذلك (بحراني) كما هو معلوم. ومنه درجهم في كتب مدرسية إضافة (حيث) إلى الأسماء الظاهرة (١٣٠ تحرير)، من أجل شاهدين لم تسلم روايتهما وإنما يؤتى بهما لتثبيت القاعدة بالشذوذ، و(حيث) لا تضاف إلا إلى الحمل، والاسم بعدها مرفوع على الابتداء كما هو معلوم.

ومن ذلك نصهم على مجيء (من) بعد (نعم وبئس – ١٨٠ تحرير) ثم اكتفاؤهم في الاسم المعرب بعدهما « أن يكون معرفة فيرفع أو نكرة فينصب » والمعروف المشهور أن يكون محل بـ (الـ) أو مضافاً إلى محل بها أو كلمة (ما)، وليس في النصوص الموثوقة الواردة عن العرب غير ذلك فيدرج في كتاب مدرسي للمبتدئين.

وأشد من ذلك كله في رأيي نصهم على مجيء لغة (أكلوني البراغيث) في كلام العرب قليلاً (١٠٠ تحرير) والاستشهاد له بشواهد قليلة أكثرها غير مسلم وغير محقق ولا يخرج على ما خرجوه ليسلم (٢) لهم إلغاء الضمائر من الأفعال المتصلة بها وجعلها حروفاً دالة تيسيراً – قالوا – على الطلاب وما هو بالتيسير. واستنصروا لذلك برأي للمازني وما قال المازني ما قالوا، إنه لم يلغ الضمائر كما فعلوا بل جعلوها مستكنة في الأفعال وجعل هذه الحروف إشارات إلى الضمائر المستكنة حتى ينسجم كلامه في مذهبه على الأقل، ومع هذا طرح العلماء مذهبه لتكلفه وعسره، لقد ظلم والله المازني حين أخذوا نصف كلامهم الموافق لنظراتهم المرتجلة، وطرحوا نصفه الآخر المناهض لها وهذا أبلغ الظلم.

ومن ذلك إشاراتهم في حاشية (النحو المنهجي ص٦) أن رفع خبر (ليس) لغة تميم، وتميم مظلومة في هذا كالإمام المازني المسكين، والأمر ليس على ما قالوا بهذا الإطلاق، فتميم كسائر العرب تنصب خبر ليس دائماً ولا ترفعه إلا حين يبطل نفيها بـ (إلا) في مثل (ليس الطبيب إلا المسك) وشتان ما الأمران.

ومما يقف عنده المرء في كتاب نحو حديث يوضع للمدارس إهمال العناية بالمعنى، والمعنى هو الذي يعطي القاعدة روحها وبرهانها وصحة التطبيق عليها في نفوس المبتدئين بداهة دون تكلف مثل :

١- إهمال النص على معنى (ما) التي تتقدم (دام) الاستمرارية (١٢٠ تحرير).
٢- وإهمال معنى (أو) التي ينتصب بعدها المضارع (٦٠ تحرير).
٣- وكقولهم : « إذا نون المنادى نصب وإذا منع التنوين رفع – ١٨٩ تحرير » دون بيان متى يكون هذا ومتى يكون ذاك ؟ وفي أي معنى ننصب وفي أي معنى نرفع ؟..

وهذا مع إضاعته المعنى فيه تحرير للمتعلم الذي يلتقى إليه هذا القول على إخلاله ونقصه.

٤- وكذلك إهمالهم الفرق المعنوي بين (قبل) المضمومة و (قبل) المنونة وهو مهم جداً.
ومما ينافي الإحكام نصهم على تنوين الثلاثي الساكن الوسط في أعلام الإناث (٣٦ تحرير) وهو أمر جائز وإهمالهم النص على تنين الأعلام الأعجمية المماثلة لها وهو أمر واجب، ولو عكسوا فأهملوا ما ذكروا وذكروا ما أهملوا ما كان ممكناً. وكذلك إكتفاؤهم في بيان ما لا يصاغ منه اسم التفضيل بدلالة الوصف على لون أو عيب ظاهر (٨٣ تحرير) وأهملوا ما يدل على حلية ظاهرة وهو قسيم الأول تماماً.
واقتصر المشروع على أحد وجهي في النسبة إلى سماء وهو (سمائي – ٩١ تحرير)، فأهدر المشهور المستعمل إلى اليوم من رد همزتها إلى أصلها فكل الناس يقولون (سماوي وسماوات)، فإن كان لا بد من الاقتصار على وجه واحد فعلى المستعمل المشهور إن أردنا التيسير.
وودت لو عرفوا المتعدي بغير قولهم (ما يحتاج إلى تكمله بمفعول به – ٥٢ تحرير) لعدم إحكامهم، إذ كثيراً ما يترك متكلم ذكر المفعول به لإرادة التعميم أو لعدم تعليق غرضه بمفعول، كما وددت لو أتوا بأدق من قولهم (يجوز التعجب من الفعل مباشرة بشروط – ١٨٦ تحرير) وهم يريدون اشتقاق صيغة التعجب من الفعل.
هذا ما أردت أن أعرض له، وبه تظهر حاجة المشروع وما نجم عنه إلى مهج شامل يحكمه في تعقيد القواعد وصوغها، وحاجته إلى الاعتماد على الإحصاء في الإثبات والإهمال.
وقبل ذلك كله – في رأيي – كان يجب إعداد العدة لوضع خطة شاملة في امتحان الشواهد التي اعتمدها النحاة وإخضاعها لنقد علمي يستبعد به كل اللغيات والنادر والقليل، ويحرر ما سلم على الامتحان والشواهد ليصبح هيكل النحو متماسكاً لا رقعة فيه ولا ثغرات فذلك أجدى على العربية وعلى علومها.
إن هذا المشروع – رد الله غربته – كان يجب ألا يخرج من مجمع اللغة العربي، بل يبقى هناك على الرف في انتظار أمثال له لا يستحيل أن ينجم عنها شيء نافع في جزئية ما.
وقد وقع ما وقع، وتعرض جيل من أبنائنا إلى ما تعرضوا، وشعرنا جميعاً بالحسرة لهم إذ كانوا لهم نزوة أسلمت إلى نكبة أصابت غير الذين ظلموا، وأوجع من ذلك أنه لم تحدد مسؤولية ولا مسؤولون ! فإن أورثنا ألمنا لأبنائنا أن نكون في المستقبل أيقظ وأحذر وأشد حساباً بالتبعة وأقل عبثاً بمصالح الناس، فقد أعقب خيراً والندم على التفريط مطهر كما يقولون، والتدارك ما زال ممكناً.
أما تواصي الندوة فيجب أن يؤخذ بها جميعاً، فبها يجب أن يبدأ، وهي مسلمات مسلكية ما كان ينبغي أن يغفلها قطر من الأقطار كل ها الزمن.
وأختم بما بدأت ملحاً على أنه يجب أن تكون لغة المدارس في كل شيء هي العربية الفصحى الجامعة، فإهمالنا هذه البديهة جر علينا ما جر، والاشتغال بغير ذلك خبط في ظلام، وحيد بالقافلة عن الطريق، وحرام أن نحرم لغتنا ما لم نمنحه اللغة الأجنبية.
هذه هي السبيل وأنتم بعد والنحو بخير والسلام.
٢٠ شعبان ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١/٢/٦م سعيد الأفغاني دمشق – كلية الآداب
مستقبل العربية في الشام

إني حين أعرض أمام عيني ما كانت عليه اللغة العربي قبل خمسين عاماً وما آلت إليه اليوم، أكاد أقرأ من صفحة الغيب ما ستكون عليه في الخمسين عاماً القادمة، إذ إن المستقبل هو اطراد الحركة بين الماضي والحاضر في اتجاهها المحدد وسيرها المنتظم نحو الأمام لا توقف ولا تلكؤ ولا رجعى إلى الوراء.

وأي حرج في أن أحصي الآن المكاسب التي ظفرت بها لغتنا الجامعة في تلك الأعوام الخمسين في أكثر الميادين :

١- لم تكن تسمع العربية الفصحى إلا في الصلوات وخطب المنابر ودروس المساجد، وهي الآن تسمع في المدارس التي لا تخلوا منه قرية، وهي اليوم لغة المحافل والمصالح الحكومية، والإذاعات والبلاغات، وصلت إلى كل مزرعة نائية، واقتحمت الدور والشوارع والحوانيت، فأنت تسمعها من أجهزة الإذاعة في كل مكان.

٢- لم تكن تبلغ نسبة الفاهمين من مستمعي الفصحى في المعابد خمسة في المئة، واليوم لا تكاد تجد في الأميين واحداً في المئة لا يفهمها إذا قرأت عليه جريدة أو استمع إلى إذاعة.

٣- كانت اللغة الفصحى التي تسمع سقيمة ركيكة ترزح تحت الأسجاع والقوالب الممجوجة لا تخرج عن موضوع الوعظ الجاف، فأصبحت اليوم مشرقة واضحة سهلة سلسة، طوعت لنفسها كل الميادين في العلم والصناعة والآداب ومستلزمات الحياة اليومية.

٤- كان في كل حي أفراد يعدون على الأصابع يستطيعون كتابة رسالة بريدية بلغة أكثرها عامي سوقي، فآل الحال بعد انتشار التعليم إلى أن كل فتى في سن التحصيل الثانوي يعبر عما يريد في كل موضوع بلغة سليمة في الجملة شفاهاً وكتابة.

٥- كانت التركية لغة العلم والعامية لغة التدريس، فصارت الفصحى اليوم لغة العلم ولغة التدريس معاً.

٦- إن المقابلة صغيرة بين ما نتذكر من عامية الأمس (قبل أربعين عاماً) وبين عامية اليوم في كل بيئة كافية لإدراك المدى البعيد بينهما، إن عامية اليوم حافلة بالمفردات والتراكيب الفصيحة ولا تحتاج إلا إلى مس رقيق في الأدوات والإعراب. وسرعة التقدم تزداد ماضية في (سلسلة هندسية) كما يعبر الرياضيون.

فإذا أضفت إلى ما تقدن، ما توافر في الفصحى من جميع صفات اللغة المشتركة الشاملة في كل العصور : كتميزها من كل اللهجات المحلية « بمستوى لغوي راق، واستقرارها على قواعد لا تسمع لها بالتغير والتطور إلا في القليل من الأحيان وبعد أجيال من الاستعمال حتى اتخذها الناس في جميع العصور مقياساً لحسن القول وإجادة الكلام » (١). وأنها على طول العصور كانت اللغة المشتركة الوحيدة التي تفاهم بها أبناء العرب والمتعلمون من غير العرب بين الصين والمحيط الأطلسي في العالم القديم كله (آسية وإفريقية وأوروبة) وزاد اليوم المتفاهمون بها بسبب انتشار التعليم، وربما لم يبق على سطح الأرض اليوم عربي لا يفهمها ولو كان أمياً. فهي التي أبقت وحدة الأمة العربي من عشرين قرناً إلى يوم الناس هذا. فنحن بفضلها أمة واحدة تاريخياً وجغرافياً وثقافة وروحاً وآلاماً وآمالاً وحتى سياسة ليست الأسماء المتعددة لحكومات الشعوب العربية إلا تقاسيم إدارية، ويوم وحدة الإدارة والعلم قريب غير بعيد فالزمن في صالح هذه الوحدة بأسرع مما يقدر المتفائلون.

إن طبيعة الفصحى القوية وعملها الدائب في حفظ الوحدة قد استعصتا كما عرفت على كل تهديم ذكي أو غبي، وعالميتها من الصين إلى الأطلسي أعيت دهاء الماكرين من أعدائها، حتى في أشد عصور الفرقة والانحلال يوم كانت في كل مقاطعة دولة حين انحلال العرى السياسية انحلالاً تاماً وتباعد الشعوب المتجاورة وبطء المواصلات وصعوبتها فيما بينها، يوم لم يكن أمن ولا رعاية، يحكم الشعوب المجزأة حكام من غير العرب... حتى في أحلك هذه العصور حفظت الفصحى لغتنا الشاملة أدبنا الواحد، فتثير مشاعرنا اليوم قصيدة ينظمها شاعر من مراكش كما يثيرها قصيدة شاعر آخر من مكة قبل ألف عام أو ألفين، يفهم صغارنا اليوم هذه ويتذوقونها كما يفهمون تلك ويتذوقونها، وليس على الأرض قط لغة لها هذا الشمول في الزمان والمكان وتلك معجزة العربية البادية لك ذي عينين.

أما الشبه والشكوك التي يبثها الأعداء ويتلقفها عنهم أجراؤهم وعبيدهم المنتسبون إلينا في التبعة الجنسية فقد عرفت أمرهم فيما تقدم، مصيرها في المستقبل كمصيرها في الماضي : زبداً يذهب جفاء، والغريب أن هذه الدول والإرساليات التي تغذي هذه الشبه المعرقلة في لغتنا تعامت عن حقائق (ش شبه) في لغاتها هي حيث الازدواج الملحوظ، والتطور المتباعد بين لهجاتها المختلفة بحيث اضطرت إلى فرض لغة شاملة للكتابة فرضاً، ترى ذلك في ألمانية وفي فرنسة وفي غيرهما، ويعجبني ما جاء في قول العلامة الحصري وهو يرد على هؤلاء (العملاء) ويضرب لهم المثل من فرنسة نفسها، وهي في مقدمة الدول الاستعمارية التي نشرت على لغتنا الفصحى حرباً لا هوادة فيها في لبنان والمغرب والجزائر وتونس، لا تزال أضرارها مستمرة حتى اليوم وإلى الغد، على تفاوت في سعة الأذى بين المغرب والجزائر من جهة لبنان ومن جهة ثانية قال الأستاذ :

« رجال الفكر والسياسة في فرنسة لم يقولوا : فلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها ؛ بل قالوا : يجب أن نقضي على هذه اللهجات، ورجال العلم والأدب لم يقولوا : فلنكتب باللهجات الدارجة بين الناس ؛ بل قالوا : لنسع إلى رفع لغة الحوار والكلام إلى مستوى لغة الكتابة والأدب.. وإلا لما تقدمت اللغة الفرنسية تقدمها المعلوم، ولا كتبت الآثار الكلاسيكية الخالدة، ولا ظهر إلى عالم الوجود شيء اسمه الأدب المعاصر المزدهر (١)» !

الزمن سائر بنا وبفصحانا إلى الأمام، ما في ذلك شك، ولو كان للحكومات العربية بعض الوعي لأهدوا هذه الفصحى الكاملة لغة رسمية إلى شعوب لا تتكلمها الآن، لكنها تحبها وتقدسها تديناً وتقرباً إلى الله، لو أن لنا بعض الوعي لأرسلنا الإرساليات إلى (باكستان) مثلاً تنشئ مراكز لتعليم العربية ونشرها، لتكون هي اللغة الشاملة لهم بدلاً من الإنكليزية التي اضطروا إلى اتخذاها لغة رسمية على كرههم لذلك، إذ كانت لغاتهم المحلية متعددة ومن الصعب جداً أن يتفقوا على إحداها لغة شاملة، وكان من أهون الأمور اتخاذ العربية لغة رسمية لإجماعهم على تقديسها ولإقامتهم شعائرهم بها، لكن دول العرب مشغولة عن الإفادة من هذه الإمكانيات بلهوها وتناحرها وصبيانيات حكامها، والعدو يمد لهم في هذا اللهو والتناحر. وفي نفسي اطمئنان إلى أنه يوم اتخاذ بعض الشعوب الشرقية لغتنا الفصحى لغة رسمية آت لا ريب فيه وإن لم أملك الآن تعليل هذا الاطمئنان. لندع ذلك للزمن، لكن شيئاً آخر نستطيع إذا صدقت النية في إنجازه أن نبادر به الزمن فنعينه على بلوغ القصد إن الزمن سار بالأمة وبالفصحى نحو التقدم في هذه الأعوام الخمسين التي فاتت، وما بث العدو

في بيئاتنا من مقومات ومعرقلات استجاب لها أولو الحقد، عوقت السير شيئاً قليلاً، أفلا يجب علينا نحن أن نساعد الزمن بأنفسنا وجهودنا فلا نكون كلاً عليه في المستقبل كما كنا كلاً عليه في الماضي ؟

لقد حصدنا من غفلتنا وخيانة بعض المستأجرين من مواطنينا في الصحافة والتأليف ومنابر التدريس بعض الخسائر، التي كانت تكون أكثر لولا الروح العالية الطماحة المناضلة التي تحلى بها رعيلنا الأول آخر أيام الحكم التركي وأول الحكم العربي. ولقد آن الأوان لتمتد سواعد قوية شديدة سليمة إلى رسالة الرعيل الأول فتخطو بها خطوات فساحاً إلى الهدف الذي نحنّ إليه، وقد بات قريباً.

إن على المسؤولين أن يتموا عمل مجاهدينا وشهدائنا ومناضلينا بأمور خفيفة لا تكلفهم إلا إخلاصاً وعزيمة، ليتم النصر المنشود في عشرين عاماً بدلاً من خمسين، ولا يحملنّهم سهولة ما أقترح على استصغاره فإن أثره في تمام نهضتنا سريع فعال حميد، وإليك ما أقترح من خطوات صغيرة سهلة بناءة :

١- أن تمنع السلطات منذ الآن عرض فلم أو مسرحية على الجمهور باللهجات المحلية المبتذلة، وأن تلزم مؤلفي هذا النوع بالفصحى اليسيرة السهلة وهو هين عليهم جميعاً. ثم تمنع كل حكومة عربية دخول شيء من ذلك باللهجات العامية المحلية.

٢- أن نلتزم ما التزم الألمان مثلاً تجاه لهجاتهم العامية المحلية، حين حرموا عليها دخول المدارس والمحاكم ومصالح البريد وإدارات الحكومة الأخرى والنوادي والصحافة والإذاعة، مع العلم أن إنفاذ ذلك أسهل علينا بكثير منه على الألمان.

ويجب ألا ينسى المسؤولون هنا أن الصهيونية في (إسرائيل) أتت بمعجزة أصعب بكثير مما أتاه الألمان، حين أحيوا لغة ميّتة قديمة فجعلوها لغة الدولة الرسمية. وهذا شأن الأمم التي تتشبث بالحياة.

٣- أن تمنع كل نشرة بغير الفصحى أن تصدر داخلاً أو ترد من الحدود.

٤- تشجيع التأليف باللغة السليمة السهلة لتثقيف عامة الشعب.

٥- وهذا خاص في وزارات التربية والتعليم : انتزاع الخرافة التي لا يزال يعتقدها بعض المدرسين في أن نشر الفصحى منوط بالتمكن من القواعد العربية فحسب، ليحل محلها القانون الطبيعي العام وهو أن اللغة تتعلم بالممارسة أولاً فلا نتكلم إلا بها في مدارسنا ومجالسنا الرسمية، وأن القواعد العربية أداة معينة لا مغنية عن الممارسة، أداة معينة بشرط أن يكون المعنى هو الهادي في تعليمها وبسطها وهو الشيء الذي كاد يكون مفقوداً الآن في تدريسها، كما فقد التدريب الواسع الكثير عند تقرير كل جزئية من جزئياتها، وممارسة الكلام الصحيح حتى يصبح ملكة دون معرفة القواعد موصل إلى الهدف في كل حال، على حين أن حفظ القواعد دون ممارسة الكلام الصحيح غير مجد البتة.

٦- إن الإحسان والإحكام والإتقان لا حدود لها، وقواعدنا العربية إذا قيست بقواعد غير العربية من اللغات الحية بدت أكثر منطقية وأسهل وأحكم، لكن التأليف فيها هو الذي يحتاج إلى مزيد من التنسيق والتسهيل والإتقان، وقبل ذلك خطوة صغيرة على جماعاتنا العلمية المختصة أن تقوم بها، وذلك بالاقتصار في (القواعد المدرسية) قبل التعليم الجامعي على اللهجة القرشية التي نزل بها القرآن وما ضاهاها من بعض اللهجات الفصيحة، فنخلى هيكل

(القواعد المدرسية) من بعض الاستثناءات والتفريعات مقتصرين على الأشيع الأفصح فقط، وبذلك يستريح الصغار بهذا التشذيب والتنسيق ويسلم الهيكل العام، من بعض (الترهل) (١).

٧- الإذاعة المرياء (التفزيون). أسرع وسائل تثقيف الشعب اليوم، فإذا خلت من اللهجات المحلية المبتذلة اختصرنا من مسافة الزمن شيئاً غير قليل، وأنا أستمع إلى النشرات باللهجات المحلية من مصر والشام والعراق فلا أجد مسوغاً لها (١) قط، إن مؤلفي هذه الإذاعات – وكلهم قادر – يستطيعون بمس رقيق جعلها بلغة سليمة سهلة دون أن يخل بشيء من جمالها، والعزيمة والإخلاص كفيلان بإبعاد الكسل عن هؤلاء المذيعين.

والأمل أن تبدأ إذاعة الشام بنفي اللهجة المحلية عسى أن تتبعها أخواتها من الإذاعات العربيات، وقد سلمتا جميعاً بأن أحداً من الأميين في البلاد العربية لا يفوته فهم شيء من الأخبار المذاعة بالفصحى فهماً جيداً، ففيم إذن عناؤنا فيما يبعدنا عن هدفنا ووحدة لغتنا. إن الإذاعة مدرسة عملية فعالة سريعة الثمرات فعلينا ألا نجعل منها عدة وحدتنا اللغوية.

أما بعد فإن أكثر الطريق إلى اللغة الجامعة لشملنا قطعناه على رغم من رغم، ولم يبق منه إلا خطوات صغار نحن قاطعوها إلى هدفنا بإذن الله ولو كره الكافرون، بل إن موعد الوحدة الحق لأمتنا في جميع المقومات (لا في اللغة وحدها) وفي كل الميادين هو الصبح، وإن الصبح لقريب.